

د. عبد الوهاب المسيري

أسرار العقل الصهيوني



دار الحسام

إهداء ٢٠٠٨

أسرة المرحوم الأستاذ/ محمد إدريس
جمهورية مصر العربية

د. عبد الوهاب محمد المسيري

أسرار العقل الصهيوني

دار الحسام

اسرار العقل الصهيوني

المؤلف : د. عبد الوهاب محمد المسيرى

الناشر : دار الجمام

القاهرة ص.ب. ٥ القويه

ت / ٥١١٥٧٦٢ / ٧٧.٣٦٤

بيعت ص.ب ١٤/٥٢٩٢

ت : ٢١٨٤٢٥

رقم الإيداع / ٩٢٠٩ / ٩٦

الترقيم الدولى / 3 - 35 - 5659 - 977

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة

الطبعة الأولى

سبتمبر ١٩٩٦م

في الإدراك والسلوك والتجربة الإدراكية

من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وسلوكه ومدى تأثير الإدراك (والوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني . وهي قضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية . وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية : هذا هو هدفه ، وهذا ما يرمي إلى تحقيقه . وعلى الرغم من أن كل الفصول تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي (وموضوعات أخرى على علاقة به) ، إلا أن هذه مجرد دراسات لحالات ، إذ يظل الموضوع الأساسي هو قضية الإدراك ، وما الحالات التي أتينا بها سوى محاولات مختلفة لتوضيح بعض أبعاد هذه القضية الكلية والمجردة من خلال أمثلة متنوعة .

١ - الإدراك والسلوك

لا يدرك الإنسان واقعه بشكل حسيّ مادي مباشر ، إلا في حالات نادرة ، تتسم بالبساطة ، كأن تلمس يده سيجارة أو يدخل في عينيه جسم صلب . فالإنسان ليس مجموعة من الحلايا والأعصاب والرهبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجنسية) التي يمكن أن يُرد لها في كليته (كما يزعم الماديون) ، وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال مشروطة ، تتحكم فيها قوانين الميكانيكا أو البيولوجيا (كما يرى بعض السلوكيين) . فعقله ليس مجرد مخ مادي : صفحة بيضاء تراكم عليها المعطيات المادية ، وإنما هو عقل مبدع ، له مقدرة توليدية ، وهو مستقر كثير من الخبرات والمنظومات الأخلاقية والرمزية ، ومستودع كثير من الذكريات والصور المخزونة في الوعي واللاوعي .

ولما حينما يسلك الإنسان فإنه لا يسلك كرد فعل للواقع المادي بشكل مباشر ، وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبته ، ومن خلال عقله المبدع

الذي يتفاضل رقيب، ومن خلال ما يسقطه على السواقع من أفراح وأفراح، وأشواق ومه، أو رموز وذكريات، ومن خلال المنظومات الأخلاقية والرمزية التي تحدد به مجال الرؤية، فبقي ونستبعد وتؤكد وتهمش . كل هذه العمليات المركبة هي التي تمنح الإنسان ذاتيته وخصوصيته، وتمنح كل فرد فرادته، حتى يصح من الصعب التنبؤ بسلوكه من خلال القوانين المادية والطبيعية العامة .

وبسبب تركيبة الإنسان هذه، ونظراً لأنه لا يستجيب للسواقع المادي مباشرة وإنما يستجيب له من خلال إدراكه نرى أنه لا يمكن لأي دارس أن يحيط بأبعاد أي ظاهرة إنسانية (سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية) إلا بالفحص في أكثر مستويات التحليل عمقاً، أي النماذج المعرفية أو الإدراكية الكامنة، التي تترجم نفسها إلى خرائط معرفية ومقولات إدراكية ينظم بها الإنسان واقعه ويصنّفه، وإلى صور إدراكية يترك من خلالها نفسه وواقعه ومن حوله من بشر ومجتمعات وأشياء ونحن نضع النموذج المعرفي (والخريطة المعرفية والصورة الإدراكية) في مقابل السواقع المادي في ذاته - أي السواقع الختام الموجود خارج حواس الإنسان والذي يتشكل بإدراكه . وأرغم أن الخرائط والنماذج المعرفية والصور الإدراكية التي يحملها الإنسان في عقله ووجدانه تحدد ما يمكنه أن يراه في هذا السواقع الختام، فهي تستبعد وتهمش بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها هامة ومركزية . ولعل أكثر الأمثلة دامية على ما نقول هو الطريقة التي تتعامل بها كل حضارة مع الألوان . فهناك حضارات لا يوجد في نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى لونين (أبيض وأسود)، وحضارات أخرى لا يوجد فيها سوى أربعة ألوان، وهناك الحضارات الأكثر تركيبياً التي يضم نموذجها للوان الطيف الأساسية وبعض التنويعات الأخرى عليها . ويقال أن أعضاء الحضارات التي لا يضم نموذجها المعرفي وخريطتها الإدراكية سوى أربعة ألوان وحسب لا يرى أبنائها سوى أربعة ألوان . وقد يبدو هذا أمراً متطرفاً، ولكن حاول أن تنظر إلى صورة ريتة ملونة بصحبة ناقد محنك وستجد أنه سيكتشف من التنويعات الملونة ما لم يظن لك على بال لأن نموذجك المعرفي وخريطتك الإدراكية قد حددا إدراكك، وهي خريطة قام الناقد بإضافة مقولات جديدة لها فأدركت من التنويعات الملونة ما

لم ندرك من قبل . ونسحق هنا لا نتحدث عن «عصى الألوان» (وهو عيب فيولوجي قد يصاب به الإنسان) وإنما نتحدث عن حدود إدراكية ناجمة عن حدود النموذج المعرفي ذاته والمخرطة الإدراكية ذاتها . فالإدراك يتم من خلال الأداة، أي النموذج، ويتحدد الإدراك بمقدار مدى ضيق النموذج أو اتساعه .

هذا لا يعني أن الواقع المادي الخلق غير موجود بدون الإدراك الإنساني له، فهو ولا شك هناك في ماديته وطبيعته وموضوعيته ولاشخصيته وعموميته، خلقه الله خارج وعينا وإدراكنا وإرادتنا، وهو ولا شك له أثره في تحديد بعض جوانب فكر البشر وسلوكهم بدرجة متفاوتة في مقدار عمقها من إنسان لآخر ومن لحظة زمنية لأخرى . ولهذا يمكن تفسير بعض جوانب وجود الإنسان وسلوكه باستخدام المنهج المادي والنماذج المستمدة من عالم الطبيعة (والتي تُستخدم عادة في تفسير الظواهر الطبيعية) . ولكن بظل هناك في الإنسان ما يستعصي على التفسير من خلال هذا المنهج ومن خلال تلك النماذج .

لكل هذا حينما ندرس الظواهر الإنسانية لابد من استعادة لا الفاعل الاقتصادي أو الاجتماعي أو الجسماني أو الطبيعي وحسب، أي الفاعل الإنساني في علاقته المادية المباشرة مع واقعه المادي، ومع الملائمات المادية (الاجتماعية أو الاقتصادية . . . إلخ) المحيطة به، وإنما يجب استعادة الفاعل الإنساني، الإنسان، أي الإنسان في كل تركيبته وأسراره وفاعليته وإبداعه التي تجعله يتجاوز بيئته المادية الطبيعية المباشرة ويجعل من العسير رده في كليته إليها . ولذا لابد وأن نؤكد أنه لا يمكن دراسة ظاهرة الإنسان والظواهر الإنسانية مثلما نرصد الظواهر الطبيعية، ولا يمكن أن نسجل سلوك الإنسان كفرد أو كجماعة كما نسجل سلوك النملة وجماعات النمل . فمثل هذه الرؤية (بغض النظر عن لا إنسانيتها للقيّة) هي رؤية غير دقيقة لأن الدوافع (خيرة كانت أم شريرة)، وأشكال الوعي (مهما كان ريقها وانفصالها عن الواقع المادي)، والمعنى، أي الدلالة الداخلية التي يراها الإنسان فيما يقع له من أحداث وفيما يحيط به من ظواهر (مهما كانت سطحيته أو عمقه) تشكل جزءاً أساسياً من الواقع الإنساني .

وهذه القاعدة لا يمكن لأي إنسان تجاوزها، والصهاينة لا يشكلون أي استثناء لها . ولذا حينما ندرس سلوكهم لابد وأن نُذكر أنفسنا أن ما يحدد سلوكهم ليس الاستجابة المباشرة للعناصر والملابسات المادية المختلفة المحيطة بهم، وإنما إدراكهم لها . انظر مثلاً لاستجابة هذين المعلقين الإسرائيليين لحقيقة «مادية موضوعية» مثلاً ظهور جيل جديد في فلسطين المحتلة وكُبد وتربى تحت حكم الاحتلال .

ذهب المعلق الأول، وهو الجنرال بن إليعازر، إلى أن ظهور هذا الجيل يعني واقع الأمر ظهور جيل برجماتي مرن قادر على التكيف، لا يكتسب بالسياسة، مما يجعل من السهل القضاء على أي تمرد له طابع سياسي . بينما يرى الثاني، وهو يحزقئيل درور، أن ظهور مثل هذا الجيل الجديد يعني في واقع الأمر ظهور جيل غير خائف من الإسرائيليين، وأن هذا هو الذي أدى إلى اندلاع الانتفاضة . وهكذا نجد أن نفس العنصر المادي قُسرَ تفسيرين متضادين تماماً . والتضاد مصدره نموذجين معرفيين ورؤيتين مختلفتين للإنسان، واحدة ترى أن الإنسان ينسى تاريخه وتراثه وفاته بمرور الزمن، فهو مادة محضة تحكس الواقع المادي المتغير وقوانين الحركة الأثرية، والأخرى ترى أن الإنسان لا ينسى تاريخه بسهولة، وأن تزايد الظلم قد يؤدي إلى تصعيد الثورة . وبما لاشك فيه أن رؤية كل واحد منهما مستحددة طريقة استجابته لما حوله وسلوكه تجاهها .

وأرجو ألا يُفهم مما أقول أنني أذهب إلى أن إدراك الإنسان يتحكم في سلوكه، فمثل هذا التصور يسقط في نفس الواحدة والاختزالية التي يسقط فيها النموذج السلوكي المادي الذي يُنكر أهمية الإدراك تماماً . فالأول يُنكر أهمية الواقع المادي والثاني يُنكر أهمية الإدراك الإنساني . ما نطرحه نحن هو أمر مغاير تماماً، فنحن نذهب إلى أن سلوك الإنسان مركب للغاية تحده عدة عناصر متداخلة من بينها إدراك الإنسان لواقعه . وأن الإدراك الإنساني لا يؤدي إلى سلوك بعينه، وإنما يخلق تربة خصبة تزيد من احتمالات أن يسلك الإنسان سلوكاً بعينه دون غيره . فالعلاقة بين السلوك والإدراك - في تصورنا - علاقة احتمالية . وحتى إن وقع الإنسان أسير رؤيته وإدراكه وفاتيته بحيث أصبحت تتحكم فيه تماماً وتسيره فإنه

يمكن الحوار معه وتنبهه لبعض جوانب الواقع التي يتجاهلها . وأما كسليم الأمان
أن الله سبحانه وتعالى قد منح كل البشر قدرًا من الرشيد، وأن الإنسان بما حباه
الله من عقل قادر على أن يتجاوز إدراكه الضيق ليصل إلى إدراك أكثر رحابة
 وإنسانيته . أما إذا كان الإنسان ماشيًا عنصريًا، ممسكًا بمدفع رشاش، ومُصر على أن
يسلك في حدود رؤيته وإدراكه فيعطش بالآخرين ويدوس عليهم، فإن ما نسميه
«الحوار المسلح» هو السبيل الوحيد .

ولكن الخطاب السياسي العربي في تحليله للصهاينة (وللمحضارة الغربية)، بل
وللذات العربية) أسقط الإدراك من حسابه وبالتالي أسقط الخصوصية فسقط في
التعميم . ولا يعلو رصدنا للعلو أن يكون حديثًا عامًا عن قوة العدو العسكرية
والاقتصادية وقوته ومخططاته وربما عنصريته، ولذا نجد أن كثيرًا من الدراسات
تقوم بتوثيق ما نعرف مسبقًا، دون أي تعميق لرؤيتنا أو إضافة لإدراكنا .

وقد أدى هذا إلى تطبيع النظام السياسي الإسرائيلي، أي محاولة دراسته
باعتباره كيانًا سياسيًا طبيعيًا عاديًا بحيث تُستخدم نفس المقولات التحليلية العامة التي
تُستخدم في دراسة النظام السياسي الأمريكي وكان الكيان السياسي الإسرائيلي لا
يختلف في أساسياته عن أي كيان سياسي آخر . فيتم الحديث عن نظام الحزبين في
الديموقراطية الإسرائيلية، وعن أن كلاً من إنجلترا وإسرائيل لا يوجد فيهما دستور،
وأن النظام السياسي الإسرائيلي يعج السطح الانحلال الإسرائيلي (القناني) لا السط
الأوروبي الأكثر تعددية .

وعلماء السياسة العرب الذين يتبنون مثل هذه الرؤيا يُخطئون مرتين : من
الناحية المعرفية ومن الناحية الأخلاقية . فمن الناحية المعرفية يمكن القول أن
وصفهم للظاهرة الصهيونية ليس له مقدررة تفسيرية عالية، فهو لا يمكنه أن يُفسّر
ظاهرة مثل المنظمة الصهيونية أو دور الوكالة اليهودية التي تساعد مسكان الدولة
الصهيونية من اليهود وحسب، وتستبعد العرب، فهذه المؤسسة ليس لها نظير في أية
«ديموقراطية» أخرى . كما لا يمكنه تفسير قانون العودة ولا ضخامة الدفم المادي
والمعنوي الذي يقدمه العالم الغربي للمجيب الصهيوني . كما أنهم يُخطئون من

الناحية النضالية والأخلاقية إذ أنه كيف يمكن الحديث عن ديموقراطية تستند إلى حادثة اغتصاب للأرض وذبح لبعض سكانها وطرد لبعض الآخر واستبعاد لمن تبقى من العملية السياسية ذاتها؟ والفشل الإدراكي المعرفي التفسيري هنا هو ذاته الفشل النضالي الأخلاقي، إذ أن التطبيع يخفي عن الأنظار (وعن الضمير) الظروف الخاصة بالكيان الصهيوني ككيان استيطاني إحلالي، وحقيقة أن مشط الكيان الصهيوني وإحلاليته واعتماده الكامل على الدعم الغربي هو الأساس الذي يحكم ديناميته ومساره في الماضي والحاضر. فهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تُفسّر عدم وجود دستور حتى الآن في إسرائيل، وتُفسّر أهمية قانون العودة ومركزته. وهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تجعلنا نكتشف أن الأحزاب الإسرائيلية ليست أساساً أحزاباً وإنما مؤسسات استيطانية استيعابية تضطلع بوظائف لا تضطلع بها الأحزاب السياسية في الدول الأخرى ويتم تمويلها عن طريق المنظمة الصهيونية العالمية. وهذه الاستيطانية الإحلالية (ودور إسرائيل الوظيفي) هي التي تُفسّر ضخامة الدعم الإمبريالي لإسرائيل.

وإدراك الإسرائيليين للطبيعة الاستيطانية الإحلالية لدولتهم ولاعتمادها الكامل على الولايات المتحدة ولأسباب وجودهم وسر استمرارهم هو الذي يحدد سلوكهم وحربهم وسلمهم، وما ينكرونه علينا وما قد يُقررون منحه إلينا. وإسقاط هذه الأبعاد الخاصة يجعل من عملية التطبيع المعرفية المنهجية عملية تسويق وتبرير غير واعية للوجود الصهيوني وإضفاء درجة من الشرعية عليه.

٢ - الإدراك والتبعية للحضارة الغربية

ولا بد وأن تشير هنا قضية أخرى مرتبطة تمام الارتباط بسابقتها وهي ما سماه أحد علماء الاجتماع الغربيين «إمبريالية المقولات» - أي أن تقوم إحدى القوى بتحديد النماذج المعرفية والمقولات التحليلية الأساسية بطريقة تعكس إدراكها للواقع وتخدم مصالحها وتستبعد إدراك الآخرين وتهمل مصالحهم. ويبدو أننا نخضع تماماً لإمبريالية المقولات الغربية وأنها سقطنا بشكل شبه كامل في التبعية الإدراكية. فقد استوردنا نماذجنا المعرفية ومقولاتنا التحليلية فيما نستورد من أشياء من الغرب.

ولذا فحين حينما نتحدث عن الحضارة العربية وحينما نتحاور بشأنها ونحدد مواقفنا معها أو ضلعا تصبح تبعيتنا الإدراكية، إذ أننا عادة ما نعمل ذلك بناءً على المعطيات التي تسمح لنا هذه الحضارة بالاطلاع عليها وداحل أطر جاهرة ولما دح معرفية مسبقة أعدنا مفكرون غربيون ونطرح نفس الأسئلة التي يطرحونها هم عن حضارتهم ومن منظورهم، أي أننا ندرك الحضارة العربية لا بشكل مباشر وإنما كما يشاء أصحابها لنا أن ندركها . بل إننا بدانا سطر إلى أنفسنا من خلال مقولات العرب التحليلية ونماذج الإدراكية . ولذا بدأ الإنسان العربي يرى نفسه متحلماً مهماً بل من جهد ومهما أنج من روائع، وبدأ يحكم على نفسه بالهزيمة في المعركة قل دحولها . والتحية الإدراكية ليست تحية اقتصادية وحسب (وإن كانت تترجم معها إلى ذلك)، وإنما هي تحية عميقة كاملة تنصرف إلى أسلوب الحياة (بما في ذلك النشاط الاقتصادي) وإلى رؤية الذات ورؤية الآخر

ولبدأ برؤية الآخر، ولأضرب مثلاً على ما أقول من الثورة العرسية التي يعرف معظمنا أحداثها استثناء من اجتماع ملعب التنس وانتهاء بحروب الثورة العرسية وظهور بابليون . نحن نعرف كل هذه الأحداث تمام المعرفة . ولكن ماذا عن فندي Vendoe ؟ بل ما هي فندي هذه؟ يجب عليّ أن أتحلى بشيء من الشجاعة وأعترف أنني لم أكن قد سمعت عنها قط من قبل إلى أن قامت معركة في فرنسا يوم ١١ من مؤدحي الثورة الفرنسية فيها، فعرفت أنها ثورة انطلقت في عرب فرنسا (١٧٩٢ - ١٧٩٣) (أشار لها أحد المراجع بأنها «ثورة مصادة») وفضت عليها قوات الثورة بوحشية بالعة حتى أن المؤرخ العرسى بيير شوبو (الاستاد في السوربون) قال . «إن قوات الثورة العرسية لم تكن تحاول إخماد التمرد وحسب، وإنما قامت بعملية إبادة (هولوكوست) كانت في مظاعه الإبادة النازية وأكثر فاعلة منه» . وقد قال وسترمان، جرال الثورة الفرنسية الذي أخدم التمرد . «لقد دست على الأطفال بسانك حيلي وذبحت النساء حتى لا يلدن أي متمرد بعد ذلك» . ويجب أن نتذكر أن هذه هي كلمات ممثل ثورة الحرية والإحاء والمأواة (التي أرسلت بفوائها الاستعمارية إلى مصر والشرق)

وقد يقول البعض أن كل هذا في سبيل «التقدم»، ولكن يذهب بعض المؤرخين الآن إلى أن الثورة الفرنسية أبطأت عملية تحديث فرنسا التي كانت قد بدأت تحت حكم الملكية المطلقة، ومن ثم أعطت إنجلترا الفرصة لتصبح القوة الصناعية الكبرى في القرن التاسع عشر. وأعترف أنني لا يمكنني الأخذ برأي هذا المريق أو ذلك، وبالذات بخصوص لماندي التي لا أعرف عنها شيئاً، أو بخصوص تطور أوروبا الاقتصادي، والذي أعرفه من هذا الموضوع هو أحداث بيعها تعبر عن رؤية محددة للثورة الفرنسية، تناقلها المراجع العربية، والمراجع العرصة التي تنقل عنها. أما تلك الأحداث التي قد تتحدى هذه الرؤية فيتم استبعادها تماماً أو يتم تهتمها

كما أننا حينما نطرح أسئلة بخصوص أي ظاهرة فنحن لا نطرحها من وجهة نظرنا وإنما ننساق دائماً وراء تلك الأسئلة التي يطرحها العرب، وهي أسئلة تعبر عن رؤيته ومصلحته. ولماخذ على سبيل المثال قضية الأسرى، وهي قضية أصبحت لا تعني الإنسان العربي كثيراً بعد تصاعد معدلات التحديث والعلمنة وتآكل نظام الرواح والأسرة وقبوله التام لهذه الحقيقة كنتيجة حتمية «للتقدم». ولهذا لا تسأل كتب التاريخ العربية عن عدد الأطفال غير الشرعيين بعد الثورة الفرنسية، وعما حدث لسيرة الطلاق؟ هل ارتفعت أم انخفضت أم ظلت على ما هي عليه؟ ولكن إلي من الواجب علينا، ونحن على عتبات هذا المستغل العقلاني المادي الحديث، الذي يشر به بعض كبار مفكرينا، أن نسأل مثل هذه الأسئلة حتى نعرف بطريقة «علمية» شاملة ومركبة أحداث الثورة لا كمجرد وقائع وإحصائيات «برانية» وإنما كحقائق «جوانية» تركت أثراً عميقاً على الإنسان الفرنسي؟ وقد فشلت عن الإجابة وخرعت أنه بعد اندلاع الثورة بثلاثة أعوام رادت حالات الطلاق زيادة ملحوظة، كما أن عدد الأطفال غير الشرعيين زاد زيادة هائلة

وقد دُثبت على إثارة الشكوك بخصوص قضية «إعلان حقوق الإنسان»، لا لاسي معاد لهذه الحقوق أو رافض لها، وإنما لأنني مدرك أنها قاصرة إلى حد ما، لأن هذا الإعلان قد جعل الفرد المنزول البسيط (الإنسان الطبيعي البورجوازي) هو نقطة البدء والانطلاق. واقترح بدلاً من ذلك «إعلان حقوق الأسرة» كمرحلة

اجتماعية أساسية مركبة - ولعل الخفايا الخاصة بالأطفال غير الشرعيين بعد الثورة العربية (وفي أوروبا منذ ذلك التاريخ، وفي كل العالم عما قريب) قد تُعطي شيئاً من الترجيح للمفهوم الذي أطرحه، لأنه من الواضح أن حقوق الإنسان لا تتضمن الأطفال الذين لم يولدوا بعداً والأطفال غير الشرعيين هم مناج ذكر وأنثى استمتعوا به «حقوق الإنسان» وحرياته (كما حددتها العرب) في الخطوات لم يفكروا أثناءها في حقوق الأطفال - ولا يمكن أن يصدر إعلان حقوق الإنسان ثم يحاول الآن إصدار إعلان تكميلي بحقوق المرأة ثم إعلاناً ثالثاً لحقوق الأطفال وهكذا، فهذه العملية غير عقلانية بالمرّة لأنها أهملت في البداية الوحدة التحليلية الاجتماعية الحقيقية للواحدة، وهي الإنسان ككائن اجتماعي يسمي إلى أسرة ومجتمع، وأحلت محله الإنسان ككثرة معزلة، كائن مكتفٍ بذاته (وكأنه وحش العابة) لا وجود له إلا في ذهن روسو وهولباخ وفولتير وغيرهم من مفكري عصر العقل والاستنارة البورجوازي .

وتظهر التسعة الإدراكية بدرجة فكاكية في تحديد مؤشرات التقدم والتخلف على سبيل المثال، حتى بداية السبعينيات (قبل 'اندلاع' ثورة البيئة) كان استخدام المييزات والأسمدة الصناعية يُعدّ من مؤشرات التقدم . وقد قبلناها ساعنتها ركنا بحاسب انفسا على هذا الأساس، إلى أن اكتشف العرب أن هذا التقدم يؤدي إلى السرطان وتدمير التربة، فأصبح استخدام المييزات والأسمدة الصناعية من مؤشرات التخلف - وقد أصبح استخدام التليفونات والسيارات ودرجة التلوث من مؤشرات التقدم (دون حساب تكلفتها كما حدث مع المييزات) - وقد ضرب الأستاذ عادل حين مثلاً طريفاً على التسعة الإدراكية في مجال مؤشرات التقدم (المستفاد من كتابات الأستاذ أحمد حسين رحمه الله) فأشار إلى أن بعض «العلماء» يشيرون استخدام الكرسي كمؤشر على التقدم والتخلف، فمن استخدمه كان متقدماً ومن لم يستخدمه كان متخلفاً . ولكنه يشير بعد ذلك إلى حقيقة في غاية الأهمية وهي أن الكرسي جزء من التشكيل الحضاري العربي، استخدمه الغربيون حينما كانوا في أدنى مراحل تخلفهم وكان بعضهم لا يزال يُقدّم الصحايا البشرية (في بعض أجزاء أوروبا، مثل البلاد السلافية) . وقد استخدم الغربيون الكرسي لا لتقدم أحرارهم وإنما

لسبب مادي وجيه للعاية وهو برودة الأرض، ولعلهم قدّموا بعض الضحايا البشرية جلوساً على الكراسي وهناك شعوب أخرى مثل اليابانيين والمغرب لم يستخدموه وهم بي أقصى تقدمهم ولا يمكن الزعم مثلاً أننا أصبحنا أكثر تقدماً من عرب العصر العباسي الأول لأننا نجلس على الكراسي من طراز لويس السادس عشر أو حتى الخامس عشر، بينما كانوا هم يمتشون الأرض، كما لا يمكن أن نرغم أن وكل وزارة الصناعة مثلاً أكثر تقدماً من مدير شركة «سوي» اليابانية لأن الأول يعود إلى مرله ويجلس على كرسي، بينما يعود الثاني فيخلع رداءه الأوربي ويرتدي رداء الياباني التقليدي ويجلس على الحصير ويستريح . ولكن الكرسي تحول إلى مؤشر على التقدم بسبب انكسارنا من اللاحل وتبعيتنا الإدراكية . وقد سمعت مرة بحثاً لأحد جهلته علم الاجتماع المصري استخدم «عدد ساعات الاسماع للموسيقى السمفونية» كمعيار للتقدم والتخلف . وباله من معيار هولي سميت يؤدي إلى نتائج عصرية كريهة، إنه يشبه من بعض الوجوه عالماً غريباً يحكم على عون بلده بالتخلف لأنها لا تضم فن الخط Calligraphy، ولأن الماني العامة فيها لا تريبها حكم مكتوبة بخط جميل، فمن الخط فن مقصور على الحضارات الشرقية . وقد وصل هذا الفن إلى قمة ازدهاره عند العرب والمسلمين لأسباب دينية وحضارية خاصة بهم وحدهم، ولا يصلح كمعيار عالمي لقياس التقدم والتخلف

وبعض الشيء ينطبق على كثير من الأفكار والنظريات التي ترد لنا من العرب، إذ نتلقاها في سلبية موضوعية مذهلة ونقوم بتطبيقها على أنفسنا بكفاءة شديدة دون أن ندرك عن جذورها ولا نعرف شيئاً من خصوصيتها العربية ولا نعرف إلا القليل عن تضميناتها الفلسفية، فنحن ننقل ما يروا لنا نقله داخل الأطر القائمة الخاهرة . ولأحد فريدي على سبيل المثال، قام الباحثون العرب بنقل كثير من أفكاره وترجمه أعماله بدرجات متفاوتة من البراعة والدقة، ويمكن للإنسان العربي الآن أن يحيط إحاطة كافية بفكره وأعماله من خلال المكتبة العربية . ولكن إن طالعت هذه الكتب العربية لن تجد أيّاً منها يتحدث مثلاً عن خلية برويد الاجتماعية والإثنية في فيينا في القرنين التاسع عشر والعشرين . هل كان المجتمع

الذي يعيش فيه فرويد والذي زوده بالفهم مجتمعاً مناسباً صحياً أم مجتمعاً غير مناسبك متآكل (حتى لا نستخدم مصطلحات أخلاقية مثل «محل» و«مرقص» فتثور نائرة «العلماء» علينا وهم يفعلون لعبة علمية محايدة)؟ وإن فعلنا ذلك فإننا سنكتشف أن قيساً قبل الحرب العالمية الأولى كانت من أكثر المجتمعات العنصرية في أوروبا وازدهرت فيها الأحزاب ذات التوجه العنصري. وبما له دلالة أن أكثر الكتب شيوعاً في أوروبا في هذه الفترة كانت الكتب العنصرية. وهذا أمر منطقي، فهذه هي المرحلة الإمبريالية وتقسيم العالم التي شاعبت إبانها الفلسفات الداروينية والبيثوية والتي أعلنت أن الخالق قد اسحب من الكون أو حل فيه ثم مات (حسب رأي بيتشه المعلن ورأي داروين الكامن ورأي معظم فلاسفة عصر التحديث والتوسع). ويبدو أن مجتمع فيينا كان متمركزاً بشكل غير عادي ومتطرف حول فكره اللذة. يلاحظ انتشار الأمراض السرية بين أعضاء الحب في أوروبا في تلك الفترة (وبما له دلالة أن كلاً من بيتشه وفيلسوف العلمية والعنصرية والبارية وهيرتزل وفيلسوف العنصرية الصهيونية، كان مصابين بمرض سرّي محل بؤفة كل منهما). ولا يوجد عندي إحصائيات عن أعضاء الجماعة اليهودية، وهم عادة ما يمثلون بشكل متلبس ما يحدث في المجتمع، وفرويد ينتمي إلى هذه الجماعة. ولعلنا لو عرفنا بعض هذه الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والخصارية من خلفية فرويد لأمكننا أن نكتشف ملامح جديدة في فكره كانت خافية علينا، ولأمكننا أن نطرح عليه أسئلة مختلفة عن تلك التي يطرحها العلماء العاديون الذين يعيشون تحت نفس الظروف.

وماذا عن القبالة اللوربانية وميراث فرويد اليهودي؟ إن بحث في المكتبة العربية لن تجد كتاباً جاداً واحداً في هذا الموضوع (إلا كتاب الدكتور صبري جرجس التراث اليهودي الصهيوني والفكر الديني الرائد، وهو كتاب كيب عالم معروف يشار إليه بالبيان ومع هذا يتم تجاهله تماماً من قبل المتخصصين). ويبدو أن القبالة اللوربانية هذه تشكل إطاراً معرفياً لأفكار فرويد وكافكا والمسلمة التعميكية (وصفت هذه القبالة بأنها تؤله الجنس وثيس الإله). وقد يكون من المفيد أن نعرف علاقة القبالة اللوربانية بالصوفية التي يتواتر ذكرها الآن في الكتابات الدينية والعلمية ولادبية وكأنا في القرن الأول الميلادي. واعتقد أنه

من الصعب فهم التحديث والحداثة وما بعد الحداثة دون فهم كامل للتبؤلاء
(اليهودية ثم المسيحية) .

وفي الأونة الأخيرة ثار ربيعة .ة ثم أخرى تفكيكية، كما بدأت ثور
روبعة ما بعد التفكيكية وما بعد الحداثة بعد هذا وذاك فهل حاول أحد من
يعرض هذا الفكر الأدبي والفلسفي أن يبين علاقته بمدارس تفسير التوراة عند
اليهود؟ وسعدنا رولان بارت عن «لغة النص» وهي لغة ذات طابع حسي (ولنا
يشلاوب هذا «الفيلسوف» بكلمات مثل «نصي نكتوال Textual» و«حسي
سيكتوال Sexual» ولتترجمها «جنسي» حتى يمكننا أن نلعب نحن أيضاً)، هل
يعرف أحد من يتحدث عن لغة النص هذه أن هذا مفهوم قديم عند المفسرين اليهود،
وأن إحدى مدارس التفسير (الناثرة بالقبلاء اللوريانة) تشبه التوراة امرأة عارية
تقف خلف حجب، يستأقط الواحد تلو الآخر إلى أن يصل إلى أعرق مستريات
القراءة الذي يشبه بالجماع الجنسي؟ وإذا كنا نتحدث عن التفكيكية واللغة فهل
لكل هذا علاقة بتأكل فكرة المعنى في الحضارة العربية؟ هل التفكيكية هي الأخرى
تعبير عن تزايد معدلات العلمة؟ هذه هي بعض الأسئلة التي كان يجدر من يفلون
المكر البيوي والتفكيكي وغيره من الأفكار أن يطرحونها، بدلاً من نقل الأفكار
وكانها حقائق مطلقة ظهرت كاملة دون مقدمات أو أسباب، فيريدون من نبيتنا
الاداءة بدلاً من أن يزيّدونا معرفة وحكمة

٣ - التبعية الإدراكية والمصطلحات السياسية

ونظهر التبعية الإدراكية في الخطاب السياسي العربي والمصطلحات التي
يستخدمها المحللون، فمن الراضح أننا نعيش دائماً في أن نسمي الأشياء ونترك
الأخرى يصفها ويسمّيها لنا، ومن يُسمي شيئاً فقد صفّه ووضعّه داخل خريطة
إدراكية كبرى، تقع من إدراكه ومصالحه فنحن على سبيل المثال حينما نكتب
تاريخ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في العالم، فنأنا عادة ما
نتحدث عن «المألة الشرقية» وعن «رحل أوروبا المريضة» مما يجعلنا ننظر إلى الدولة
العثمانية (التي كانت تسمى شعوبها - رغم ضعفها واستبدادها - من الهجمة

الاستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره) فسُطر إليها باعتبارها «رجلاً مريضاً» وحسب، ونسب «رجل أوروبا النهم المعترس»، أي الإمبريالية الغربية التي كانت تبعد سكان أفريقيا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعداداً هائلة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان أستراليا ونيوزيلندا، والتي كانت تقوم باستعباد سكان آسيا، وتحوص حرباً تنسويق الأفيون في الصين لسر التمدد في ربوعه! ننسى هذا الرجل النهم الذي دس السم في طعام الرجل المريض، كما ننسى أنه لو ترك الرجل المريض وشأنه لربما شفاء الله وعافاه على يد «رجل مصر الفتى» ولكنه المودج الإدراكي المستورد من الغرب الذي يجعلنا ننظر إلى أنفسنا وتاريخنا من خلال عيون غربية .

ويظهر تبعيتنا الإدراكية للغرب في المصطلح الذي ستخدمه لوصف الصهيونية، فنحن نصف الصهيونية بأنها «العالمية العالمية»، وهي ترجمة موضوعية وأمينة لعبارة World Zionism (ونحن سترجم حتى حينما نذكر)، ولو نظراً حولنا بضمة دقائق وتحلبنا عن المقولات الإدراكية المستوردة والكامنة في المصطلح لوجدنا أن الصهيونية لا أثر لها في الصين أو الهند أو أفريقيا (باستثناء جنوب أفريقيا) ولا في كل آسيا (باستثناء الجيب الاستيطاني في فلسطين) ولا في أمريكا اللاتينية (إلا في داخل الجيب اليهودي في الأرجنتين) - أي أن الصهيونية (وهي إفراة لحركات التاريخ الغربي ولا يمكن فهمها إلا داخل هذا الإطار) توجد أساساً في العالم الغربي ولما كان من الضروري أن نسميها «الصهيونية الغربية» فهذه هي التسمية الوحيدة الدقيقة التي نشند إلى رؤية عميقة للواقع . ولكننا لم ندرك هذه الحقيقة البديهية لأننا وقفنا صرعى ما صُلِّح لنا من مصطلحات تُجسد نموذجاً معرفياً غريباً، والتصفت كلمة «عالمية» بالصهيونية وأحرزت شيوعاً لا نظير له . وكلمة «عالمية» تُضفي على الصهيونية هيئة لا نستحقها، ورهبة لا تتبع منها، وقوة لا تمتلكها . كما أن الكلمة تعبّر عن مضمون عنصري كامن، فحينما نُحت مصطلح «صهيونية عالمية» كانت كلمة «عالمية» مرآة في الحقل العربي لكلمة «غربية»، ومن هنا مطالبة هرتزل مثلاً بإنشاء «دولة يحميها القانون العام (أي

«الدولي» وهو يعني في واقع الأمر القانسون الغربي أي القوة العربية . ويمكن القول أننا نقول «الصهيونية العالمية» مثلما نقول «الإمبريالية» ، ونحن في هذا نكون قد تجاوزنا الحقيقة أيضاً . هذا الصهيونية ليس العالم ، إذ تطل فلسطين ساحتها الأولى والاساسية . وإن قامت الدولة اليهودية بنشاط عالمي فهي تفعل ذلك بهدف تأمين الجيب الاستيطاني في فلسطين .

ومن أكثر الأمثلة درامية عسى فشلنا في تسمية الأشياء وإدراكها من منظورنا «نحن» لا من منظورهم «هم» . نرى للمستوطنين الصهاينة ، فحين يسميهم «رواد» ويتعلسف بعضهم عن يعرفون العبرية ويقولون «حالتونسيم» أي «رواد» والـ «حالتونسيوت» أي «الريادة» وهكذا تتوارى الحقيقة ، ويضيع المتلقي العربي في محاولة مطلق كلمة أعجمية محارجها الصوتية غريبة عليه . كما أن كلمة «رواد» تحمل فصاحة غير عادية وإيجاعات إيجابية ، فالرائد دائماً في المقدمة يرئد الصعب والمجهول . نقول هذا ونحن نعرف فيما بين أنفسنا أنهم منصوصون لأرضنا وأنهم استولوا عليها بقوة السلاح الغربي ، لا بسلاحهم هم ، ويدعم من العالم الاستعماري لا بجهودهم الذاتية . أما الملاحون الفلسطينيون ، في أواخر القرن الماضي فكانوا ينظرون إلى هؤلاء الرواد / الحالتونسيم ويسمونهم بـ «المسكوب» نسبة إلى موسكو (مسكفا أو مسكبا) وهي تعني عندهم الأجانب أو الدخلاء . وبالحالها من تسمية بسيطة تحول إلى جرير ظاهرة كما نغيرها نحن ، لا كما سماها صاحبها الذي يود إخلاءها وتعميتها .

ونظهر سخافتنا غير العادية في قولنا «معادلة السامية» وهي ترجمة للمعبارة العربية anti-Semitism وهي عبارة بلهاء تعادل بين اليهود والساميين وتقرن بينهما ، مع أن العبرانيين القدماء كانوا لا يشكلون سوى حلقة حصارية صغيرة ، تابعة بشكل يكاد يكون كاملاً للتشكيلات السامية الكبرى مثل تشكيلات البابليين والآشوريين والآراميين ، وهي التي ورثها التشكيل العربي / الإسلامي . وتعد اللغة العربية أهم اللغات السامية على الإطلاق حسب رأي علماء اللغات السامية ، فلو صح استخدام المصطلح للإشارة إلى أحد فإنما يجب أن يشير لنا نحن العرب

ولكن المحاصرة العربية في القرن التاسع عشر لم تكن قد وصلت إلى هذا المستوى المعرفي بعد، ولهم عندهم المعرفة لا ثنائي دفعة واحدة . كما أن المعكر العنصري العربي المعادي لليهود كان يحاول استبعادهم كمناصر داخل التشكيل الحضاري العربي ففرق بين الأريين والساميين وفضل الفريق الأول على الثاني . فكان عبارة «معاداة السامية» هذه تعبير عن جهل عربي وعن عنصرية عربية وعن صهيونية عربية كامة تهدف إلى التخلص من اليهود والإلقاء بهم في أرض فلسطين . ونقوم نحن بمصوغات بلهاء لترجمة المصطلح ونقول «معاداة السامة» . مع أنه كان من الممكن ببساطة شديدة أن نقول «معاداة اليهود» دون أن يستورد المصطلح المتحيز صلباً، الخاطئ في حد ذاته .

والصراع العربي / الإسرائيلي يُعدُّ في شكل من أشكاله صراعاً على تسمية الأشياء، نحن نسمي تلك الأرض الواقعة بين سوريا والأردن ومصر «فلسطين»، بينما يسميها الصهاينة «إسرائيل» . وسمي نحن سكانها «الفلسطينيين» ويسمونهم هم «سكان المناطق» . إذ أنه لا وجود لفلسطين ولا للفلسطينيين في المصطلح الصهيوني . ونحن نسمي الوجود الصهيوني في فلسطين «استعمار استيطاني إحتلالي» واعتصاب، ويسمونه هم «عودة لأرض الميعاد، أو أرض الأجداد» . وقد تنه الصحفي الإسرائيلي روبرت ووربرج لهذا الجانب في الصراع فقال في مقال له في الجيئروساليم يومئذ: «وإن «إثامون بعد ن في إسرائيل» «قل أب كيف تصف المناطق وراء الخط الأحمر سأقول لك من أنت محتلة؟ محررة؟ مهرومة؟ مدارة؟ يهودا والسامرة وعرة؟ قل لي كيف تصف الأحداث التي تقع هناك وسأقول لك من أنت؟ اضطرابات عادية؟ شعب؟ هيجان؟ قمع؟ مبالغة؟ إعلامية مؤقتة؟ حرب؟»

المصطلحات لا توجد في فراغ وإنما داخل أطر إدراكية تُجد غداج معرفية . وقد تمت أحر محاولة لسلب الإنسان العربي حقه في تسمية الأشياء بحسن بية حينما طالب بعض الكتّاب العرب إسقاط كلمة «انتفاضة» داتها وإحلال كلمة «ثورة» محلها لأن الثورة في تصورهم هو عمل أكثر عنماً وجديرة من الانتفاضة

وأنا لا أحرص على كلمة «ثورة» كسمية عامة لما يحدث هناك، ولتجمع بينها وبين الظواهر المماثلة كحره من تراث عالمي، ولكن مع هذا يظل الانتفاضة خصوصيتها التي يجب أن نعبر عنها. ونحن لو حللنا تفكير الكتاب الذين يعترضون على كلمة «انتفاضة» لاكتشفنا أنهم متأثرين بالتراث اللعوي والمعرفي العربي، حيث ترتب المحاولات الإنسانية لرفض القهر ترتيباً هرمياً يستند إلى تجربة الإنسان العربي التاريخية، بحيث يوجد في قاعدة الهرم «أعمال الشغب riots» تسمى «التمردات insurrections» ويعلوها «العصيان rebellion»، ثم أخيراً في قمة الهرم يوجد «الثورة revolution» بكل ما تحمل من معاني الانقطاع الكامل والرفض التام للنظام القديم وطرح رؤية جديدة.

وهذه التفسيرات الدعوية تابعة لا من عرقية اللغات الأوروبية وحسب وإنما من التجربة الحضارية التاريخية العربية ذاتها حيث توجد عدة انقطاعات كاملة فمصر النهضة كان رفضاً للعصور الوسطى ورفضاً للدين والكنيسة، وهناك كذلك الثورتان العربية والبلشمية وهما تجربتان تاريخيتان ليس لهما ما يشبههما في التشكيلات الحضارية الشرقية، فهما يشكلان ما يشبه الانقطاع الكامل عما سبق وهما كاملاً للنظام القديم، ورفضاً جذرياً للدين وللقسم الأخلاقية المرتبطة به وطرح رؤية جديدة للعالم والإنسان وكل هذا أمر مفهوم داخل التاريخ الغربي، وعلم هذه العنصرية.

ولكن يبدو أن التعبير داخل التشكيلات الحضارية الشرقية يأخذ شكلاً معيّناً يحفظ بقدر من الاستمرارية (ربما بسبب الامتداد الزمني لهذه التشكيلات وكثافتها التاريخية) فالثورة الماوية في الصين، رغم كل ديماغوجيتها الماركسية الليبنية، احتفظت بكثير من التقاليد الصينية، سواء على مستوى العقيدة أو السياسة وانتقال اليابان إلى العصر الحديث تم في إطار الحفاظ على التراث والهوية (كما حدثا ببعض علماء الاجتماع أن يطرح مصطلح «رأسمالية إقطاعية» ليصف النظام الاقتصادي الياباني) والإسلام بطرح نفسه كدين توحيدى جديد لا يشكل انقطاعاً عن الأديان التوحيدية التي سبقتة وإنما استمراراً لها وتصحيحاً لمسارها.

واعتد ان الشرق الاسلامي ظل يتمتع بقدر كبير من الاستمرارية حتى نهايات القرن التاسع عشر .

وكلمة «انتفاضة» مناسبة تماماً لوصف هذه الاستمرارية وهي مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» بمعنى «حركه ليزيل عنه الغبار أو نحوه» . ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يصرب جذوراً في تربتنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل الغبار الذي علق بالثوب الفلسطيني ولم يمس الجوهر . ويقولون أيضاً «نفض المكان» أي «نظر جميع ما فيه حتى يعرفه» ، وهذا تكتيك معروف لدى شباب الانتفاضة . ويقولون أيضاً «نفض الطريق» أي «طهره من اللصوص» . ويقال «النفضة» وهي الجماعة الذين يبحثون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها علو أو خوف، وهذا أيضاً تكتيك آخر للمستعمرين وتحمل الكلمة أيضاً معاني الخصوبة فيقال «نفض الكرم» أي «تفتحت عناقيد» ويقال، وهذا هو الأهم، «نفضت المرأة» أي «كثرت أولادها» ، و«المرأة النصوص» هي المرأة الكثيرة الأولاد، أي المرأة التي لا تكف عن الإنجاب تماماً مثل الانثى العنكبوتية . وانظر كذلك إلى تعبير مثل «نفض عنه الكل» و«نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض وانفأ» وهي كلها اصطلاحات تعني أن ما يحدث الآن كان هناك دائماً، لكنه كان متوارياً وحسب .

وبحق هنا لا نرفض كل المصطلحات والكلمات الغربية ولا نطالب بضرورة اتحاد «بدائل» عربية لها، فهذا في تصوري ثردٌ كامل وثقلٌ غير مشروط للمودج المعربي العربي، بل ويساهم في ترويجه، إذ أنه يعطيه رجاءاً عربياً إسلامياً يحنى واقعاً عربياً . وهذا الموقف يشبه من بعض الوجوه مهندس الديكور الذي يسي شقة غربية من جميع الوجوه، ثم يضيف لها «حجرة أرايسك» أو «زكن عربي» ليملك بتلايين هوية أحقة في التآكل . أنا لا أتحدث عن بدائل (وكان المصطلحات قطع غيار)، وإنما أطلب بمودج معربي متكامل ونسق شعوي يعبر عنه، ومقطة ابتداء مغايرة لرصد واقعنا وواقعهم، وهذا المودج الحديد لا يرفض النماذج الأخرى بل على العكس يتمتع عليها كلها دون خوف أو وجل، لأنه واثق من نفسه .

وظاهرة «الثورة» يمكن دراستها داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل التشكيلات الأخرى، ونذكر مضامينها العديدة وقوايتها المتشعبة (الثورة ليست ظاهرة طبيعية بسيطة لها قانونها المادي العام) وتتفاعل معها وتأخذ منها دون التحلي من خربطتنا المعرفية . إنني أحترم خصوصيتي مثلما أحترم الخصوصية الغربية وكل الخصوصيات الأخرى التي سأذكرها . وفي تصوري أنني من خلال إدراكي بخصوصيتي سأذكر خصوصية الآخرين . واصطلاح «ثورة» كما هو متداول يتسم إما بكثير من العمومية أو بكثير من الانحصار بالتجربة العربية في التمرد على الظلم، ولذا فهو لا يصلح بوصف التجارب المغايرة بسبب عموميته الزائدة وخصوصيته المتطرفة، أي أنه ليس اصطلاحاً علمياً بالمرء، ويمثل محاولة فرض معاهيم واصطلاحات من التاريخ العربي على أحداث التاريخ العربي . يجب أن ندرس، منطلقين من خصوصتنا، التجربة العربية في الثورة (وفي الكووص عنها، وإلا بـم نسر ما حدث في الاتحاد السوفيتي؟) . ويجب أن نتعامل مع هذه التجربة دون أن نضطر إلى نسبة «الانتفاضة» (بما تحمل من معاني الحسب والاستمرار والتجدد الوائق من نفسه) «ثورة» (بكل ما تحمل من معاني الاحتراف والبداهات الجديدة) . بفعل ذلك دون أن نفصل الانتفاضة عن التراث الثوري الإنساني الذي لا تشكل التجربة العربية فيه سوى جزء من كل .

١٠ الثورة انقطاع، أما الانتفاضة فعودة لما سبق «استرجاع للهوية التي سُلِبت حتى تصبح «إسرائيل» مرة أخرى «فلسطين» كما كانت دائماً عبر التاريخ، وكما ستكون بإذن الله في المستقبل . والمتاضلون الفلسطينيون في اختيارهم لكلمة «انتفاضة» قد وضعوا يدهم على واحدة من أهم خصائص تحركهم التاريخي المبارك، وهو أنه تحرك داخل إطار الهوية التي تمتد من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل، ورفض للشعبية السياسية والاقتصادية والإدراكية . ولا يمكننا أن نسب لشاب الانتفاضة الذين احتاروا المصطلح معرفة بكل هذا وإدراك واضح له، ولكن لا يمكن أيضاً أن ننكر إحساسهم الحضاري السليم بلحظتهم التاريخية أو ارتباطهم المباشر بتراثهم أو إعراسهم النفسي والمعرفي عن المودج الهرمي الغربي . فقد آثروا أن يحملوا علم الانتفاضة بكل مدلولات الكلمة العميقة والدالة والتي لا

نظير لها في اللغات الأوروبية . وفي العالم الغربي ذاته أدركوا خصوصية الانتفاضة ولذا فهم يكتبون الكلمة كما هي بحروف لاتينية دون محاولة للبحث عن مرادف لها في معجمهم اللغوي .

٤ - الاستعارة والصورة والإدراك

سيلاحظ القارئ أنني في هذه الدراسة (وغيرها من الدراسات) كثيراً ما أتناول الاستعارات والصور الكامنة والواضحة في أقوال العرب والصهاينة، كما أنني لا أحجم أحياناً عن استخدام الاستعارات في التعبير عن بعض الأفكار . وكثيرون يظنون أن الصور زخرفة وأن الاستعارات إضافة ومحسنات لفظية، ولكننا نعرف تماماً أنها أبعد ما تكون عن ذلك، فهي وسيلة إدراكية لا يمكن للمرء أن يدرك واقعه أو أن يعبر عن ما يكون معه دونها . فالاستعارة إذن مرتبطة تمام الارتباط بالنماذج المعرفية والإدراكية وحبر وسيلة للتعبير عنها . وإذا أراد الدارس أن يصل إلى هذه النماذج ويعرف هويتها فلا يمكنه قط أن يطرح الاستعارات والصور جانباً باعتبارها زخارف . بل إننا نعرف أن الاستعارة جزء أساسي من نسيج اللغة ذاتها وعملية التفكير الإنسانية . ومن هنا تناولني الاستعارة بالتحليل واستغلّمت لها . ففي كتابي عن الانتفاضة قمت بتحليل استخدام شامير لصورة «عملاق جلفرة» ويثبت أنها مقلوب الصورة الصهيونية القديمة «داود وجالوت» . واضرت إلى التحول الذي جعل على الراي العام العالمي بحيث أصبح يستلهم صورة داود الذي يمسك بالقلع الإدراك العربي . ونحن إذا كنا نحاول دراسة السلوك الإنساني وأن نرصد الإنسان في كل تركيبته، فإننا لابد أن نرصد المعنى، والمعنى يتجلى في الاستعارات والصور أكثر من الخطب المباشر .

وقد أشرت في كتابي عن الانتفاضة إلى واقعة دالة وطريقة ذكرها صانط إسرائيلي، إذ شاهد شاباً فلسطينياً يرفع علم فلسطين فوق منطعة في يوم مطير وقد انجز الشاب ما يريد بعد جهد جهيد . وقد تركت الصورة أثراً عميقاً في بعض الضابط الإسرائيلي، واعتبر أن المجاهد الفلسطيني هو عكس صورة المستوطن الصهيوني البلاحت عن الدعة والراحة . وقد تصادف أن بعض المعلقين السياسيين

العرب المهتمين بالانتماءة استخدموا نفس المقال الذي وردت فيه هذه الواقعة كأحد مصادرهم . وقد فوجئت أنهم أسقطوا كلمة «مثلثة» وحولوها إلى «برج عال» (أي أنهم علموها وطعموها وجعلوها جسماً مادياً عالياً والسلام) . وأنا هنا لا أتحدث عن عدم التزامهم الدقة العلمية، فالمثلثة في نهاية الأمر برج عال . ولكن ما يهمنا في عملية الرصد الدقيقة أن الإسرائيلي شاهد فلسطينياً يتسلق مثلثة وأن هذا هو ما رآه في أحلامه تلك الليلة، وهذا ما رواه لأصدقائه، وهذا ما سيجدد سلوكه . ولذا لمستطاع الواقعة التي تحولت إلى استعارة وصورة محددة في ذهنه (عروج إدراكي) مستغلل من قدرتنا على تفسير سلوك هذا الإسرائيلي وبالتالي التنبؤ به . وكما تحدثنا عن إمريالية المقولات، يمكننا أيضاً أن نتحدث عن إمريالية الاستعارات، وهي الاستعارات الاسامية التي نعبّر عن إدراك الآخر وعن أحاسيسه الوجودية المتعينة وعن نموذج المعرفي . وكثيراً ما تقتحمنا هذه الاستعارات ونهيمس عليها وبالتالي يهيمس علينا النموذج المعرفي الكامن فيها .

وقد قمت في هذا الكتاب بتحليل بعض المصطلحات السياسية لأبّين الجوانب المجازي فيها مثل «رجل أورسا المريض»، و«الحمام والصقور» . واكتشفنا أن الحمام والصقور مجاز (أي أن المسلمين مثل الحمام والمتشددون مثل الصقور) وبهذا استعارتين أخريين، دجاج وبعام، ولقدنا استعارات مختلطة مثل الدجاج والبعام التي تأخذ هيئة الصقور . إن الاهتمام بالمجاز والصقور هو في نهاية الأمر اهتمام بالإدراك والبراهين والسلوك المصنوع للإنسان ويعرّك بيعة التي تسير اليه الإخبارية المباشرة عن نقلها .

والخيراء...

يجب ألا نطلق في رصدنا للشر ولكل الظواهر المحيطة بنا من مقولات ثابتة مسبقة، أو من إدراك الآخرين لهم، إذ يجب أن نؤسس دراستنا على تجربتنا وتفاعلنا نحن مع الظواهر وأن ننمض عنا أي تبعية إدراكية . كما يجب ألا ندرس البشر وكأنهم انعكاس مباشر لواقعهم المادي، لمشيء صماء تتأثر بقوانين الحركة المادية، ظواهر طبيعية تُرصد من الخارج كما تُرصد الأشياء، إذ يجب دراستهم كبشر يحسون بما حولهم بطريقة محددة ويسقطون عليها معنى داخلياً هو الذي

يحدد أهميتها بالنسبة لهم ويحدد مدى نجاحهم وفشلهم . وهم كثير قابلين أيضاً للتماسك والتمسك دون حتميات مسبقة تثبط الهمم دون مبرر أو تشجعها دون أساس، أي علينا أن نستعيد الإنسان كفاعل، قابل للانتصار والانتكسار - من الداخل والخارج . ونحن إن فعلنا ذلك، زاد إبداعنا، وبدأنا نترك الآخر في أبعاده المركبة المختلفة .

ونسى في كل هذا وبإدراكنا لخصروحيتنا وخصروحية الآخر لن نهون من قدر الآخر (سواء كان من الصهاينة أم من الحضارة العربية) ولا من قدر أنفسنا . كما أننا لن نهون من قدره أو قدر أنفسنا . بل نرصده ونرصده أنفسنا بكل ما نضم داخلنا من قوى إيجابية وسلبية، مادية وروحية، حقيقية وكامنة . ونحن لو فعلنا ذلك نكون قد نزعنا عن الآخر أية حالات عجزائية تكون قد خلجتها على نفسه (والمعظمة "في نهاية الأمر" لله وحده) دون أن نسكر قوته الذاتية الحقيقية . ونكون أيضاً قد استعدنا للإنسان العربي إمكانيات الحركة الكامنة داخله وأدركنا أن ما قد عللنا من غبار الهرطقة يمكن أن نفضه وأن نطلق لمعني كلمة الحق والمصلحة في زمن الكذابين والصحفيين المأجورين والإعلام المصفول وأدوات الصمغ الكهف . وكما قلت هي بداية المقدمة هذا الكتاب يدور حول قضية الإدراك وعلاقته بالسلوك وأثر كل هذا على التحليل السياسي . ورغم أن كل الحالات التي نأرلها مستمدة من عالم الجماعات اليهودية والصهيوية إلا أن موضوع الكتاب هو أولاً وأخيراً قضية الإدراك .

ويتناول الفصل الأول خريطة الإدراك الصهيوني للعرب ومحاولة تجريدهم وتعييهم . أما الفصل الثاني فيتناول نفس القصة وإن كان المجال يتعير، فهذا الفصل يتناول الإدراك الإسرائيلي للعرب ومدى علاقة هذا الإدراك بسلوكهم، كما يركز هذا الفصل على إدراك الإسرائيليين للدولة الفلسطينية والانتعاص . وهي جميع الحالات تحاول الدراسات أن تركز على المحنى الخاص للإدراك ونرصده تطوره عبر الزمان . ويتناول الفصل الثالث الإدراك الغربي لليهود وكيف يتحول

اليهود إلى مجرد عنصر نافع بل وإلى «مسلمين» في الوجدان العربي، ويتناول هذا الفصل تصور العالم العربي للدولة الصهيونية باعتبارها عنصراً نافعاً كما يتناول رؤية العالم العربي والصهاينة للحروب المرحمة (الصليبيين) رؤية النازيين لمفهوم الحكم الذاتي واحتمال تأثر الصهاينة بهذه الرؤية . ويحاول الفصل الرابع (والأخير) أن يقوم بتمكيك الإدراك الصهيوني وتوضيح كيف يعمل هذا الإدراك وكيف يعبد صياغة الواقع بما يتفق مع رؤية الصهاينة ومصالحهم . كما يبين هذا القسم أن التعامل مع الحقائق الصلبة خارج سياقها التاريخي ودون دراسة المبعد الإدراكي والمعنى الداخلي فإنها تصبح إما لا معنى لها أو تعرض عليها أي معنى . ويوضح هذا القسم أهمية عملية التمكيك والخطوات اللازمة اتباعها لإيجازها والله أعلم .

د . عبد الوهاب محمد المسيري

دمنهور والقاهرة يناير ١٩٩٦

الفصل الأول:

في الإدراك الصهيوني للعرب

- ١- من العربي المتخلف إلى العربي الغائب
- ٢- الاستجابة الصهيونية للعربي للتحقيق

١- من العربي المتخلف إلى العربي الغائب

من الحقائق الأساسية التي لا بد من إدراكها أن الفكرة الصهيونية استمدت ملامحها الأساسية، ثم مفومات وجودها، من الحضارة العربية (الراسمالية/الإمبريالية) في القرن التاسع عشر، خاصة في الجزء الأخير منه. كانت هذه الحضارة في تلك المرحلة الرسمية قد وصلت منعطفاً خطيراً وهاماً للغاية من تاريخها، ومن تاريخ البشرية جمعاء، بعد الانعجار الذي حدث في إنتاج السلع نتيجة للثورة الصناعية، إذ تحولت إلى حضارة مهمة مفرسة جعلت من الإنتاج غاية لا وسيلة، وجعلت الغرض من إنتاج السلع هو الربح لا سد حاجة إنسان ما.

وقد أدت هذه الانفجارية الإنتاجية (المتصلة عن أي سياق إنساني أو أي إطار أخلاقي) إلى غزو الظاهرة المعروفة بالإمبريالية التي وصلت إلى ذروتها في العقدين الأخيرين من القرن الماضي (وهي المرحلة التي ولدت فيها الصهيونية واقتسم العرب فيها العالم).

وكان لا بد من ظهور اختراعات تبرر هيمنة الإنسان الغربي على مصائر كل البشر، واعتصامه بكل الثروات على وجه الأرض، واقتسامه لآسيا وأفريقيا وأمريكا، وإبادة سكان عدة قارات بأكملها (الأمريكيين وأستراليين) ولاستعباده وبثله لأممائه حائضين من سكان قارة أخرى (أفريقيا) ولاحتلاله لشرب قارة ثالثة واحتلاله لبلدانها (آسيا، وخاصة الهند). وقد شهدت هذه المراحل بالفعل تطور وتبلور الفكر العنصري العربي وظهور كل كلاسيكياته المعروفة ابتداءً من فكر هيجل الذي يحتوي داخله على النظرية العنصرية الغربية بشكل جيني، ومروراً بمخته وتريتشكه وبينشه وتشامبرلين، وأخيراً هتلر ومنظري النازية.

ومن الصعب «تلخيص» هذا التراث الضخم والركب من الكتابات العنصرية الغربية، وهو أمر على أية حال يقع خارج نطاق هذا البحث، ولكن قد يكون من المفيد أن نحاول أن نصل إلى بعض ملامحه الأساسية لأننا بذلك سنذكر أيضاً الملامح الأساسية للفكر الصهيوني. ويمكن القول أن جوهر الرؤية العنصرية في

العرب هي تحويل الذات القومية، أو «أثنية» الإنسان، إلى المصدر الوحيد للقيمة والمطلق الوحيد الذي يؤمن به الإنسان، بحيث يصبح ما هو خارج هذه الذات مجرد وسائل يمكن استخدامها (على أحسن تقدير) وهوالق يجب إلزائها (على أسوأ تقدير).

وقد أفرزت هذه الرؤية نظرية «المحقوق» الأزلية التي لا تخضع للنقاش والتي لا يتمتع بها سوى صاحب الأنسب. ولكن كان الحل الإمبريالي لمشاكل أوروبا هو تصديرها إلى الشرق، ولذا عُرِّفَت هذه الهوية على أنها متعوقة أيضا بحيث اتسع نطاق نظرية الحقوق ليشمل حقوق الآخرين «المثخلفين» في آسيا وأفريقيا والأمريكيتين حيث توجد تشكيلات حضارية بدائية لا قيمة إنسانية لها، كما كان يدعي الإمبرياليون، ومواد خام يمكن استخدامها لتزويد الآلة الصناعية الرهبة، وسوق ضخمة تبتلع كل السلع التي أنتجت بهدف الربح.

ويمكننا القول -بكثير من الاطمئنان- أن بنية الرؤية الصهيونية لكل من اليهود والعرب اكتسبت نفس هذه الملامح. فالحركة الصهيونية قد بدأت بين اليهود بإعلان التمرد على الدين اليهودي والشرعية اليهودية وقام الصهاينة بإحلال اليهودي ذاته والاثنية اليهودية محل العقيدة اليهودية كمصدر أساسي للقيمة، وأصبحت هذه الذات هي المطلق الذي يبحث عن التحقق في التاريخ (وكأنها كلمة الله). ولذلك نجد أن معطى الرؤية الصهيونية للذات الصهيونية وتحققها يعني احتواء العربي وغبابه (لأسبه أو نعتة بالتحلف وحسب على الطريقة العربية) بحيث يصبح هذا الغياب هو محورها الرئيسي وعرصتها النهائي، وقصصها الخفي في معظم الأحيان، والمعلن في أحيان قليلة.

وإذا افترضنا أن تحقق هذا المتصل الإدراكي أو دروته هو الغياب الكامل للعربي فإن كل الأجراء والمراحل الأخرى تنزع نحو ذلك وفي نظامنا التصنيفي سنبدأ بأقصى اليمين وهي لحظات إدراكية نادرة يدرك فيها العقل الصهيوني وجود الإنسان العربي الحقيقي وتاريخه وسفاله بل وحقوقه، وفي أقصى اليسار توجد الرغبة الصهيونية العارمة في أن ينهب العربي حتى تخلص له الأرض دون سكانها. ومن

الطرف الأول إلى الطرف الآخر ثمة اتجاه تدريجي نحو التخلص إدراكيا (وعليا) من هذا العربي ابتداء من نعته بأنه إنسان شرقي ملون متخلف، ثم رؤيته على أنه يمثل للأغيار بكل وحشيتهم وقسوتهم وللملك فهو يحق ما يحل به، ثم محاولة تهميته، وانتهاء بإنكار وجود العربي أساسا.

وبلاحظ أن الحركة هنا هي حركة نحو مزيد من التجريد قديلا من رؤية الإنسان العليسطيني كإنسان حقيقي مزارع يعيش في أرضه وأرض أحفاده يزرعها وستج لشكالا حضارية تستحق الاحترام، يتحول إلى إنسان شرقي متخلف لا يستغل الأرض على أكمل وجه ثم تزداد درجة التجريد ليصبح ممثلاً للأغيار، عليه أن يدفع ثمن الكوارث التي حاقت باليهود عبر التاريخ، ثم يظهر هذا الإنسان على أنه شخصية هامشية تعتقد أية هوية قومية أو حضارية أو أية دوافع سياسية. ثم يصل التجريد ذروته (والرؤية لحظة لمحقتها) حينما تنكر الأدبيات الصهيونية وجود هذا الإنسان أساساً وتعفل الإشارة إليه. وفي بقية هذا الفصل ستناول شيء من التفصيل مقولات الإدراك الصهيوني الأربعة:

(أ) العربي المتخلف.

(ب) العربي ممثلاً للأغيار.

(ج) العربي الهامشي.

(د) العربي المعالب.

العربي المتخلف

نظرت الصهيونية لسمها على أنها جزء من التشكيل الحضاري الاستعماري العربي حتى تسعيد من نظرية الحقوق والواجبات السائدة في العرب في القرن التاسع عشر، والتي عرّفت واجب الإنسان الأبيض بأنه إدخال الحضارة في المناطق الأقل تحضراً في آسيا وأفريقيا وذلك عن طريق الاحتلال العملي للفارتين^(١)، حتى لو أدى ذلك إلى إبادة السكان الأصليين^(٢).

وقد عرّف ميمو كرو الحركة الصهيونية اليهود بأنهم جزء من الجنس الأبيض المتقدم، وكان هرتزل يرى مشروع الصهيونية في إطار فكرة عبء الرجل الأبيض^(٢) ونبعه في ذلك زالمويل^(٣) وآخرون.

ولذلك نجد في الكتابات الصهيونية حديثاً طويلاً وعملاً عن المظافة العربية والنظام العربي والحضارة الغربية التي سيأتي بها الصهاينة كممثلين للحضارة الغربية في «الشرق المويوم»^(٤)، وهذا موضوع أساسي كامن متواتر في الأدبيات الصهيونية يمكن أن يشاء أن يعود لأعمال معظم المعكرين الصهاينة. ليجد أطنناً من الأقوال تدعم رأياً هذا

هذه الرؤية للذات الصهيونية العربية المتقدمة تعترض صورة العربي الشرقي المتخلف، وهي صورة محورية في الأدبيات الصهيونية. وقد لاحظ الفكر الصهيوني أحاد عام ١٨٩١ أن المستوطنين الصهاينة يعاملون العرب باحتقار وقسوة، ويظنّون إليهم باعتبارهم امتوحشون صحراويون^(٥)، «شعب يشبه الخمر، لا يرون ولا يفهمون ما يدور حولهم». ^(٦) كما لاحظ أحد الرواد الصهاينة في أوائل القرن أن الصهاينة يعاملون العرب كما يعامل الأوروبيون السود^(٧) أما هارون أرويسون، أحد زعماء المستوطنين في أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن العشرين، فقد حذر الرواد الصهاينة من أن يقطّوا سجون «الملاح» (العربي) القلعة الخاهل والذي يحكم فيه الحرافات، كما أنه كان يؤمن «بأن قتل العرب مرتشبن»^(٨).

والعربي، حسب تصور وايزمان، يتصف بنفس الصفات تقريباً التي ذكرناها من قبل، فهو «عنصر منحط»^(٩) يحاول «الحرى قبل أن يستطيع السير»^(١٠)، وهو شعب غير مستعد للديمقراطية ومن السهل أن يقع «تحت تأثير البلاشفة والكاثوليك»^(١١) وقد أرسل هذا الرعيم الصهيوني خطاباً لترومان رسم فيه صورة مشرقة للذات الصهيونية المتقدمة في مقابل الصورة الكئيبة للمجتمع العربي الأمي الفقير في فلسطين^(١٢) واعتقد أنه لا بعيد كثيراً أن يأتي بمزيد من «الأدلة» والقرائن والبراهين من أعمال بن جوريون أو جابوتنسكي أو غيره من الكتاب

الصهاينة إذ أن مثل هذا سيكون مجرد تمسك ألقى لا يعبر عن الصورة كثيرا. وبما أننا لسنا في مجال محاكمة الفكر الصهيوني وإنما نهذف إلى فهمه ونصيفه فلتتوقف قليلا لتدرس هذا البعد من الإدراك الصهيوني للعرب.

صورة العربي المتخلف تعود بجذورها إلى الاعتذاريات والكتابات العنصرية التي تحدثت عن عبء الرجل الأبيض ولذلك فهي لا تنسم بأية خصوصية صهيونية. فالعربي المتخلف لا يختلف كثيرا عن الأفريقي المتخلف أو الآسيوي المتخلف أو حتى الأمريكي الأسود المتخلف، فكلهم سواء من وجهة نظر الإنسان العربي المتقدم ولذلك نجد أن الوصف هنا يتم بالعمومية والتجريد والانتقاء، وهذا أمر حتمي فسي أي تفكير عنصري لأنه إن لم يتم بذلك وجد العنصري نفسه أمام وجود متعين محسوس له قيمة تاريخية متعينة محددة وأصبح من العسير استئصال صاحب هذا الوجود واقتلاعه وإبادته.

ولكن إذا كان العربي متعلقاً إلى هذا الحد، والصهيوني متقدماً إلى هذا الحد، أليس من المنطقي أن نتوقع أن يأخذ الثاني بيد الأول. وهنا يجب أن نهيب بمنطق التاريخ فليلا طارحين جانباً منطق الأسطورة. وسنكشف أن وائرسان العقلاني، الذي كان يقدح في العرب لتحلفهم، لم يحاول قط أن يأتي بالبور والحداثة والتقدم، بل ساعد على تكريس التخلف، ولذا بلل قصارى جهده ليمسح من الخلافات العربية المختلفة ومن الاحتكاك بين العلائق والبلد، ومن التوترات والصراعات بين المسلمين ومسيحيين وبين العاصم الحضري والريفية^(١٣) بل وحاول الصهاينة في صيف عام ١٩٢١ تأسيس «مظمة قومية إسلامية» متحد موقعا محالاً للبريطانيين وتعارض المنظمات الإسلامية / المبحية والمعارضة للاستعمار، وقد نجحوا بالفعل في تأسيس مثل هذه المنظمات في حيفا والناصرة وطبرية^(١٤) ولكن يبدو أنها لم تعمر طويلا وقد فضل الصهاينة دائما التعامل مع القيادات التقليدية و سحق القيادات الحديثة.

والصهاينة محفون في ذلك تماماً، فلقد أدركوا منذ البداية أن تحديث العرب
وبندهمهم يعني تحقيق الإسكانية العربية الكاملة، وتحققها سيؤدي لا محالة إلى
العياب الصهيوني، وهو أمر لا يمكن لحركة سياسية ذات مصالح حضارية/ طبقية
محددة أن تسمح به. بكل هذا يمكننا القول أن الإدراك الصهيوني للعربي من
خلال هذه المقولة لا يجعل منه إنساناً شرقياً متخلفاً (بحسب، وإنما يود أن يبقى
عليه في هذا الوضع

العربي ممثلاً للأغيار

تسم الرؤية الصهيونية للشعوب بالتشوع بل والتناقض أحياناً، والصهاينة الذين
يروون أنفسهم كشكل من أشكال التعبير عن الحضارة العربية يروون أنفسهم أيضاً
تعبير عن الجوهر اليهودي الخالص، وبدا يصبح المشروع الصهيوني ليس ممثلاً
للحضارة العربية المتخلفة وإنما ممثلاً للشعب اليهودي الذي عانى الويلات عبر
العالم على يد الأعداء ولكن رويته بدأت كما أسلفنا - مرتبطة برؤية الآخر،
ولقد جد أنه "عربي" في هذا السياق الجديد، يتحول من العربي المتخلف إلى
العربي ممثلاً للأغيار والمزقق الصهيوني من الأغيار يتسم بالاستقطاب المتطرف،
فالعالم ينقسم إلى الضحايا اليهود والأعداء الذئاب. شعب مختار وشعوب مزبنة
به دائماً وأبداً. وإن كانت الاستراتيجية الإدراكية الأساسية عند المنصرين كما
أسلفنا هي تجريد الضحية من إنسانيته التاريخية المتعينة وبألمالي من حقوقه، فإن
عمله التجريد هنا نكتسب خصوصية تزيد التجريد حدة وخشاعة. فمقولة الأغيار
أكثر تحريداً من مقولة الرعي في الأدبيات المنصرية البيضاء، ومن مقولة العربي كشرقي متخلف في الأدبيات الصهيونية
في الأدبيات النازية، ومن مقولة العربي كشرقي متخلف في الأدبيات الصهيونية
ويصح تجردها من أنها لا ترتبط برهان أو مكان محددين وإنما تصم كل الآخرين في
كل زمان ومكان. فالعربي شرقي متخلف مرتبط علي الأقل بمكان ما هو الشرق،
ورمان ما هو الماضي، أما كما يصبح ممثلاً لكل الأغيار فهو يصبح لا تاريخ ولا
أرض له، ويفقد كل ملامحه وقسماته وبدا تحقيق الاستراتيجية الإدراكية خطوة
كبيرة إلى الامام (بحسب العياب الكامل)

ومرة أخرى يجب أن ندرك أن الصهاينة كانوا يشعرون في ذلك المشكيل الحضاري العربي بالصهيوية ذات الديباجة المسيحية والتي يسبق تاريخها تاريخ الصهيونية ذات الديباجة اليهودية تقبلت مثل هذا التقسيم للعالم كيهود وأغيار. ولذلك يتحدث عهد بالفور عن «الجماعات غير اليهودية» - أي جماعة الأغيار التي تشغل الأرض. وقد أشار هرتزل أثناء تفاوضه بشأن كيريت كفي نصيح موقفاً للاستيطان الصهيوني - أشار إلى سكانها بطريقة تتم عن عدم الاكتراث والتجريد، فقد وصفهم بأنهم مجرد أعيار، «عرب، يونانيون، هذا الحشد المحتلط من الشرق» (١٥).

هذا الإدراك للعربي مثلاً للأعيار ساعد الصهاينة على «تفسير» الثورات العربية الفلسطينية المتتالية تصيراً يتلاءم مع مصالحهم وتغييرهم ورويتهم، إذ تصنع المقاومة العربية جرماً من مؤامرة الأغيار الأزلية. فقد وصف إسحق بن ترقى، رئيس اسرائيلي سابق، المقاومة العربية بأنها مجرد مذبحة أخرى يوثكبها المعادون لليهود قام قسطنطين روسيا في فلسطين بالتحريض عليها (١٦) وحيما احتوى الفصل الروسي بعد الثورة البلشفية كانت القيادة الصهيونية ترى عملاء المنجثرا ثم عملاء فرنسا في العشرينات، وعملاء ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية في الثلاثينات كمحرضين على هذه الثورة (١٧). أما في الأربعينات فقد أصبحت سلطات الانتداب، والإدارة العسكرية في فلسطين - حسب هذه الرؤية - هي المحرك الرئيسي لثورة الملاحين الفلسطينيين (١٨). وقد لخص أحد استوطنين الصهاينة هذا الموقف بقوله أن ثورة الملاحين الفلسطينيين ليست محاولة لرد العدوان والظلم الواقع عليهم وإنما هي تعبير عن العداء الأبدى الذي يبديه الأغيار نحو اليهود، بوصفهم «شما طرد من ملاده» (١٩).

وهكذا من خلال هذا الإدراك يتوعد الصهاينة التمرد العربي ويضعونه فاحل قالب مجرد يفرغه من مضمونه الإنساني بحيث لا يشكل أي تهديد نفسي للمغتصب، بل أنه يحول المقتصب، - مهما بلغ جرمه من بشاعة - إلى ضحية أبدية!

وقبل أن تنتقل للمقولة الثالثة قد يكون من المفيد أن نذكر أن الإيدولوجيا الصهيونية للعرب يركز دائما على الماضي وعلى الحاضر ويكاد يستغفل المستقبل تماما في معظم الأحيان، وإذا تم التعرض له فإن المستقبل يُنظر إليه باعتباره امتدادا كمياً للماضي وليس محالا للتحول الكيفي ومثل هذا الموقف هو نتيجة طبيعية لإسقاط التاريخ والرمز وتحويل العربي إلى كم متخلف غير قادر على الحركة أو يمثل لا رمزي للأغيار يتخبط الحاضر والمستقبل.

العربي الهامشي

يبدأ في بداية الفصل أن الترجمة الكاملة للرؤية الصهيونية هي الغياب الكامل للعرب. وقد لاحظنا أن عملية التجريد التي تحدثنا عنها هي أيضا عملية إسقاط لإنسانية هذا العربي وبالتالي نجريه من أية حقوق إنسانية. وتصل هذه العملية إلى قممتها في مقولة العربي الغائب. ولستنا لا نصل إلى هذه الذروة مباشرة إذ يمكن ملاحظة استراتيجيات إداركية مختلفة تسبق ظهور العربي الغائب نسجها «تهميش العربي».

ويمكن القول أن عملية تهميش العربي تأخذ أساساً شكل إنكار أي وجود سياسي قومي للعرب هامة وللملستين على وجه الخصوص. فالصهاينة في إدراكهم للثورات العربية حسدهم يتكرونها طبعها القومية والسياسية ويؤكدون لأصهم ولرماتهم أن الدافع لهذه الثورات ليس حب الأرض أو الوطن أو لمسك الإنسان بترائه، وإنما هي ثورة تعبر عن «التعصب الديني»^(٢٠). وكان الصهاينة أحيانا يلومون المبحيين العرب باعتبارهم الأعداء الحقيقيين لمشروعهم الاستيطاني، ويصورون المسلمين باعتبارهم طيين يمكن التماهم معهم؛ وأحيانا أخرى كانوا يعترضون العكس فيؤكدون أن العدو الحقيقي هم المسلمون أما المسيحيون فهم على استعداد أكبر للتعاون^(٢١) وكانت الجماهير الفلسطينية بالنسبة لهم مجرد غوعاء لا تحركها الدوافع القومية يتلاعب بها الإقطاعيون والافسية^(٢٢) وتورد هذه الجماهير ليس بعبيراً صادفا عن حركة قومية حلقة وإنما نمليه الاعتبارات الإقطاعية والقبلية (الضيق)^(٢٣).

إلى جانب هذا كان الصهاينة يرون الفلسطينيين أو العربي حيواناً أو مخلوقاً اقتصادياً محضاً تحركه الدوافع الاقتصادية المباشرة، ولذا يمكن حل المشكلة العربية - حسب هذا التصور - في إطار اقتصادي ليس بالضرورة سياسياً^(٢٤). ولعل من أول الأمثلة على هذه الاستراتيجية الإدراكية رشيد بك، هذا العربي المحلق حسب المواصفات الصهيونية في رواية هرتزل الأرض الجليدة القديمة، الذي يؤكد أن الوجود الصهيوني قد عاد علينا بالنفع الكبير. لقد زادت صادرات البرتقال عشر مرات، وكانت الهجرة اليهودية حيراً ومركة خاصة بالنسبة لملك الأراضي لأنهم باعوا أرضهم بأرباح كبيرة^(٢٥). وظل يُعَيَّف من الصهاينة يؤمن إيماناً واسعاً بأنه يمكن التغلب على معارضة الفلسطينيين عن طريق توضيح المزايا الاقتصادية الجمة التي سيجلبها الاستيطان الصهيوني، وعن طريق حثهم على الرحيل إلى البلاد العربية [بعد إعطائهم التعويض الاقتصادي المناسب عن وطنهم]^(٢٦). وكانت إحدى قنوات وإبرام الإدراكية أن تطور فلسطين الاقتصادي سيؤدي إلى أن يعقد العرب الاهتمام بالمعارضة السياسية^(٢٧).

وتعبيراً عن هذا الإدراك للعربي بثواتر في السكتات الصهيونية موضوع أساسي كامن يمكن تسميته «شراء فلسطين» فكثير من الصهاينة كان ينظر إلى الاستيطان الصهيوني باعتباره عملية شراء أراضي بسعر أعلى من سعر السوق، وأنهم بذلك يكوون قد أعطوا العرب «حقهم» -، ولحق هنا قد عُرِفَ تعريفاً اقتصادياً، حسب، وفلسطين هنا ليست وطناً وإنما سوقاً عقارية. وتؤكد لنا يوميات هرتزل أنه كان يؤمن إيماناً واسعاً بإمكانية شراء فلسطين بالتفريط المريح وبأسعار مخفضة. وحينما قامت ثورة البراق عرض بعض الصهاينة شراء حائط المبكى.

ولعل موضوع شراء فلسطين متطرق بعض الشيء، ومع هذا يمكن القول أن إدراك العربي كمخلوق اقتصادي ليس له حقوق سياسية أو وهي قومي كان بعداً أساسياً في الوجدان الصهيوني. ويؤكد والتر لاكير وغيره أن السياسة الرسمية للصهيونية في العشرينات (ويمكن أن نضيف وبعدها) هو عدم الدخول في مناقشات سياسية مع العرب وأن ينصب أي تفاوض على التعاون الاقتصادي وعدم التعرض لطبيعة النظام السياسي.

وبالاحاط ان الاستراتيجية الإدراكية هنا تهدف لإسقاط الطبيعة القومية لرد العمل العربية لأنه لو تم تصبفها على أنها قومية، لنجم عن ذلك الاعتراف بأن هذا التشكيل القومى له أرضى قومية وتراث قومى ومجال قومى ومجموعة من الحقوق القومية تنسب لهذهاءات الصهيونية «القومية».

ومع هذا كانت القومية العربية تعرض نفسها عرضاً على الإدراك الصهيونى كدافع محرك للجماهير العربية، وهنا كان يتبنى الصهاينة استراتيجيتين أخريين، هما فى جوهرهما تعتبران أكثر حلقه وصفاً عن محاولة «تهميش» العربى وقرع الصبغة السياسية عنه. أما الأولى فهي الاعتراف بالطبيعة القومية للشركات الفلسطينية مع تفسيرها تفسيراً يجردها من مضمونها الإنسانى أو السياسى ويفصلها عن الحركات القومية المماثلة، وبالتالي تصبح قومية مائصة لانتحق أن تحصل على كل الحقوق القومية. فالقومية العربية- حسب هذا الإدراك- هى أساساً قومية محطقة عميلة للانجليز وللغوى الخارجية (٢٨). (ولقد أشرنا من قبل أثناء خديثنا عن العربى مثلاً للأغيار عن الإدراك الصهيونى للتمرد العربى كنتيجة تدخل المنصل الروسى أو الإنجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو الإيطالى) كما أنهم أحياناً كانوا يرون القومية العربية على أنها مجرد «ردة فعل» للاستيطان الصهيونى ليس لها وجودها الحقيقى، وأنها محاولة سلب للصهيونية، ليس لها دينامية ذاتية مستقلة (٢٩).

كما كان الصهاينة العماليون يمثلو العالم العربى الاشتراكى وفكرة التقدم الاشتراكى يسمون القومية العربية بأنها قومية «رجعية» (٣٠)، أو كما قال ارلوزرروف أنها قومية نهيم عليها قوى الرجعية الاجتماعية والطغيان السياسى وأنها لم تنتج قيادات سياسية مثل صن بات صن أو غاندى (٣١).

أما الاستراتيجية الإدراكية الثانية فى مجابهة القومية العربية كأمر واقع يمرض منه مرضاً، فهو الاعتراف بها كقومية كاملة مع تقليص مجال فعاليتها بحيث لاتنضم الفلسطينيين ويقول أحد مؤرخى الحركة الصهيونية أن إسهام وايزمان

الأمم المتحدة للصهيونية للعرب تتلخص في تمييزه بين العرب والفلسطينيين، إذ كان يرى إمكانية التوصل إلى اتفاق مع القومية العربية بل ومساومتها في مقابل أن يتخلى العرب عن مطالبهم في فلسطين^(٣٢). وكان هو أيضاً صاحب نظرية أن فلسطين جزء غير هام من الوطن العربي الكبير^(٣٣) وكان إرلوزدوروف مسؤولاً على التعاون مع العرب، ولكنه كان متشائماً بخصوص التعاون مع الفلسطينيين^(٣٤). ويمكن أن يرى معاوصات وإيرمان/ حسي ومعظم اتصالات الصهاينة مع العرب في هذا الإطار بل إن الصهاينة قدموا عام ١٩٣٠ مشروعاً، طرحه موشيه بيكسسون، نائب رئيس تحرير دافار، وبالك تأييد بن جوريون الحفر، هو في جوهره تعبير عن هذه الاستراتيجية. وكان المشروع يدعو إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين تكون حراً من اتحاد مدرا إلى بصم الشرق العربي بأسره، وفي هذه الدولة يكون الفلسطينيون أقلية ولكن الدولة ذاتها بشكل أقلية داخل الاتحاد العربي^(٣٥).

ولعل هذه الاستراتيجيات الإدراكية من أذكى الاستراتيجيات على الإطلاق وأكثرها مرادة ودهاءاً وتعبيراً عن خصوصية الصهيونية كحركة استيطانية إحلالية لا تهدف إلى غزو العالم واستعباده (على طريقة النازية) ولا حتى السيطرة على العالم العربي، وإنما الاستيلاء على الأرض الفلسطينية وحدها دون ساكنيها فعملية التمهيش هنا تصبح قاصرة على الضحية المباشرة وحسب، أي الفلسطيني، دون حاجة لاستتلاب عداء الآخرين سواء في الشرق أم الغرب.

العربي الغائب

بمعنى من المعاني يمكن القول أن كل الاستراتيجيات الإدراكية السابقة هي من قِبل محاولة تعيب العربي فالعربي المتخلف، والعربي مثلاً للأغيار، والعربي الهامشي والذي ليس له حقوق قومية هو عربي مُعيّب معتقد للحقوق الواضحة إن كل هذه المحاولات هي تعبير عن النزوع الصهيوني نحو إخفاء العربي. وكما أسلمت يصل الإدراك الصهيوني للعربي إلى دروته ولحظة تحفقه التماذجية في الإنكار الكامل لوجود العربي، فلا يذكر بخير أو شر، ويتم إظهار عدم الاكتراث الكامل به بل والتزام الصمت حياله. وهذه الرؤية للأحر مرتبطة برؤية الذات وهي

رؤية اليهودي الخالص - وهو اليهودي المطلق ذو الحقوق المطلقة الخالصة التي لا تتأثر بوجود أو غياب الآخرين - بل إن وجود الحقوق اليهودية الخالصة يجعل حقوق الآخرين مجرد حقوق خارجية وعرضية ومؤقتة^(٣٦)، وجودها مثل غيابها لا يؤثر في علاقة اليهودي بالأرض وحقوقه فيها. ومن هنا كان الشعور الصهيوني بأن «فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، فمن عليها من بشر عابث لا وجود له، وإن كان له وجود فهو وجود عرضي وغير هام. (أما اليهود تشعب بلا أرض لأن حقوقهم اليهودية الخالصة تربطهم برباط لا تنصم عراه بهذه الأرض وهذه الأرض وحدها، مما يؤدي إلى تفكك أواصر الارتباط بأية أرض أخرى). وكما قال بن جوريون إن فلسطين «بلد بلا سكان»^(٣٧)، فامتلاك فلسطين ليس من حق السكان الأصليين، ولا يمكن للبشر يهوداً كانوا أم عرباً «أن يتعاملوا عن معنى هذا القرار، لأن محور مشكلة فلسطين» وفقاً لما قاله بن جوريون «يتلخص في حق اليهود المشتمل في العودة»^(٣٨)، وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ وحتى آخره. ولذا يمكن أن يؤكد في خطاب له في أكتوبر ١٩٣٦ أنه لا يوجد أي صراع بين القومية اليهودية والقومية الفلسطينية لأن الأمة اليهودية ليست في فلسطين (بعد) ولأن الفلسطينيين ليسوا أمة^(٣٩).

وقد فسر بعض المفكرين الصهاينة هذا الإصرار على العرب المقاتل أنه ضرورة عملية واضحة، لأن تحقيق الصهاينة كان «حتى بالضرورة» نقل «العربي» العرب^(٤٠). وسواء أكان ذلك ضرورة نفسية أم لا، فإن غياب العرب - كما أسلفنا - هو المحور الأساسي ونقطة التحقق الكاملة للاستعمار الصهيوني الاستيطاني الإحلالي - الذي تبع صهيونيته (نقل الشعب اليهودي إلى أرض الميعاد) من إحلاليته (تفريغ الأرض من سكانها الأصليين). وذكر العرب، ولو في مجال الشهير بهم، هو اعتراف صمغى بهم، كما أن إخفاءهم وراء مقولة الأغيار ينطوي أيضاً على قسوة من الاعتراف. ونفس القول ينطبق على التهميش، إذ أنه يمكن رؤية دماء الضحية السائلة. أما الإغفال الكاسم فهو عملية نظيفة للعباءة إذ يتم الدبح كما يتم مواراة الجثة^(٤١).

ورصد مقولة العربى الغائب وتوثيقها أمر صعب للغاية ، لأنه لا يمكن رصد وتوثيق ما هو غائب بالطريقة التقليدية من حشد الاقتباسات والنصوص وتحليلها . ومع هذا يوجد عدد كبير من التصريحات والمفاهيم الصهيونية لا يمكن فهمها إلا فى إطار مقولة العربى الغائب . ويمكن أن يندرج تحت ذلك كل هذا الحديث المسيخى عن «الأرض المقدسة» و«إرتس إسرائيل» و«صهيون» و«أرض الميعاد» فهو حديث يستند فى نهاية الأمر إلى افتراض غياب فلسطين العربية . فعبارة مثل «إرتس إسرائيل» لغيب كلمة «فلسطين» تماماً ، وبالتالي تعيب الفلسطينيين ، وتؤكد الرابطة العنصرية والأزلية بين اليهود وهذه الأرض . ولهذا نجد أن الصهاينة يكتبون دراسات «علمية» وصحفية عن الجماعية اليهودية فى طبرية أو دور اليهود فى الدفاع عن القدس إبان الحروب الصليبية . ويكتشف المرء فى طى مثل هذه الدراسات أن عدد ساكنى طبرية من اليهود لا يتجاوز المائة ، وأهم كانوا من المتصوفين اليهود ، وأن المدافعين اليهود عن القدس ، إن كان هناك مدافعون ، لا يتجاوز بضعة أشخاص ، ولعلمهم وجدوا أثناء المعركة بالصدفة . ولكن هذه التواريخ «العلمية» تنظر لهؤلاء باعتبارهم الأساس والجوهر وما عداهم من جماعات بشرية فلا أهمية تذكر لها والحديث عن استيطان المهاجرين من روسيا القيصرية باعتبارها «عالياً» أى «صود» وعنهم باعتبارهم «مسيحيين» هو أيضاً حديث يعترض غياب العرب . بل ويمكن القول أن المصطلح الصهيونى ككل (نفى . صود» ، نسيج النسيج . الخ) يفتقر هذا اليهودى الخالص الذى يعترض بدوره العربى الغائب . وحسبما يتحدث الصهاينة عن «التاريخ اليهودى» يتحدثون فى واقع الأمر عن تشكيل يهودى حضارى عالمى مركزه إرتس إسرائيل (أى فلسطين) ، وأن تاريخ هذه المنطقة الحقلية هو «تاريخ يهودى» وحسب . أما التواريخ الأخرى . سواء تاريخ الكنعانيين مثاب الستين قبل التسلسل العبرانى أم التاريخ العربى لمئات السنين بعد الفتح الإسلامى وتواريخ كل الأقوام الأخرى التى كانت تعيش فى أرض كنعان/ فلسطين فهذه كلها أمور ثانوية . والحديث عن «النفى والعودة» و«تجميع المسبيين» هو تعبير عن معنى الرؤية والإدراك للمنى اليهود يعنى أن الوجود العربى عرغماً مؤقتاً ، و«العودة» تعنى ضرورة «الخروج» أو «النفى العربى» ، و«تجميع المنفيين» معنى نشر يد الفلسطينيين

إن أحزان صابرا وشاتيللا كامنة في الخطاب الصهيوني. وقد صدر بالمعور من نفس المنطق والرؤية فيما تحدث عن العالوية الساحقة لسكان فلسطين في بداية هذا القرن باعتبار أنهم «الجماعات غير اليهودية». فالمنطق الصهيوني والاستعماري اتفقا على الإدراك وعلى المخطط وهو تفتيب العرب عن طريق «نهم ونهم» إلى كم مهمل (مهما كان حجمه) قابل للنقل وربما للإبادة إن منحت الفرصة. ومن هنا الحديث في كتابات الصهاينة حتى الآن عما يسمى «بالترانسفير» أو نقل العرب أي تهجيرهم بالقوة، أي تفتيبهم. إن قراءة أي نص صهيوني وفهم أي برنامج صهيوني أمر صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلاً، دون افتراض مقولة العري العائب.

الضمت إذن يلخ في حالة العري العائب، ولكن ثمة نصوص وبرامج سياسية صهيونية تفصح رغم أنها عن مقولة العري العائب الكامنة، ويحدث هذا فيما يفرض العري الأميريقي نفسه فرضاً، كوجود موجود، ككيان بيولوجي من الصعب تجاهله - كجثة ترفض أن تنوب في السحب أو تحسفي تحت التراب. ها يلجأ الصهاينة إلى تفتيبه. ومن الأمور التي لها دلالة عميقة أن كثيراً من المفكرين الصهاينة (من المسيحيين واليهود) الذين لم يكونوا قد احتكوا بعد بالعرب بل ولم يعرفوا بوجودهم الفعلي اقترحوا نقلهم أو إبادةهم. وعلى سبيل المثال لا الحصر يمكن أن نذكر الحاخام كالمشر الذي لم يكن قد ذهب قط إلى فلسطين ومع هذا كتب عام ١٨٦٢ يتحدث عن «خطر العصابات العربية»^(٤١)، وبدأ يكر في طريقة إزاحتهم عن الطريق الصهيوني. ويمكن أن نذكر سير لورانس أوليفانت ولورد وشافتشيري وغيرهم من الصهاينة المسيحيين الذين اقترحوا ضرورة نقل العرب ووضعوا المخطط لذلك. ومن بعد ذلك يمكننا أن نشير إلى هرتزل هذا اللير إلى الرقيب الذي تحدث عن طرد السكان الأصليين سواء كان يتحدث عن مشروع استيطان صهيوني في قبرص أم فلسطين، ومن بعد نورداف، وزامبويل الذي اقترح تهجير العرب على غط هجرة البوير إلى الترنسفال وعلى غط هجرة اليونانيين أو الأتراك كل إلى بلده^(٤٢). ولم يكل الصهاينة التصحييون بطبيعة الحال والرؤية

من تأكيد ضرورة «تنظيف» الأرض ومن سكنها وهي نفس العبارة التي استخدمها وايرمان «العقلاي» وغيره من الصهاينة بوصف طرد الفلسطينيين العرب عام ١٩٤٨^(١٣). وعلى كل حال وايرمان منذ البداية يرى في نقل و تهجير العرب حلاً للمشكلة الصهيونية^(١٤).

لما يوروخوف المفكر الصهيوني، والذي يقدم اعتدات اشتراكية ماركسية، فقد اقترح أن يكون مصير العرب هو الانصهار في المستوطنين الصهاينة، وهي طريقة تعيب ثورية اشتراكية متكررة^(١٥). وقد تبعه الممارسون العماليون مثل بن جوريون وموتركين وغيره. وقد قمت في كتابات أخرى، كما قام غيري، بتوثيق هذا الجانب في الإدراك والمشروع الصهيوني، ولا يوجد أي مبرر لتكراره.

ولكن يجب أن نؤكد مرة أخرى أن الصهاينة لم يكونوا منفردين في ذلك، فالنطق السائد في التشكيبي الحضاري العربي كان يستبعد الآخرين ويهدر كل حقوقهم نظرياً وإذا كان إهدار الحقوق في حالة الصهيونية يأخذ شكل تخريب العرب، فإن هذا يعود إلى بنية الصهيونية ذاتها والتي تشدد خصوصيتها من طبيعة المشروع الصهيوني الخاصة. ولذا يجب ألا نفسر هذا الجانب من الإدراك الصهيوني تفسيراً أخلاقياً فشعت الصهاينة بأنهم أكثر شراً وانحلالاً أخلاقياً من الاستعماريين التقليديين أو الاستعماريين الاستيطانيين العربيين، لأننا لو فعلنا لتصورنا أن المسألة تستند إلى الإرادة، وكأنه يمكن للصهاينة أن يتوبوا يوماً ما عن فعلتهم ويرجعوا ويدوا الدم ويعودوا عما ارتكبوه من ذنوب، وبذلك يجب أن إدراكنا مدى حدة الصراع وأبعاده البنيوية الموضوعية

اليهودي كعربي والعربي كيهودي

وقبل أن نلخص نتائج هذا القسم نود أن نذكر موضوعين أساسيين يستدعيان بعض التوقف إن لم يكن لأي شيء فعلى الأقل لطرافتهما، وإن كنا لا يمكن أن ننكر أيضاً إمكاناتهما التفسيرية والتحليلية، هذان الموضوعان الأساسيان هما اليهودي كعربي، ونقيضه العربي كيهودي.

والموضوعان رصم أنهما نقيضان إلا أنهما ينبعان من إحدى الأفكار الأساسية المتواترة في الفكر الصهيوني، وهي فكرة تصفية الدياسبورا (أي أعضاء الكليات اليهودية في العالم) ولجميع اليهود في الوطن القومي فالصهيونية تسطلق من الإيمان بأن الدياسبورا غير جذيرة بالسقاء فيهود المنفى شخصيات عليلة مريضة طفيلية. وبما يجدر ذكره أن أدبيات معاداة اليهود تحتوي على نقد متكامل متعاسك لما يسمى بالشخصية اليهودية، وقد أصبح هذا الانتقاد جزءاً من ترسانة الصهيونية الإدراكية التي طرحت نفسها على أنها الحركة التي ستطّح اليهود- أي تجعلهم قوماً طعيين ونحليصهم من الصعات السالبة المفترضة اللصيقة بشخصيتهم.

وقد تواتر الموضوع الأساسي الأول، أي اليهودي كعربي، في الكتابات الصهيونية المنى صدرت قبل أن تتحدد معالم المشروع الاستيطاني الصهيوني تماماً، وقبل أن تبلور خريطة الإدراكية، وقبل أن يتحول العربي إلى الآخر (ولعل هذا قد حدث بعد وعد بالعمور). وفي هذه المرحلة كان من الممكن النظر إلى العربي على أنه الشرقي ويمثل الأغبار الأصحاء الذي يمكن التشبه بهم والتوحد معهم للشقاء من أمراض المنفى. وحسب هذا الإدراك يتحول العربي إلى رومانسي تحيطه غلالات أسطورية كثيفة^(٤٦) ويبدو أن بعض المستوطنين الصهاينة الأول، إنطلاقاً من الرؤى الرومانسية التي كانت سائدة في أوروبا آنذاك، كانوا ينظرون إلى استيطانهم فلسطين على أنه نزع من «العودة إلى الشرق» الطاهر (في مقابل العرب المدمس الملئ بالشورور). وأن «العربي» هو الحكيم الذي سيعلمهم كل الأسرار ويأخذ بيدهم ويهديهم سواء السبيل وقد تبنت هذه الرؤية أحد زعماء موجة الهجرة الثانية، ماثير ويلكانسكي، وتسعه في ذلك جوزيف لوبنور (صديق الزعيم الصهيوني حاييم بربر والذي حر صريعاً مع صديقه في إحدى المعارك مع العرب). ويلاحظ أن أول جماعة عسكرية صهيونية والتي كانت تدعى الهاشومير كانت ترتدى رباً عربياً وأن بعض أعضائها كانوا يعيشون مع البدو ليتعلموا طرقهم.

وكان الأدب الصهيوني في هذه المرحلة الأولى معمم بهذه الرؤية الرومانسية فكتب موشيه سبيلانسكى الكاتب الصهيونى سلسلة من الكتب تحت اسم مستعار هو «الخواجه موسى» يصور فيها -وبإعجاب شديد- حياة الفلسطينيين الذين تحولوا في هذه الكتب إلى بطور وعلة جائلين يدكرون القارئ بشخصيات العهد القديم وفي قصة قصيرة كتبها رثيف يافيتس عام ١٨٩٢ يرد وصف لطفل يهودى في مستوطنة بتاح تكلم من العرب كيف يدرّب جسده على «الحراوة والسفح» وعلى الفضائات والفحش.

ومن أكثر الأمثلة تطرفاً وطرافة مسرحية آرييه أورلوف/ أريلى التى نشرت عام ١٩١٢ في مجلة هاشيلواح (الان حال الحركة الصهيونية في روسيا والتي كان يحرقها ويصلبها أحاد همام في أوديا). تصور المسرحية جماعة من المستعمرين الرواد من موجة الهجرة الثانية كانوا يعيشون في مررعة جماعية. وبطلة المسرحية هي المستوطنة الصهيونية ناعومى التى ترفض حب اثنين من زملائها وتؤثر عليهما نائماً جوالاً عربياً يدعى عليا. وحينما يقتل أحد الرواد شاباً عربياً ينتقم على لصديقه العربى المذبوح بأن يقتل الصهيونى. ولكن حتى هذا الفعل لا يعبر عن حب ناعومى له وتنتهى المسرحية بموتولوج عاصف تقول فيه ناعومى مخاطبة إخوانها الصهاينة: «إن روى نحتقركم أيتها الديدان المتحضرة لقد تعلمت من العربى الصارى شيئاً، لقد تعلمت منه هذه الكلمات الله كريم. (وهنا هو عنوان المسرحية).

ويبدو أن هذا التيار كان شائعاً لدرجة كبيرة حتى أن مجلة هاشيلواح نشرت مقالاً لجورجف كلاوزر، الناقد الصهيونى، وجه فيه اللوم للكاتب الصهاينة المستوطنين في فلسطين الذين يصورون كل اليهود في فلسطين كمتحذنين العربيه يشبهون العرب في كل شئ. وقد استمر هذا التيار واحد شكلاً مغايراً وهو الدعوة إلى الوحدة السامية والإيمان بأصول العرب واليهود السامية المشتركة والتي عبر عنها فكر الحركة الكنعانية التى انتشرت بعض الوقت بين النظمين الصهاينة (١٤٧).

ويجب ملاحظة أن هذا الموقف من العرب كيهود وكبطل رومانسي يتم هو الآخر بقدر كبير من التجريدية، فالعرب هنا ليس إنساناً حقيقياً تاريخياً وإنما مقولة رومانسية مجردة ليس لها حقوق معينة. كما أن العرب هنا يهودى أى إنسان متنقل غير مرتبط بالأرض، الأمر الذى يخدم المصالح الصهيونية ولاشك. فتجسيد العرب هو فى واقع الأمر فصل له عن أرضه وحرله عن إنسانيته المتبعة ليصبح شيئاً يشبه الآثار الساكنة (التي نسميها الآنثيكة فى مصر). والصهيونية فى هذا مرة أخرى لا تختلف كثيراً عن العنصرية العربية، التي كانت لا تجمع شيئاً فى الإعجاب «بالمغربيين» «الأمجاد الغابرة»، طالما أنها تظل شيئاً متحيفاً مثل الآثار الفرعونية لا علاقة لها بالواقع، وطالما أنها لا تستخدم كمؤشر على ما يمكن لصاحب هذا التراث أن يسجز، فى المستقبل.

أما مقولة العرب كيهودى فهي أكثر وضوحاً فتحن إذا ما نظرنا لكثير من المقولات الإدراكية السابقة. العربى كمتحلف ونهميش العربى والعربى كحيوان اقتصادى، والعربى كشخص يحركه التعصب الدينى، والقومية العربية كقومية صميلة للإنجليز، للاحظنا أن هذه هي ذاتها صفات اليهودى فى أدبيات معاداة اليهود فى العرب، والنسب كانت تهدف لإسقاط حقوق اليهودى وطرده باعتباره شخصية طغرية ضارة غير متمية بالنسب لإبادته فى نهاية الأمر. وكما قلنا كانت هذه المقولات جرماً من ترسانة الصهيونية الإدراكية فشبت بها وتبنتها وطبقتها على الآخر أى يهود المتن، ثم أسقطتها على الآخر الآخر، إن صح التعبير، الآخر مضاعف الآخرية، أى العربى، كمحاولة لتفسيه ونهميشه وتجرده وطرده وإبادته واجتثاث علاقته بالأرض، تماماً كما فعل المعادون لليهود باليهود داخل التشكيل الحضارى العربى.

تلخيص ونتائج

١ - تأخذ الخريطة الإدراكية أو الطيف أو المتصل الإدراكي الصهيوني للعرب الشكل التالي:

العربي الحقيقي - العربي المتخلف - العربي مثلاً للأغيار - العربي الهامشي - العربي المائب، ويلاحظ الاعتماد التدريجي عن العربي الحقيقي والوصول إلى القذرة ومقطة التحقق وهي العربي الغائب عبر درجات متزايدة التجريد.

٢ - يلاحظ أن ثمة تلازم لرؤية الذات ورؤية الآخر، ففي مقابل اليهودي يمثل الحضارة العربية وحامل مشعلها يوجد العربي الشرقي المتخلف، وفي مقابل اليهودي الخالص صاحب الحقوق المطلقة نجد العربي المائب الذي لا حقوق له على الإطلاق لأنه غائب تماماً من منظور الأرض المقدسة.

٣ - اطلقنا على هذا الإدراك أحياناً إستراتيجية إدراكية لا لأنه طريقة متعمدة في الإدراك (معن وجهة نظر هذا البحث لا يهم سواء أكان الإدراك واعياً أم غير واع) وإنما لأنه إدراك تصوغي ونمطه مصالح المدرك ولحجراته ومشروعه الاستيطاني. وقد كان هذا الطيف الإدراكي أساسياً بالنسبة للصهاينة فقد رودهم بإطار تفسيري وفر لهم الواقع بطريقة تتناسب مع هذه المصالح وسرع لهم عمليات الاغتصاب والاحتلال والقمع وأحياناً الإبادة، بل وحولهم إلى الصحية من وجهة نظرهم، وبالتالي أمكنهم الاستمرار في إنجاء مشروع استيطاني يتسم بالشراسة الفريدة إذ لا تعرف مشروعا استيطانياً إحلالياً آخر في القرن العشرين.

٤ - حارلنا في هذا الفصل أن نتعد عن عملية التشهير بالصهاينة وهي عملية أثيرة لدى الكثير من الكتاب العرب في حقل الصهيونية، فالتشهير له طبيعة عملية إعلامية وله أهمية شعبية بالنسبة للجماهير أو في مجال تحسين الصورة في الخارج ولكنها لا تعيد كثيراً في عملية فهم الآخر والتنبؤ بسلوكه، وهو أمر

أساسي في عملية إدارة الصراع . ونعتقد أن صانع القرار العربي لابد وأن يأخذ الإدراك الصهيوني العربي في الاعتبار، لأن هذا الإدراك أحد المكونات بل والمحددات الأساسية للكيان الصهيوني . وأعتقد أن فشل محادثات العدو عام ١٩٧٣ في التنبؤ بالهجوم العربي المفيد إنما كان نتيجة جمودهم الإدراكي، إذ أن الإنسان في نهاية الأمر يقع ضحية تحيزه، والعربي الحقيقي النادر على أن يهضم وأن يمتلك ناصية الأسلحة الحديثة ويوقع الهزيمة بالمغتصب لس حراً من ترسانة الصهاينة الإدراكية، ولذا لم يتوقع العدو ولم «ير» رغم أنه كان «يشاهد ويراقب ويسجل» .

ومع هذا، هل يظل الإنسان الصهيوني قابلاً داخل تحيزه، أم أنه ثمة لحظات إدراك للإنسان العربي الحقيقي؟ وما نتائج هذا الإدراك؟ وما هو أثر الإدراك الصهيوني الذي تشكل قبل عام ١٩٤٨ على الاسرائيليين؟ هذان هما السؤالان اللذان سأحاول الإجابة عليهما في الفصل الثاني من هذا الكتاب

- 1 - Richard Crossman, *A Nation Reborn: The Israel of Weizman, Bevin, and Ben Gurion*, (London: Hamish Hamilton, 1969), P.58.

٢ - نفس المراجع.

- 3 - Rapael Patai, ed., *The Complete Diaries of Theodore Herzl*, (5 vol), (New York: Herzl Press and Thomas Yoseloff, 1960), Trans. Harry Zohn, vol. 3, p. 1361.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بـ «يوميات هرتزل»

- 4 - George Jabbour, *Settler Colonialism in Southern Africa and the Middle East* (Beirut: Palestine Liberation Organization Research Center, 1970), p.28.

٥ - يوميات هرتزل، الجزء الأول، ص ٣٤٣، ٣٣٨

- ٦ - صبرى جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الأول - (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٧)، ص ١٣٩

- 7 - Walter Lacquer, *A History of Zionism* (New York, Holt, Rinehart & Winston, 1972), p.217.

سيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمة «فلايان».

- 8 - Simha Flapan, *Zionism and the Palestinians* (London: Croom, Helm, 1979), p.55-56

سيشار إليه من الآن فصاعداً بكلمة «فلايان»

٩ - نفس المرجع، ص ٣٩.

١٠ - نفس المرجع، ص ٢٦.

١١ - نفس المرجع، ص ٧١.

- 12 - Harry Truman, *Memoirs 2 Vols*, (Garden City, New York: Doubleday, 1955), Vol I, p.159.

١٣ - فلامان، ص ٦٤ .

١٤ - نفس المرجع

15 - Amos Elon, *The Israelis: Founders and Sons* (New York: Holt, Rinehart, and Winston, 1971), p. 172.

16 - Ehud Ben Ezer, ed., (New York : Quadrangle The New York Times Book, 1974), 183

ميشال اليه من الآن فصاعداً بكلمه «بن عيرد» .

١٧ - لاكير، ص ٤٧

١٨ - فلايان، ص ٥٦ .

١٩ - بن عزيز، ص ٣٢٤-٣٢٥ .

٢٠ - لاكير، ص ٢٤٧

٢١ - نفس المرجع .

٢٢ - نفس المرجع، ص ٢٥٠

٢٣ - فلايان، ص ١٩ .

٢٤ - نفس المرجع، ص ٦٩ .

٢٥ - لاكير، ص ٢١١ .

٢٦ - فلايان، ص ٦٥ .

٢٧ - نفس المرجع، ص ٢٦ .

٢٨ - نفس المرجع، ص ٦٥

٢٩ - نفس المرجع

٣٠ - لاكير، ص ٢٦٣

٣١ - نفس المرجع، ص ٢٥٨

٣٢ - فلامان، ص ١٩، ٢٩

٣٣ - نفس المرجع، ص ١٩

٣٤ - لاكير، ص ٢٥٨ .

٣٥- صبري جريس، السنوات الخمس السمان في تاريخ الوطن القوم
اليهودي في فلسطين (١٩٣١-١٩٣٦)، ٤- محاورات التعاميم مع
العرب، شئون فلسطينية (تموز- أغسطس ١٩٨٥) ص ٤٩.

36-Meir Ben-Horin, Max Nordau:Philosopher of Human Solidarity (New
York: Conference of Jewish Social Studies,1956),p. 199

٣٧ - ايلون، ص ١١٥.

38 - David Ben Gurion, Rebirth and Destiny Of Israel, (New
York,Philosophical Library, 1954)p.38.

٣٩- فلايان، ص ١٣١.

٤- بن عزيز، ص ٢-٣.

٤١- لأكير، ص ٢١٠.

٤٢- نفس المرجع، ص ٢٣١.

43 - Abdelwahab M. Elmessiri, The Land of Promise: A Critique
of Political Zionism (New Brunswick, New Jersey: North
American,1977),p.143.

٤٤- فلايان، ص ٨٢.

45 - Shlomo Avineri, The Making of Modern Zionism: The Intel-
lectual Origins of the Jewish State (London. Weidenfeld and
Nicolson, 1981),pp.139-150.

46 - Amnon Rubinstein, The Zionist Dream Revisited: From He-
zli to Gush Emunim and Back (New York: Schocken
Books,1983),pp.56-60.

مشير إلى هذا الكتاب من الآن فصاعدا بكلمة «روينشتاين».

٤٧- لأكير، ص ٢٢٨.

٢- الاستجابة الصهيونية للعربى الحقيقي

من أوائل المفكرين الصهاينة الذين أدركوا العرب كإنسان حقيقي تاريخي، المفكر الصهيوني الروسي آحاد هعام، الذي أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى احتجازه منذ البداية على طريقة معاملة الصهاينة للعرب وقد بيهم إلى أن العرب - على عكس ما تدعى الأسطورة الصهيونية- ليسوا غائبين، وماجم مقاطعة الصهاينة للعمال العرب (في خطاب له بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩١٣) (١)، باعتبارها محاولة صارخة لتهميشهم وتغييبهم. وقد وصل إدراك آحاد هعام القوية حينما أدرك المخاض الروسي أن حلم العودة إلى صهيون، كما فسره الصهاينة، وكما أخذ في التحقق فيؤدي إلى تنفيس تراثها بدم الأبرياء- أي أنه رأى الخطة التي يحاول الصهاينة إخفاءها. ولذا فعلى الرغم من أن فكر آحاد هعام فكر عنصري يتشوى إلى أقصى درجة (فهو صاحب فكرة اليهود «كسوير أمة» ، وهو صاحب فكرة تحول فلسطين إلى مركز ثقافي لليهود واليهودية) إلا أن العرب الحقيقي فرص معه فرضاً على وجهه ولذا لم يملك المخاض إلا أن يقول: إن الله قد أنزل بي العذاب إذا مد لي حياتي حتى أرى بعيني رأسي، أنني قد جلبت عن جادة الصواب إذا كان هذا هو الماشياح (المسيح المخلص اليهودي)، فإني لا أود رؤية هودته (٢) أي أنه لا يود رؤية تحقيق الحلم (أو الكابوس) الصهيوني- لتحقيق الحلم يعني تغييب العرب، وتغييب العرب، كما رأى هو بنفسه، يعني القتل والقتال والدماء البازفة.

حزب الفلاحين

ومن أهم المفكرين والمستوطنين الصهاينة الذين تخطوا التحيز الإدراكي الصهيوني ورأوا العرب في كل تركيبته التاريخية والإنسانية إسحق إيتانين، أحد كبار المسؤولين عن الاستيطان الصهيوني في فلسطين، والذي حذر الصهاينة من سطحتهم وعجزهم عن العرص لباطن الأمور، (٣) والذي حاول أن يبين لهم أن الحق قد يكون في جانبهم من الناحية القانونية (السطحية) ولكن الموقف يصبح أكثر تركيزاً إن تمت رؤيته في إطار سياسي أخلاقي (٤).

وقد حذر ابشتاين في محاضرة له ألقاها على بعض مندوبي المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) (ونشرت فيما بعد في هاشيلواخ عام ١٩٠٧) - حذر من الموقف الصهيوني الشائع (التبريري لى واقع الأمر) القائل بأن فلسطين غير مفلوحة بسبب «نقص في الأيدي العاملة أو كسل السكان» وبين أنه «ليس هناك حقول مقفرة، بل على العكس، يحاول كل فلاح أن يصيف إلى أرضه من أرض البور المجاورة لها. . . وعندما تشتري قطعة أرض كهنه، تبعد عنها مزارعيها السابقين تماماً. . . فتحرم بهذا أشخاصاً بائسين من ممتلكاتهم الضئيلة. ونسلب لقمة عيشهم. ولا يزال حتى اليوم يرن في أذنيّ نحيب النساء العربيات عندما تركت عائلاتهن قرية الجاعونة، وهي مستوطنة روش بينا، وانتقلن للسكن في حوران شرقي نهر الأردن. فقد ركب الرجال على الحميم ومشيت النساء وراحمهم باكيات، يملأن المسهل نحيسهن. وللحفظات وقعوا وقبلوا الحجارة والشراب. . . إن شراء [أراضيهم] على هذا الشكل يترك في قلوبهم جرحاً لا يندمل. وسيدذكرون دائماً ذلك اليوم الملعون الذي انتقلت فيه أملاككم إلى أيدي العرباء. لأنه إذا كان هناك فلاحون يروون حقولهم بعرقهم وحليبهم، فهم العرب. وفي النهاية سيمملون على استرجاع ما سلبته منهم قوة الذهب. . . وبعد أن يرسم ابشتاين صورة الملاح العربي الحقيقي الذي يحب أرضه، ويكد ويتعب من أجلها، يضعه في إطار سياسي عربي تاريخي واسع «وهذا الشعب، والذي لم تستعد المدينة حتى الآن قواه وتضعفه، ليس إلا جزءاً صغيراً من الشعب الكبير الذي يسيطر على كل المناطق المجاورة. . . سوريا والعراق والجزيرة العربية ومصر. ولهذا من المستحسن أن نعرف من هو الفريق الآخر. . . وأن نأخذ بثأريان قوتنا والقوى التي تواجهنا. ويمكننا القول أنه، حتى الآن على الأقل، لا توجد حركة عربية بالمفهوم القومي والسياسي لهذا التعبير. ولكن لا حاجة لهذا الشعب لحل هذه الحركة، إنه كبير وكثير ولا حاجة لبعثه، لأنه لم يمت أبداً، ولم ينقطع وجوده يوماً ويعرق في تطوره الجسدي كل شعوب أوروبا. ينبغي ألا نستخف بحقوقه، وألا نستغل صده خبث بعض أخوته الذين يظلمونه لا تشرشوا بأسد نائم ولا تأسوا جانب الرماد الذي يغطي الحمر، فقد

تطلق شرارة نسب حريقاً لا يطفأ». ولم يكتفِ أبشتاين بالشكوى والنحيب على طريقة أحاد همام بل تقدم توصيات محددة فاقترح على المستوطنين ممارسة نشاطهم الاستيطاني في فلسطين من خلال اتفاق مع «حزب الفلاحين» وبعد الحصول على موافقتهم، لأنهم أكثرية سكان البلد^(٥). كما اقترح محاولة إقامة تحالف عربي صهيوي بدلا من التحالف التركي الصهيوني المقترح آنذاك^(٦).

وبلاحظ أن إدراك أبشتاين للعربي يختلف جذريا عن الإدراك الصهيوني العام، وكان إدراكا ولاشك شجاعا لم يحاول تهميش العربي أو تهميه ولم يخشِ وراء أية مقولات قسائية كاذبة، إذ اعترف بحقيقة القومية العربية والطابع السياسي القومي للفصل العنصري، وببُنى غياب مقولة «إسرائيل».

ولم يكن إدراك العربي الحقيقي أمراً قاصراً على الشخصيات الصهيونية ابهمة أو الهامشية مثل أحاد همام أو أبشتاين، بل إننا نجد أن كثيراً من رعماء الصهيونية ومفكرها قد عاشوا لحظة الإدراك هذه. هرتزل على الرغم من عمق سطحيته (إن صح التعبير) وعلى الرغم من عدم لهماه لكثير من الأفكار السياسية في عصره كان قادراً على إدراك تاريخية الواقع العربي وتركيبته. «لحينما كان في القاهرة يتفاوض بخصوص واحد من مشروعاته الاستيطانية الكثيرة استمع إلى محاضرة عن المرى، ويبدو أنه رأى بعض العرب المصريين واستمع لأمثلتهم، فكتب يقول «إن المصريين هم سادة المستقبل هنا. ومن العجيب أن الإنجليز لا يرون ذلك، فهم يعتقدون أنهم سيتعاملون مع الفلاحين إلى الأبد». ثم أخذ هرتزل بعد ذلك يصف كيف أن الاستعمار ذاته يخلق الحضرومة التي تفضي عليه. وذلك لأنه «يعلم الفلاحين الثورة»^(٧) ثم أبدى هرتزل دهشته لعشل البريطانيين في إدراك هذه الحقيقة البسيطة. وبلاحظ هنا أن هرتزل لا يجري العرب أمامه إلى مسلمين ومسيحيين أو أثرياء أو فقراء، وإنما يدرك وجود تيار تاريخي له ماض وحاضر ومستقبل، وأنه تيار سياسي قومي يهتد أعتى الإمبراطوريات.

هزب وليس إرهاب

وحتى بن جوريون ذاته لم يفلت من لحظة الإدراك هذه. ففي عام ١٩٢٨ كتب التقييم المستعجل التالي لثورة الفلسطينيين آنذاك، والذي سنتبّه برمته نظراً لأهميته: «ابتداءً أحب أن أبلد كل الأوهام التي سادت بين الرفاق إن الإرهاب [العربي] هو مسألة مجموعة من المصائب محولة من الخارج... نحن هنا لانجابه [إرهاباً] وإنما لنجابه حرباً، وهي حرب قومية أعلنها العرب علينا. وما الإرهاب سوى [جدي وسائل الحرب]. هذه مقاومة فعالة من جانب الفلسطينيين لما يعتبرونه اغتصاباً لوطنهم من قبل اليهود- ولهذا يحاربون. ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بذاتها ولكنها ليست حالية من المثالية والتضحية بالذات. ومنذ زمن الشيخ عز الدين القسام أصبح واضحاً لي أننا لنجابه ظاهرة جديدة بين العرب. هذا ليس الشائعية أو المقتي، فهذه ليست مسألة مصالح سياسية أو مالية شخصية. إن الشيخ القسام كان زبولوتيا [عبوراً دينياً]، على استعداد للتضحية بحياته من أجل مثل أعلى. ونحن اليوم لانواجه واحداً وحسب مثله وإنما نواجه المئات بل الآلاف [أمثاله] ووراءهم كسل الشعب العربي. نحن نقلل من أهمية المعارضة العربية في أحداثنا السياسية في الخارج، ولكن ننهي علينا ألا نتجاهل الحقيقة فيما بيننا. إن احترامنا للحقائق السياسية هو الذي يجعلنا أصبر على ذكر الحقيقة. والاعتراف بهذه الحقيقة يؤدي بنا إلى نتائج حتمية وخطيرة بخصوص عملنا في فلسطين يجب ألا ننسى الآمال على أن المصائب الإرهابية سيال منها الشعب. إذاً إنه إذا ما نال من أحدهم الشعب، سيحل آخرون محله. فالشعب الذي يحارب ضد الغتصاب لأرضه لن ينال منه الشعب سريعاً... فمن الأسر لهم أن يستمروا في الحرب وألا يكلوا ولا يتعبوا مما هو بالنسبة لنا. والعرب الفلسطينيون ليسوا بمفردهم، فالسوريون سيمنون لهم يد المساعدة. فمن وجهة نظرياً هم غرباء، ومن وجهة نظر القانون هم أجناب، ولكن بالنسبة للعرب هم ليسوا أجناب على الإطلاق... إن مركز الحرب هو فلسطين، ولكن أبعادها أوسع من ذلك بكثير. وحينما نقول إن العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا- فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب، فبالنسبة لأمنا وحياتنا، نقوم بالدفاع عن أنفسنا، ووضعنا المعنوي والجسدي ليس سهلاً... ويمكننا مواجهة المصائب... وإذا ما سمح لنا بتعبئة كل

فواتنا فإنه لا يوجد أدنى شك بالنسبة للنتيجة... ولكن القتال ما هو إلا جانب واحد للصراع الذي هو صراع في جوهره سياسى. ومن الناحية السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم. إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتى ونستوطن، ونأخذها منهم، حسب تصورهم... يجب ألا نظن أن الإرهاب هو نتيجة لدعاية هتلر أو موسوليسى - قد يكون هذا عاملاً مساعداً، ولكن مصدر المعارضة يوجد بين العرب أنفسهم^(٨).

وقد اقتبسنا كلمات بن جوريون بشئ من التفصيل نظراً لحديثها وجديتها، فتحليل بن جوريون للوضع في فلسطين لا يختلف إلى حد كبير عن أى تحليل ثورى عربى أو إسلامى لطبيعة الصراع. وهو يضع القضية في إطارها السياسى القومى الصحيح، ويرأى في بعدها التاريخى - فى الماضى والحاضر والمستقبل - والاكثر من هذا تبدل كلماته على احترام لعدوه وعلى تغيير بين الأفندية والشيوخ من جهة (أى القيادات التقليدية) والقيادات العداوية الجديدة من جهة أخرى

وقد عبر موشيه شاريت هو الآخر في أحاديثه وروميانه وخطبه عن إدراكه للعربى الحقيقى. ففي خطاب له في ٩ يولييه ١٩٣٦ أمام اللجنة السياسية لحزب الهافاى حرق الثورة العربية بأنها ليست ثورة الأفندية الذين يدافعون عن مصالحهم الشخصية إنما هي ثورة الجماهير التى تمثلها المصالح القومية الحققة، وأضاف أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التى تضم العراق والحجاز واليمن، فلسطين بالنسبة لهم هي وحدة مستقلة لها رجة عربى، وهذا الوجه أحد فى التغيير، فحقيقاً من وجهة نظرهم كانت بللة عربية، وهامى ذا قد أصبحت يهوديه. ورد الفعل لا يمكن أن يكون سوى المقاومة. وفي ٢٨ سبتمبر من نفس العام، كان شاريت قاطعاً في تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن للقيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة^(٩)، كما لاحظ وجود عناصر جديدة في حركة المقاومة. إشترك المسيحيين العرب بل والنساء للسيحيات في حركة المقاومة^(١٠)، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، ويين أن من أهم دوافع الثورة هو الرغبة في إنقاذ الطابع العربى الفلسطينى وليس مجرد معارضة لليهود^(١١).

بين الإدراك والسلوك

من كل ما تقدم يمكن القول أن إدراك الصهاينة للعربى كان يتخطى إلى بعض الأحيان التعبير والمصلحة المباشرة وسُحِبَ الاعتداليات ليصل إلى الحقيقة التاريخية الخفية. ومن هنا يطرح السؤال نفسه، لِمَ لَمْ تعد هذه اللحظات الإدراكية، رغم قدرتها، تشكيل الرؤية الصهيونية؟ وإن لم تعد تشكيلاً، فلمَ لَمْ تدخل عليها قدراً من التركيبة على أقل تقدير؟

لن الإجابة على هذا السؤال عسيرة بعض الشيء لأننا هنا لا نتعامل مع عالم الأفكار ولا حتى مع كيفية نشوئها وتحددتها واكتسابها ملامح محددة، وإنما نتعامل مع مدى تأثير الأفكار في الواقع، وهذه الرقعة التي نلتقي فيها الأفكار بالواقع رقعة مبهمّة غامضة صياغته ليس لها قوانين محددة، وإن كانت تحكمها قوانين ما، فهي لم يتم اكتشافها بعد.

ومع هذا لن يصيبنا القنوط وسنحاول أن نحيط على الأسئلة التي طرحناها، ولكن ينبغي مع هذا أن نبين العارئ للطبيعة الذهنية لمحاولتنا التصيرية. ويجب أن نؤكد ابتداءً أن الإدراك مهما كان عميقاً وحليماً لا يترجم نفسه بالضرورة إلى فعل فاعل أو سلوك بعينه. وإذا أردنا أن نكون أكثر حيادية ووضوحاً قلنا إن الإدراك الجذري، باعتباره أنه يصل إلى الواقع وجذوره، جذري وحسب، وقد يؤدي إلى راديكالية ثورية تطمح إلى تغيير الواقع أو إلى راديكالية هاشية تحاول الحفاظ عليه بكل شراسة ويمكن للإدراك ما أن يتحدى الرؤية القائمة ولكنه يمكنه أيضاً أن يعمقها، ويتوقف ذلك كله على مركب هائل من العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية والنفسية والعنصرية. ولذا رغم أن إدراك العربى الحقيقى يمثل لحظة كشف لنفس الحقيقة بالنسبة لكل الصهاينة، إلا أنها تترجم نفسها إلى استجابات صهيونية وأشكال سلوكية متباينة سنحاول دراستها بتقسيمها إلى ثلاث أنماط أوغادح:

(١) هناك لمحة من الصهيانة أدرك طبيعة الجرم الكامل في عملية تعيب العرب هذه فتتكرر لسرقة الصهيونية تماماً وتغلى عنها، وحاد إلى أوروبا. وهناك كثيرون من حزب بوعالي صهيون (عمال صهيون) حادوا إلى الاتحاد السوفيتي بعد الثورة البلشفية حتى يشاركوا في الثورة الاجتماعية وحتى لا يشاركوا في الإرهاب الصهيوني . ولكن هؤلاء قللة نادرة على ما يبدو، وعلى كل فإنهم يحتفون تماماً من التاريخ الصهيونية ومن الإدراك الصهيوني (اليهودي العائب؟). ولذلك فهم لا يؤثرون من قريب أو بعيد في البرنامج السياسي الصهيوني أو سلوك الصهيانة نحو العرب . ولكن لعلنا لو أعدنا كتابة تاريخ الصهيونية وفتشنا عن هؤلاء الغائبين لوجدنا أن هذا النمط أكثر شيوعاً مما نتصوره، ولعله قد يكون من المفيد والطريف في ذات الوقت أن يقوم أحد الباحثين العرب بكتابة دراسة في هذا الموضوع.

(٢) وهناك لمحة ثان من الصهيانة أدرك العربي الخفي ولكن لم يطرح رؤيته الصهيونية جانباً، وبذلك محاولات يائسة أن يعيد صياغة المشروع الصهيوني بطريقة تستوعب وجود العربي الحقيقي وتأمله في الحاضر. ولكن من الملاحظ أن مثل هذه الشخصيات تحولت بالتدريج إلى شخصيات مبهمه وهامشية، من وجهة نظر صهيونية، تنتمي إلى منظمات هامشية وتدافع عن ردي هامشية لا تؤثر على المركز أو الممارسات الأساسية. ولعل سيرة اشتاين وآرثر روبين (وهو مسئول صهيوني آخر من الاستيطان) وغيرهم خير دليل على ذلك. فهؤلاء الصهيانة، نظراً لاحتكاكهم الدائم بالواقع العربي، أدركوا مدى تركيب الموقف بطرحوا صيغاً مركبة نوعاً مثل الدولة ثنائية القومية وطالبوا بالتعاون مع الحركة القومية العربية وأسسوا جمعية برت شالوم ثم جمعية امحود لإجراء حوار مع العرب يعترف بهم ككيان قومي ولا يتعامل معهم كمجرد مخلوقات اقتصادية . ولكن للمحاولات كلها ظلت في نهاية الأمر تعبراً عن ضمير معذب أكثر منها ممارسات حقيقية. ولعل يهودا ما جيس من أكثر الشخصيات المأساوية في تاريخ الصراع العربي الصهيوني، فقد أدرك

الخلل العميق في وعد بالفور منذ البداية بإنكاره وتعميه للعرب، وأدرك مدى عمق الصراع المحتمل بين المستوطنين الصهاينة والعرب؛ ولذا قضى حياته كلها يحاول أن يصل إلى صيغة صهيونية تنيرها لحظة الإدراك النادرة دون جدوى. وانتهى به الأمر أن تنكر له مجلس الجامعة العبرية التي كان يرأسها (الصهيوني الهامشي؟).

ويمكن أن نذكر في هذا السياق آحاد هعام نفسه الذي تعلم أن يعيش مع التناقض الحاد، بعد أن رأى الدماء العربية النازقة وبعد أن ولول وكأنه أحد أتباع المعهد القديم، يستنظر اللعنات على شعبه لم اقترب من آتام، ومع هذا نجده بعد ذلك في لندن مستشاراً لحاييم وايمان، في الفترة التي سعت إصدار وعد بالفور، يدلي له بالصيغة بخصوص كيميه الاستيلاء على فلسطين، ولا يذكره من قريب أو بعيد - بالعربي الحقيقي أو بالدماء النازقة. وينتهي به المطاف أن يستقر هو ذاته على الأرض الفلسطينية بكل ما يحمل ذلك من معان اغتصاب وقهر. ولكنه حتى وهو في فلسطين، بعد وعد بالفور، ظلت تحامره الشكوك بخصوص المشروع الصهيوني وظل موقفه مبهما حتى النهاية.

وهكذا نجد أن محاولة إهادة صبغة الرؤية الصهيونية وتأكيد وجود العربي الحقيقي أدى إلى تهيش مثل هؤلاء الصهاينة ودفع بهم بعيداً عن المركز وعن مجال صنع القرار، ولذا لم تظهر سياسة صهيونية صالحة تمسك الإدراك الصهيوني للعربي الحقيقي.

(٣) وهناك أخيراً النمط الثالث، وهو أكثر الانماط شيوعاً وهو النمط الذي يؤدي إدراكه للعربي الحقيقي إلى مزيد من الشراسة الصهيونية.

وهنا يجب أن نطرح هنا السؤال: لم هذه الاستجابة الشرسة من جانب هؤلاء؟ والأهم من ذلك: مم تفسر شيوع هذا النموذج؟ ومرة أخرى سنحاول أن نطرح التفسيرات الأخلاقية بجانب، فهي تفسيرات نهائية مطلقة ولن يفيدنا كثيراً أن نقول أن استجابة هذا النمط الثالث نابعة من عمق الشر الكامن في أنفسهم (فسبة الشر واحدة تقريباً في كل البشر) ولذا فلنحاول أن نصل إلى تفسير يعمق إدراكنا بتفاصيل الواقع وآلياته.

وقد ذكرنا من قبل أن ثمة أسباب مختلفة هي التي تحدد كيفية تحول إدراك ما إلى سلوك، وقلنا أنها أسباب سياسية واجتماعية ونفسية وعصبية. ولكننا لا يمكن أن نعوض، في هذا البحث، في الجوانب العصبية أو النفسية (مع إدراكنا لأهميتها)؛ لأن مثل هذا يتطلب معرفة حقائق ومعطيات ليست متوفرة للباحث الآن. كما أن الجوانب العصبية والنفسية قد تفسر الاختلافات الفردية بين الزعماء والمفكرين الصهاينة، ولكنها لا يمكنها أن تفسر بأية حال الاختلافات العامة ذات الطابع السياسي والاجتماعي.

ولذا قد يكون من المفيد أن نحاول التفكير في الأسباب السياسية والاجتماعية وحدها. وقد بينا من قبل أن التحير الأيديولوجي هو أحد المحددات الأساسية للإدراك، ويمكننا أن نصيف هنا عنصراً آخر وهو ميراث القوى. فقبل عام ١٩٤٨ كانت الإمبريالية العربية مهيمنة على معظم العالم بما في ذلك العالم العربي، ولم تكن القومية العربية قد تحدت معالمها بعد كقوة يحسب حسابها. ولم يكن الوضع في فلسطين أحسن حالاً، إذ أن القوى الاجتماعية هناك لم تكن هي الأخرى قد تبلورت، وبالتالي لم يكن قد تبلور بعد تفكير ثوري نظالي قادر على تعبئة الجماهير من كل الطبقات والأديان ضد عدو يهددها كلها بالطرد والقضاء. لكل هذا كان العربي الحفيظ، حينما يظهر على شاشة الوعي الصهيوني، يهت ويسحب ثم يصبح هامشياً ويختفي أمام موارد القوة التي لم تكن في صالحه. فلو أن هذا العربي الحفيظ كانت تسنده القوى اللازمة لثبت الإدراك في وعي الصهاينة وظل العربي الحفيظ حقيقياً ناشئاً يُقام له حساب ووزن، ولتحول هذا الإدراك إلى برنامج سياسي وإلى سلوك محدد يأخذ العرب في الحسبان. ولربما أمكن حينئذ لشخصيات الصهيونية مثل إيتانبار أن تصبح هي الشخصيات القيادية صاحبة القرار. ولكن العربي كان ضعيفاً ولذا أصبح من الممكن تغيبه أو تهميشه.

إن ما أقترحه، من الناحية المنهجية، أن نرى بنية الإدراك وشكله (الحفيظ الإدراكي) لا في ضوء التحيزات الأيديولوجية وحسب وإنما في ضوء بيئة القوى الموضوعية (أو موارد القوى) إذ لا يمكن أن نرى الواحد دون الآخر، ولا يمكن تفسير الواحد دون الآخر، فالعربي ككيان أمبريقي كان هناك موجوداً أمام الجميع،

والإحصائيات لا بد وأنها كانت متوفرة، والصراعات كانت دائمة، واستعدادات الصهاينة «للدفاع عن أنفسهم» ضد العرب كانت قائمة على قدم وساق منذ أول يوم. ومع هذا ظهر العرب متحلفا وهامشيا في وجدان الصهاينة، وحينما ظهر حقيقيا فقد نقرر نهيمشه وتغييه- حسبما يتطلب التحيز الايديولوجي الذي تسائله القوة هذا هو الذي يفسر موقف الحظ الثالث (وهو الأكثر شيوعاً) من الصهاينة الذين يسمون «بالمطرفين» والذين نسميهم «بالواقعيين» فهؤلاء أدركوا العرب الحقيقي فأصبحوا أكثر ضراوة وشراسة بسبب هذا الإدراك لإرغما منه. «فالأخر» إذا أصبح حقيقا فإنه يشكل تهديدا حقيقيا للذات، أما إذا كان هامشيا فإنه لا يمثل خطراً كبيراً. إن الصهاينة المتطرفين هم أكثر الناس إدراكاً لخطورة العرب الحقيقي ولطبيعة المشروع الصهيوني وموازين القوى في ذات الوقت

الحالة الحديثة

ولنضرب مثلاً على ذلك بفلاديمير جابوتسكي- زعيم الحركة الصهيونية التصحيحية- الذي أدرك منذ البداية أن الصراع بين الصهيونية كحركة استيطانية منتهية للأرض والعرب أمر حتمي، فلم يحثي وراء السحابة الكثيفة من الاعتذاريات الصهيونية أو الحديث عن اليهودي كعربي أو الحقوق اليهودية الأولية، فقد كان هو ملحقاً علمانياً، يؤمن بالقومية كقيمة مطلقة، كما لم يحثي وراء الحجب الليبرالية في شراء فلسطين، أو وراء الحجب الاشتراكية عن رجعية القرية العربية وخلافه من الاستراتيجيات الإدراكية، وإنما أكد دون مولوية أن الصهيونية جزء من التشكيل الاستعماري الغربي الذي لم يكن بمقبوره أن يحقق انتشاره إلا بحد السلاح، ولذلك طالب منذ البداية بتسليح المستوطنين الصهاينة (تماماً مثلما يتسلح المستوطنون الأوروبيون في كينيا وفي كل مكان)^(١٢)، أي طالب بتعديل موازين القوى بطريقة تخدم التحيز الصهيوني فالعرب حسبما صرح- لن يقبلوا بالصهيونية (وتحيزاتها ورؤيتها) إلا إذا وجدوا أنفسهم في مواجهة حائط حديدي^(١٣).

وعسى النتيجة توصل لها بن جورديون أن إدراكه للمعربي الحقيقي والتزامه في ذات الوقت بالرؤية الصهيونية وحقوق اليهودي الخالص جعله يدرك أن لامناص من عرض هذه الرؤية عن طريق القوة وحده السيف ولذا لم يسحث الزعيم الصهيوني عن سلام مع العرب، فمثل هذا السلام - على حد قوله - مستحيل، كما أنه لم يحاول أن يعقد اتفاقية معهم، فهذا ولاشك سراب. إن السلام مع العرب، بالنسبة لبن جورديون، «إن هو إلا وسيلة وحجب، أما الغاية فهي الإقامة الكاملة للصهيونية، لهذا فقط نود أن نصبل إلى اتفاق [مع العرب]. إن الشعب اليهودي لن يوافق، بل لن يجسر على أن يوافق، على أية اتفاقية لاتتخدم هذا الغرض... ولذا بالاتفاق الشامل أمر غر مطروح الآن، [فالعرب] لن يستسلموا في إرئس إسرائيل إلا بعد أن يتولى عليهم اليأس الكامل، بأس لا يسجم عن مشلهم في الاضطرابات التي يشيرونها أو التمرد الذي يقومون به وحسب وإنما يسجم عن كوننا [نحن أصحاب الحقوق اليهودية المطلقة] في هذا البلد ثم استمر يقول: لا يوجد مثل واحد في التاريخ أن أمة فتحت أبوابها وطبها [للاخرين]... إن تشجعي للمصرع أنه سيتم التوصل إلى اتفاق [مع العرب] لأنى الزمن بالقوة، قوتنا التي ستتم، وهي إن حققت هذا النمو، فإن الاتفاق سيتم إبرامه»^(١٤) وهكذا تم عقد اتفاقيات «السلام مع العرب»

وبما من شأيت الذي عرف العربي الحقيقي من حرب وكجب عنه مدافعا. هنا أيضا سجد أن المثل الأعلى الصهيوني الذي تسانده القوة يفرض نفسه عليه ويحدد له السواقع، كما يحدد له طريقة سلوكه. ولذا صرح قائلاً: «إن معاناة العرب لانهما لائنا سنحقق قوميتنا [قومية اليهودي الخالص]، ويمكنهم هم أن يحصلوا على بلاد أخرى. نحن مهتدف إلى إنشاء دولة ولكن يجب ألا مستخدم هذه الكلمة»^(١٥). وهو أيضا يتبنى سياسة الحائط الحديدى، شأنه في هذا شأن بن جورديون وجابوتسكى «لا اعتقد أننا سنصل إلى اتفاق مع العرب حتى نسحو قوتنا ولكنى اعتقد أنه ستحين اللحظة حين نصبح أكثر قوة وسنبرم اتفاقاً ثابتاً مع بريطانيا العظمى، كقوة مع قوة أخرى، وسنصل إلى اتفاق مع العرب كقوة مع قوة أخرى. لكن الشرط الأساسي هو ألا ينظر لنا العرب باعتبارنا قوة محتملة وإنما

باعتبارها قوة فعلية» (١٦) وهكذا يمكن القفز من العربي الحقيقي إلى العربي الماهجني ومنه إلى العربي العائب، كما يمكن القفز من يهودي انتمى إلى اليهودي الخالص - أى يمكن القفز من الواقع إلى المثل الأعلى الصهيونى المتحيز عن طريق العنف والقوة، وكلما زاد العربي حقيقة فى الوعي الصهيونى لابد وأن تكون القوة أكثر ضراوة لسد الهوة بين الحقيقة والمثل الأعلى - هذه هى سبة الايدولوجية : هذه هى طبيعة الإدراك : هذه هى موازين القوى : وهاكم هى الوسائل .

وقد طرح أحد الصهاينة الذين أدركوا وجود العربي الحقيقي السؤال التالى فى أحد المؤتمرات الصهيونية «هل تريد الحركة الصهيونية الحرب مع العرب أم لا؟» (١٧) . ولعل طرح السؤال على هذا النحو يلقي كثيراً من الضوء على القضية موضع البحث فهل المسألة مسألة إرادة و«رغبة» ، أم أنها مسألة بنية فكرية تحوى داخلها الحد الأقصى من العنف؟ وحيثما تأخذ هذه البنية شكلاً مؤسسياً نسلته القوة، فهل يمكن لإرادة الأفراد أن تتحكم فيها، أم أنها تتخطى تلك الإرادة وتصبح لها ديناميكية مستقلة تدرس كل من يقف فى طريقها؟

ويمكن لوايرمان أن يساعدنا فى الإجابة على هذا السؤال ، فهو كان يدرك تماماً أن الصراع موضوعى ، له بنية مستقلة عن إرادة الأفراد ، وأنه لو تم تعديل الرؤية الصهيونية التى تحاول تعيبب العربى ، بحيث يمكن لهذا العربى تحقيق وجوده ، ونقل داخل إطار حكومة ديمقراطية ، فإن مثل هذا الوضع عواقبه الوخيمة ، إذ أنه سيؤدى إلى «سيطرة العرب على الأمور» .

هذه الحكومة مستحكمة فى الهجرة والأرض والتشريع - وبذا سيحقق الصهاينة السلام ولكنه «سلام المقابر» (١٨) والصهاينة شأنهم شأن كل من فى موقعهم ، كانوا لا يسحون عن سلام المقابر لأنفسهم وإنما للآخرين ولذا لابد من إسقاط العربى الحقيقى ، وإذا فرض نفسه على وعى الصهاينة فإنه لابد من تهميشه وتهشيمه وتقييده . وإن طمعا هذا العربى مرة أخرى على سطح الوعي فقد ردة الفعل لابد وأن تكون مريداً من التطرف فى مواجهة الخطر الحقيقى من العربى الحقيقى ، ولذا فالاتفاق الذى يتحدث عنه جابوتنسكى ثم من جوربون وشاريت ووايرمان ليس اتفاقاً مع العربى الحقيقى إنما هو اتفاق مع طرف آخر تم تعييبه أو

ترويه من طريق الفوه والخائط الحديدى، ولذا فهو يقع بالبقاء حسب الشروط التى يحرصها تحيز الآخر وإدراكه، وهذه رؤية ولاشك واقعية. إذ كيف يمكن أن نتوقع من العرب أن يرضخوا طواعية لرؤية تلمس وجودهم؟

الاستجابة العربية

وهذا ما أدركه العرب «المتخلمون» المعيبون منذ البداية. فرغم كل محاولات الصهاينة المعلقة عن الحوار والتفاوض والاختوة العربية اليهودية والاختد بيد العرب، كان العرب معترفون أن الصهاينة قد آمنوا تحت راية الاستعمار الانجليزى وبمساعدة جيوشه وبوارحه، وأن وعد بالمرور قد وعدهم بفلسطين، وأنه أشار بشكل عابر إلى حقوق «الجماعات غير اليهودية»، أى أن الصباغة اللقظية ذاتها قد قامت بتهجينهم وتغييرهم على مستوى المحطوط، ولم يبق سوى التعمد والممارسة ولم يكن العرب عاقلين عن المفاهيم الصهيونية مثل العمل العبرى أو عن المؤسسات الصهيونية مثل الكيبوتس والهستدروت والهاجاناه التى تستعملهم وتشعبهم وتغيبهم. وفى علاقاتهم اليومية مع مؤسسات إدارة الانتداب كانوا يعرفون أن بوابات وطنهم قد فُتحت على مصراعها ليهود العرب لينتطوا فيه، كما كانوا يدركون أنه بغض النظر عن نوايا بعض الصهاينة الطيبة تجاه العربى الحقيقى (مهما حلست السية) وبعض النظر عن مدى جدبتهم فى دعاوتهم (مهما بلغت درجة البلية) فإن المرائع التى كان فى العفكل بحان وقما حراسيا، فالصهاينة كانوا يهدفون دائما إلى زيادة عدد اليهود فى فلسطين وإلى إقامة كيان اقتصادى اجتماعى (عسكرى) منعصل، وفى نهاية الامر مهيمن.

وقد وصف نجيب غازورى، هذا المؤلف الفلسطينى العربى المسيحى، والذى كان أول من أدرك حقيقة ما يحدث بأن الصراع سيستمر إلى أن يسود طرف على الآخر^(١٩). وهذا الراى ليس رأيا متشائما ينكر مثاليات البشر، وإنما هو راى يحكم على هذه المثاليات فى ضوء الطموحات والممارسة، وهى ضوء ما تشكل فى الواقع بالفعل، ونحس إن لم نفعل ذلك أصبح المثل الأعلى ضبابا يغشى الأبصار وليس سارة تضى للإنسان طريقه وتساعد على تغيير واقعه إلى واقع أفضل. وهذا ما قاله أحد القادة الفلسطينيين لأحد أعضائه جماعة برمت شالوم من دعاة السلام

مع العرب. «أحب أن أخبرك بكل صراحة أنتى أفضل أن تتعامل مع شخص مثل جابوتنسكى على التعامل معك. أحرف تماماً أن جابوتنسكى هو عدونا اللدود وأنا ينهى أن محارب ضده، بينما يبدو أنك صديقنا. ولكن بكل صراحة لا أرى أى فارق بين هدفك وهدف جابوتنسكى. أنت أيضاً تمسك بوعدهم بالقصور والوطن القومى والهجرة بلا قيد ولا شرط وشراء اليهود للأرض - أى بكل ما هو بالنسبة لى مسألة حياة أو موت» (٢).

إن ما يقوله العربى هنا ليس تعبيراً عن يأسه بخصوص الطبيعة البشرية، وليس تبنياً لرؤية داروينية اجتماعية تشبه رؤية الصهاينة التى ترى أن الواقع هو حلقة صراع الجميع ضد الجميع، وإنما هى تعبير عن محاولة لفهم الآخر فى ضوء فكره وسلوكه. فإذا كان القول مشرقاً عادلاً والفعل مظلماً ظالماً فلا مناص من أن تصع النقط على الحروف، بل يكون من الأفضل فى هذه الحالة أن تتعامل مع عدو تطابق أقواله المظلمة أفعاله الظلمة، فهنا الموقف، على الأقل، يشتم بفضيلة الوصوح

وقد نسب أحد زعماء حزب الاستقلال فى فلسطين إلى أن الرؤية الصهيونية للسلام مع العرب، صهما بلغت من اعتدال، رؤية فى نهاية الأمر وهمية (إيديولوجية بالمعنى السلبى للكلمة) وأن أى تحقق لها يعنى سلب حقوق العرب ولنا حينما كتب له يهودا ماجنيس يقترح إمكانية التخلي عن فكرة الدولة اليهودية على أن يسمح لجماعة يهودية أن تتمتع بحكم ذاتى محدود فى فلسطين، رد عليه قائلاً: «لا أرى أى شئ فى اقتراحاتك سوى استمرار صريح ضد العرب، الذين لن يسمحوا لأحد أن يقاسمهم حقوقهم الطبيعية - أما بالنسبة لليهود فليس لديهم أية حقوق سوى ذكريات روحية مفعمة بالكوارث والقصص المحزنة. ولنا من المستحيل عقد لقاء بين زعماء الشعبى العربى واليهودى» (٣).

وكان العرب يتركون تماماً أن الحديث العذب عن التقدم وخلافه إنما هو حديث عن التوبيخ وعن سلب الوطن - إن التقدم فى إطار غير متزن من القوة لصالح المعتصب بمعنى أن العربى سيفقد كل شئ، خاصة إذا كان الآخر لا يعترف بالعربى

ككيسان تاريخي وإنما كمنحلق اقتصادي. ولذا تغير كثير من الشعوب الملهورة
استراتيجيتها التحررية وبدلاً من البحث عن التقدم تفضل الدفاع عن البقاء أو
«التشريق» إذا ما استخدمنا عبارة المفكر العربي المصري الدكتور شكري عياد

ولعل هذا هو الذي يفسر رفض موسى العلمي لكلمات بن جوريون (الحلوة
العذبة) حين تقابلا عام ١٩٣٦ في منزل موسى شاريت. فطبقاً لما جاء على لسان
بن جوريون بدأ الحديث بتريد الخمة (القديمة) التي أعدها عن المستنقعات التي
يجري تجميعها، والصحارى التي تزدهر بالخضرة، والرخاء الذي سيعم على
الجميع ولكن العربي قاطعه قائلاً: «اسمع يا حواجة بن جوريون، إنني أفصل أن
نظل الأرض هنا جرداء مغطاة بمائة عام أخرى، أو ألف عام أخرى إلى أن نستطيع
محى اتصالها ونأتي لها بالخلاص» وهنا مارس بن جوريون إحدى لحظات
الإدراك الساذجة ولم يسمع إلا الاعتراض بأن العربي [الحقيقي] كان يقول
الحقيقة، وأن كلماته هو [اليهودي الخالص] بدت مضحكة وجوهاً أكثر من أي
وقت مضى (٢٢).

وهكذا أبقى العرب أنه لا يمكن التصالح أو التماهم أو الاستفادة من مستوطن
مسيحي يدرك الواقع بطريقة تنكر وجودهم ابتداءً أو نهائيتهم على أحسن تقدير،
وهو إدراك تسانده موازين القرى العالمية والمحلية التي لم تكن في صالح أهل البلد.
وقد أثبت مسار التاريخ صدق حدسهم ودقة تقييمهم للموقف.

١ - تم إقحامه في

Hans Kohn, "Ahaad Haam" in Gary Smith, ed., Zionism

The Dream and the Reality: A Jewish Critique (New York, Barnes and Noble, 1974), P.23.

2- Published in Haartz in Sept 8, 1922, Moshe Menuhin and Cited by Jewish Critics of Zionism (New York, Arab Information Center) P 2.

٣- صبري جريس، تاريخ الصهيونية،

٤ لاكير، ص ٢١٥-٢١٦

٥- صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ص ١٤٠

٦- لاكير، ص ٢١٥ ٢١٦

٧- يوميات هرتزل، الجزء الرابع، ص ١٤٤٩

٨- فلايان، ص ١٤٠-١٤٢.

٩- نفس المرجع، ص ١٤٩-١٥٠.

١٠- لاكير، ص ١٠

١١- فلايان، ص ١٤٩-١٥٠.

١٢- شهادة مقدمة إلى اللجنة الملكية لفلسطين (١٩٣٧) في الفكرة

الصهيونية: النصوص الأساسية، إشراف الدكتور أنيس صانع (بيروت،

مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧٠)، ص ٤٣٧

١٣ لاكير، ص ٢٥٧.

١٤ فلايان، ص ١٤٣ ١٤٤

١٥- نفس المرجع، ص ١٥٣

١٦- نفس المرجع، ص ١٥٦

١٧- لاكير، ص ٢٤٢

١٨- فلايان، ص ٧٦

١٩- لاكير، ص ٢١٥.

٢٠- روتشتاين، ص ٥٦٢.

٢١- نفس المرجع، نفس الصفحة.

٢٢- بن هيزر، ص ٨٣.

الفصل الثاني:

في الإدراك الإسرائيلي

١- الإدراك الإسرائيلي للعرب

٢- الإدراك الإسرائيلي للدولة الفلسطينية

٣- الإدراك الإسرائيلي للإنتفاضة

١ - الإدراك الاسرائيلي للعرب

يمكننا في هذا الفصل أن نترك الإدراك الصهيوني للعرب ونتفل إلى الإدراك الاسرائيلي. ولنبدا بطرح السؤال التالي:

هل 'نمّج' الاسرائيليون في محاور التحير الإدراكي الصهيوني؟ وإن كانوا قد 'لمحوا'، فهل تحول الإدراك إلى برنامج سياسي ما، أو هل أن إدراكهم في سلوكهم؟ بمعنى - هل ثمة إدراك اسرائيلي للعرب، متعصل عن الإدراك الصهيوني، وهل أدى تحول المستوطن الصهيوني إلى الدولة الصهيونية إلى تحول مماثل في الإدراك؟

أعتقد أن الوجدان الاسرائيلي لا يزال حبيس الإدراك الصهيوني العربي بكل تحيراته. وهذا ليس بأمر مستغرب، فالإنسان الاسرائيلي إنسان مستعبد من ابتداء الاستيطان الصهيوني، ولا يوجد له أي كيان خارجي، وظهور العربي الحقيقي يهدد هذا الكيان وينسف الادعاءات الصهيونية من جذورها (وقد بينا في مكان آخر كيف تساهم عملية تمويه الكيان الصهيوني من الخارج [عن طريق الولايات المتحدة ويهود الغرب] في فعل الاسرائيلي من واقعه وبالتالي تساعد على تدعيم الإدراك الصهيوني، المتحيز للمواقع وللإنسان العربي، ونصمّر له الاستمرار، إذ أنها تجد هذا الإدراك بهنية القوة التحتية)^(١).

العربي المتخلف

ولبدأ بمقولة العربي المتخلف (والصهيوني كممثل للحضارة الغربية). هناك الكثيرون بطبيعة الحال في إسرائيل الذين ينظرون لأنفسهم على أنهم حملة شعلة الحضارة العربية في جبهة الشرق الأوسط، وأن العرب هم يمثلون الشرق المتخلف. فعلى سبيل المثال يرى أيا إيمان أن إسرائيل هي الشرق الأوسط ولكنها ليست منه، ويتبعه في ذلك بن جيوريجون وييجين ومعظم القيادات الصهيونية

بل إن سياسة إسرائيل بكاملها، ابتداء من نمط تصويتها في هيئة الأمم إلى تحالفها الاستراتيجي مع الولايات المتحدة، هو ترجمة لهذه الرؤية للذات ويمكن أن يضيف أن الأسلحة الإسرائيلية التي تسلك محيطات اللاتجسس هي، في معظم الأحوال، أسلحة غربية متقدمة أو ثمرة من ثمرات التكنولوجيا الغربية. كما أن القنابل العنقودية بدرجة فتكها العالية هي ولا شك نتاج حضارة متقدمة منظمة على أكمل وجه، والمعلومات التي تملكها إسرائيل أولاً بأول هي معلومات غربية بشكل عام، وأمريكية على وجه الخصوص. وقارئ الصحافة الإسرائيلية يعرف أن الدولة الصهيونية لا تكف عن الحديث عن نفسها باعتبارها امتداداً للغرب وواحة الديمقراطية الغربية، كما يعرف أن أسلوب الحياة هناك استهلاكي غربي (على الأقل بالنسبة للأشكناز).

وتعكس هذه الرؤية الصهيونية للذات وللآخر على موقف الدولة الصهيونية الأشكنازية من يهود البلاد العربية، فهي تنظر لهم بالمنظار الغربي، وترى أنهم عنصر من عناصر المتخلف الحضاري العام في المحيط الصهيوني. بل إن إنكار الإنجاز الحضاري العربي قد انسحب على إسهام اليهود العرب للحضارة العربية، وعلى إسهام اليهود السعاريين للحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط. ولذا لا يأتي ذكر لهذه الإنجازات، إلا نادراً، في الكتب المدرسية الإسرائيلية. ومن السخرية بمكان أنه حتى بدايات القرن الثامن عشر، كانت إسهامات اليهود الأشكناز لحضارات بلادهم في حكم المتقدمة، ولا تخرج عن نطاق المسماة بالتلمودية والإشرافات القبالية، فلم ينتج يهود العرب شخصية مثل موسى بن ميمون أو شاعراً مثل يهودا هاليفي (إلا مع بدايات القرن الثامن عشر).

ولكن الهدف المقصود هو صاحب الأرض الفلسطينية، أي العربي وليس اليهودي الشرقي، ولذا نجد أن صورة العربي المتخلف هي صورة متواترة في الصحافة الإسرائيلية لا تكف أجهزة الإعلام عن تأكيدها، ولا تكف المقررات الدراسية عن تدعيمها في الوجدان الإسرائيلي. وقد صدرت كتابات عربية عديدة لتوثيق هذا الجانب من الإدراك الإسرائيلي للإنسان العربي

وقد ذكرنا من قبل امتداداً طريفاً لصورة العربي كشرقي وهو صورة اليهودي كعربي . وعلى الرغم من أننا ذكرنا أن هذه الصورة قد ظهرت قبل تبلور الإدراك الصهيوني للعربي، إلا أنها مع ذلك لا يزال لها أصداؤها في الوجدان الاسرائيلي، وتأخذ شكل المعركة الكنعانية التي تنطلق من الإيمان بأن اليهود المعاندين لإسرائيل إنما هم عبرانيون - أي جزء من التشكيل الحضاري السامي، ليس لهم علاقة بيهود الشتات. ولعل الدعوة للقومية الاسرائيلية (ككيان منفصل بل ومتناقض للهوية اليهودية) وتمجيد الصابرا في مقابل يهود المتنى هو تعبير جزئي عن نفس هذا الإدراك.

العربي ممثلاً للأغيار

أما العربي ممثلاً للأغيار فهو أيضاً إدراك لا يزال سائداً في إسرائيل، فقد فسّر المفكر والعالم يشياهو ليفنر ما سماه الصراع العربي اليه ردى على أنه تعبير عن الجوهر الأدلي لمسألة الشعب اليهودي التاريخية^(٢) أي مشكلة اليهود مع الأغيار. أما الشاعر يحاس صادق فيرى أن العرب هم التعبير عن حاجة العالم المسيحي لنصبة ظاهرة اليهود^(٣). ويفسر الكاتب الاسرائيلي يهوشاوا المقاومة العربية على أساس أنها شيء غير مفهوم، ودوافعها غير عقلانية إلى حد كبير فثمة شيء ما في اليهود يؤدى إلى إثارة شعور الضروب الأخرى^(٤).

وهم في إسرائيل لا يتحدثون عن اليهود والعرب، وإنما يتحدثون في كثير من الأحيان «عن اليهود وغير اليهود»^(٥) أي الأغيار على طريقة وعد بالعود. وفي هذا الصدد قد يكون من المفيد أن نتذكر أن الحاخام ابراهيم أفيدان أوصى الجنود الاسرائيليين في إحدى نشرات الحاحامية العسكرية للجيش الاسرائيلي - بقتل المدنيين الأغيار أو غير اليهود، ولكنه كان يعني بطبيعة الحال العرب، إذ أنه لا يوجد موافق وحسب. ولأنك أن جنود جيش الدفاع الاسرائيلي كانوا يعرفون تماماً ما كان يرمى إليه الحاخام الصهيوني، فالعربي، حسب هذا الإدراك، هو ممثل الأغيار.

وقد ذكر الصحفي الاسرائيلي (وعضو الكنيست) يورى افيري في إحدى مقالاته (أثناء حرب الاستنزاف على الحدود المصرية) أن الطيارين الاسرائيليين يطرون بطائراتهم ويدكون المنازل والمدارس المصرية ثم يعودون إلى منازلهم ولا يرون في أحلامهم ضحاياهم، وإنما يرون جيتو شرق أوروبا أثناء إحدى الدابيع التي كانت تدبر ضد اليهود- أي أن الاسرائيلي يدرك أنه الضحية الدائمة وأن العربي يمثل الأغيار والجزار، حتى بعد أن قام هو شخصياً بديحه

العربي الهامشي

أما العربي الهامشي فيظهر في الرؤية الاسرائيلية على أنه شخص له حقوق مدنية يمكن ممارستها من داخل مجالس البلديات ومجالس القرى، ولكنه ليس له حقوق سياسية أو قومية بمعنى التعبير عنها من خلال مؤسسات سياسية، ومن هنا عدم السماح بقيام أحزاب عربية قومية. والمفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي لا يخرج من هذا الإطار. ومفهوم الإدارة الذاتية هو في جوهره تعبير عن ذلك، فهو مفهوم يفصل الإنسان العربي عن أرضه ويحقق الرؤية الصهيونية في مرحلة أصبحت الإبادة فيها شبه مستحيلة وأصبح تفريغ الأرض من سكانها أمراً صعباً ويظهر التهميش كذلك في إصرار الاسرائيليين على التعامل لا مع العرب وإنما مع المسلمين والمسيحيين والدروز وسكان القطاع وسكان الضفة ومع القيادات التقليدية. بل إن الاستراتيجية الصهيونية الحالية تجاه المطومة العربية بأسرها لا تزال تدور في إطار الإدراك القديم وهو إنكار القومية العربية والتعامل مع الجماعات الإثنية والقومية المختلفة، وهذا هو في نهاية الأمر إطار كامب ديفيد.

العربي الغائب

أما التغيب فيأخذ الآن فكرة تهجير الفلسطينيين ودفع تعويضات لهم وتشجيعهم على الهجرة إلى الغرب حتى يمكن مبيع الأرض من سكانها. وقد دأبت أجهزة الدعاية الصهيونية على وصف تغيب عرب فلسطين عام ١٩٤٨ وإرغامهم على الخروج من فلسطين عن طريق الإرهاب بأنه كان عطية «تبادل سكان» تم من خلالها توطين الفلسطينيين خارج فلسطين وتوطين العرب اليهود داخلها.

ولكن التبادل يعنى القبول من الطرفين، وهو أمر كما نعلم لم يحدث، فالملاحون الفلسطينيون لم يقبلوا أن يتركوا أراضيهم ليحلوا محل رجال الأعمال والمحامين من أعضاء الأقلية اليهودية في مصر أو العراق، وبالتالي فلم يكن هناك ثمة تبادل. كما أنه لم يتم تبادل أرض بأرض فسخن لا نعرف أن الحركة الصهيونية قد دبرت للفلسطينيين المعيين قطعة أرض في مكان ما ولكنه مع هذا «تبادل» من وجهة نظر الإدراك الصهيونية باعتبار أن فلسطين هي المكان الطبيعي لليهودي الخالص، ولا يوجد فيها مكان للعربي العائث أو الذي يجب أن يُتَّيَّب ولذا حينما يخرج العربي (حتى ولو بقوة السلاح) ويحل محلته اليهودي فإن في هذا تحقيق لرؤية إدراكية مبنية، وبالتالي يبدو أمراً طبعياً ومنسجماً

ومن أشكال التعبير عن تعيب العرب الاصطلاح القانوني الاسرائيلي «العابرون الحاصرون» وهو يشير إلى الفلسطينيين الموجودين بالفعل داخل حدود ٤٨، والذين مُنوا من الوصول لأرضهم بأمر المحاكم العسكرية. ولو تُرجم هذا المصطلح إلى «الحاضرين المتيبين» لظهر معنا «الحقيقي

أما أعمال العرب فيظهر في إنكار وجود حركة مقاومة الفلسطينية ورفض التعامل معها والإصرار على الإشارة لاعدائين على أنهم «متسللين وإرهابيين وقذعة»، وفي رفض التصريح بمدى شجاعة الهجمات «أعدائية»، وفي وصف جولنا مائير لنفسها بأنها «فلسطينية».

العربي كيهودي

ثم تأتي أخيراً لعملية الإسقاط الصهيونية التي تحول العربي إلى يهودي المنى ويبدو أن هذه الظاهرة أيضاً لها إمتداداتها. وقد لاحظ أحد المؤلفين العرب (دكتور رشاد الشامي في جامعة عين شمس بالقاهرة) في دراسة له هي قصة «حرية خرعه» لسامينغ برهارد، أن الفكر الصهيوني الاسرائيلي بدأ ينسب إلى العربي السمات السابقة نفسها التي كان ينسبها لليهود المنفى، وهي السمات التي استوردتها الصهيونية بدورها من أدبيات معاداة اليهود.

وفد بدأ الدكتور علي جاد أستاذ أدب الخليلي بجامعة الملك سعود بالرياض، في نشر مجموعة من الدراسات عن هذا النمط الإسقاطي كما يرد في الرواية الصهيونية في الولايات المتحدة.

ومن الأمثلة الأخرى التي سولها على هذا الإسقاط الصورة التي رسمها المفكر الصهيوني الأمريكي هوارس كالي لـ «لعلطبي» في المستقبل كما يحب أن يراها، فقال: «لوحصل اللاجئون على جوارات سعر وغيرها من الوثائق التي تمكنهم من التحرك بحرية، ولو حصلوا على مبلغ كاف من المال ليشقوا به طريقهم إلى مكان من المتوقع أن يجدوا فيه سبل العيش المعقولة، وقيل لهم أن هذا هو كل ما سيحصلون عليه ولا شيء آخر أبداً- لوحدث هذا لبدأوا عندئذ في الاعتماد على النفس» (٦) وللاحظ أن الصورة الكامنة هنا هي صورة «اليهودي التائه» الذي يرحل من مكان لأخر دون توقف، والذي لا يهيم سوى المبلغ الذي يحمله، أي أنها صورة اليهود في كتابات المبادئ لليهود.

ومن الأمثلة الدرامية الأخرى على عملية الإسقاط هذا الحوار التالي الذي نشر في جريدة «هادهشوت» (٢٠ نوفمبر ١٩٨٤) والذي دار بين مراسلي الجريدة وزوج موشيه لبسجر (عيم جيش إيمونيم). أخبرت السيدة المراسل أن الأطباء العرب أقل مهارة ومهارة من الأطباء الاسرائيليين وأنها تفضل أن تمالج ابنها عند أطباء يهود «لأنني أثق في المعايير اليهودية وحسب» فاليهود موهوبون في هذه الأمور، أما العرب فهم غير قادرين على تطوير صناعات متقدمة، وتؤكد السعودية آلاف العيين إن كل أمة لها اتجاهاتها الخاصة، والعرب لا يصلحون إلا أن يكونوا نجاراً» إن العربي هنا هو يهودي البروتوكولات- التاجر المرابي الطفيلي. وهو أيضاً، شأنه شأن يهودي البروتوكولات، مصدر كل الشرور ويهدد أمن الدولة فقد نشرت، على سبيل المثال، عال هامشمار (٢٣ نوفمبر ١٩٨٤) خبراً معاده أن الطلبة العرب أرسلوا خطاباً لأعضاء الكنيست يهددونهم فيه بالذبح، وأنهم سيدمرون كل اليهود.

العربي الحقيقي

وأخيراً نأتي للإدراك الإسرائيلي للعربي الحقيقي وسنكتشف أنه على الرغم من وجود مؤسسات حكومية إسرائيلية لدراسة العرب، وعلى الرغم من وجود احتكاك يومي بين الإسرائيليين والعرب إلا أنه يمكن القول أن الأمر لم يتغير كثيراً. إدراك الإسرائيليين للعربي الحقيقي لا يترجم نفسه بالضرورة إلى فعل فاضل وإنما تنتج عنه الاستجابات الثلاث التي سبق وأشرت إليها:

- ١- أن يتخلى الإسرائيلي عن صهيوميته.
- ٢- أن يعدل الإسرائيلي من صهيوميته في ضوء إدراكه فيتحول هو إلى شخصية هامشية أو مبهمة.
- ٣- أن يتمسك بصهيوميته، فيريد إدراكه من ضراوته وشرارته نظراً لتزايد إحساسه بالخطر المحقق.

وعند الانغماس الثلاثة هي داتها الأنماط التي كانت سائدة بين الصحابة قبل ١٩٤٨، وقد لاحظنا شروع النمط الثالث، ويبدو أن الأمر لا يزال على ما هو عليه.

ربما أردنا أن نغرب أنظارنا على النمط الأول من أدركوا العرب كحقيقة تاريخية وتقبسوا هذا الإدراك وخطبوا سلوكهم في إطاره لذكرنا موشيه ماخوهر الواضن الإسرائيلي الذي تحول إدراكه إلى رفض للصهيونية، فتأذر الكيان الصهيوني واستقر في لندن.

وهناك كذلك المناضل الإسرائيلي اليهودي أديب الذي انضم لصقوف المقاومة الفلسطينية ودخل السجن دفاعاً عما تصوره الحقيقة التاريخية والعدل الإنساني.

أما بالنسبة للنمط الثاني فيمكن أن نذكر شخصيات مثل متيتياهو بيليد ويوري اغنيري وأرييه ألياف فهم يدركون العرب كحقيقة تاريخية لابد من التعامل معها،

ولكنهم مثل إشتاين والأخريين ينطلقون من تقبل الكيان الصهيوني كحقيقة قائمة، ولذلك يطلبون من الإنسان العربي التاريخي أن يتعامل مع الإنسان الإسرائيلي ككيان تاريخي قائم. وقد تسبب موقفهم هذا في نهيمشهم تماماً، خاصة في حالة إلان، الذي كان شخصية أساسية قيادية في المؤسسة العمالية ثم بدأ يدعو لفكرة التصالح مع العرب والاعتراف بهم فأخذ يتحرك من المركز إلى الهامش حتى فشل في الحصول على مقعد في الكنيست.

أما النمط الثالث، وهو النمط الأكثر شيوعاً، فيضم أولئك الذين أدركوا أبعاد الرفض العربي لهم، وأنه رهص تاريخي حقيقي مستمر، تحركه الدوافع القومية، فزادهم ذلك إصراراً وتمسكاً بموقفهم. ومنجد أن هؤلاء قد تبنا مفهوم إين برير-أي «لا خيار» أي أنه لا يوجد أمام الإسرائيلي سوى الحرب المستمرة. ومن أهم ممثلي هذه الرؤية موشيه ديان وهو من جيل الصابرا الذي نشأ على الأرض العربية وعرف العربي عن قرب. ومن أهم المفكرين الاستراتيجيين الذين تكسّم رؤيتهم بالإدراك الواضح وبالحنف والشراسة شلومو أرونسون الذي تبا بما يسميه حرب المائة عام بين إسرائيل والعرب. وهؤلاء الإسرائيليون يشبهون في كثير من الوجوه شاريت وبن جوريون وجايونسكي حيث يترجم الإدراك نفسه لا إلى تعديل للرؤية إنما إلى تعميق الاحساس بعدم الأمن الذي يترجم نفسه بدوره إلى مزيد من الضراوة.

القصور الإدراكي

بعد هذا العرض السريع للطيف الإدراكي (الصهيوني/الإسرائيلي) تجاه العرب وبعد أن عرضنا لإشكالية العربي الحقيقي وأثره على السلوك الصهيوني، قد يكون من المفيد أن نحاول أن نشخص موطن الخلل أو القصور الأساسي في هذا الإدراك وثمة حلل وقصور ولا شك، وإلا لم نسر حالة الصراع الدائمة التي استمرت إلى مايزيد عن مائة عام، والأخلة في التصاعد والتي لا توجد أية مؤشرات على إمكانية انفراجها إلا عن طريق استسلام أحد الطرفين للآخر. وفي

محاولة التوصل إلى طبيعة هذا الخلط منشير إلى مقال نشر عام ١٩٢٢ في مجلة كانت تصدرها جماعة صهيونية «اشنراكية» تسمى «لرفة العمل». وقد حاول كاتب المقال أن يبرر عن رؤيته لمستقبل كيبوتس حين هارود الزاهر الذي كان يجري تشييده آنذاك في وادي جرريل. وقد نخيل كاتب المقال الكيبوتس بعد مائة عام، وتامل ثرائه وإنجازاته الثقافية ومنازلته التي مستشيد على «الطريقة الشرقية». وحلم المؤلف بأنه سيشتيد في وسط الكيبوتس مثالا لرجلين «واحد عربي والآخر يهودي»، جالسين على صخرة ويحملان راية نُقشت عليها ثلاث كلمات: «المساواة والاحوة والحرية»^(١)

إن الصورة الإنسانية المتوحدة التي رسمها المؤلف الصهيوني لكيبوتس المستقبل تتجاهل عدة حقائق

١- لا ننري كيف صور المؤلف الصهيوني ذلك العربي الجالس إلى جوار اليهودي، ولكننا مع هذا يمكننا التعميم فنحن نعرف أن الصهاينة كانوا لا يعترفون بالتشكيل القومي العربي، خاصة داخل فلسطين، ولذا فالعربي الجالس هناك على الصخرة كان شخصية مجردة من حقوقها القومية ودونها المصاري، فرد قد يكون له حقوق مدنية وربما بعض الحقوق السياسية على أكثر تقدير، ولكنه كان عليه أن يشارل عن كثير من حقوقه، ويقتسمها مع اليهودي الذي انقسم به العسرة، وكان لها خمس الحقوق خمس الشرعية وهذا رلا شك حلل إدراكي فالعربي عاش آلاف السنين يبيع هذه الأرض ولا يدع له وطأ غيرها، ولا يمكنه أن يقسم فلسطين مع الصهيوني الجالس إلى جواره، بهذا الأخير جسم غريب غرس عرساً في هذه الأرض بمساعدة الاستعمار الغربي

٢- والصهيوني الجالس على الصخرة إلى جوار العربي، حتى لو كان من كبار المدافعين عن قيم الحق والعدالة، معتصب، موجوده في فلسطين عدوان، وكيفية تـ... بين هارود أسس على أرض غيب سكانها ولنا فهنا الثوري اليهودي... في أرض عبرة وهذه حقيقة لا نحتاج لمنظرين يبارين أو ث... ملك إيطاليا لهرتزل. وإذا كان الصهاينة لم يروا هذه

الحقيقة البديهية فإن ذلك دليل قاطع - وكأننا نحتاج لثل هذا الدليل - على مدى
حلل إدراكهم للواقع .

لا يمكن لمحقق الحلم الصهيوني إلا بتفسيب (العربي أو تهيمته على الأقل ،
غياب العربي هو لمحقق الصهيونية ، وتحقق الصهيونية هو غياب العربي . وهذا
ما عرّفه جابوتنسكي صاحب فكرة الحائط الحديدية ، وتسعه تلميذه بيجن ومعظم
الاسرائيليين . وقد أكد سحن في خطابات له أمام سكان كيبوتس عين هارود ، وبعد
أسببته و«نجاحه» أكد على ضرورة تعيب العربي والتمسك بالرغم بأن فلسطين لا
توحد ، وأنها كانت ولا تزال مستطل إرثس إسرائيل «ولو كانت هذه هي فلسطين
[أرض العربي الحقيقي] وليت أرض إسرائيل [أرض اليهودي الخالص] إحد فأنتم
فأنتم ولستم مراعين يعلحون الأرض ، أنتم إذن غرة إذا كانت هذه فلسطين
[أي إذا اعترفا بوجود العربي الحقيقي ذي الحقوق القومية والسياسية] فهي تنتمي
إذن للشعب الذي عاش هنا قبل أن تأتي إليها . لن يكون لكم حق العيش فيها إلا
إذا كانت هذه هي أرض إسرائيل» (٧) وقد تولى بيجن رئاسة الوزارة فيما بعد ،
ولم نعد نسمع من ماجنيس أو إشتاين وأمثالهما في كتب التاريخ . ولكن البشر لا
يوجدون داخل وعي الآخرين وإدراكهم ، ولذا فهم يرفضون الغياب والتولوي عن
الانظار والنحول إلى كائنات إقتصادية ، ويحملون السلاح دفاعاً عن وجودهم
وعمرهم . ولذا بدلا من النصب التذكاري الذي سلمه المؤلف الصهيوني يرمج
الآن في عين هارود نصب تذكاري شبيه الإسرائيليين للمقتلى للصهاينة الذين
سقطوا في الحروب التي لا تنتهي مع العرب (٨) والتي تسبب بها بن جوريون في
إحدى لحظات الصفاء !

الاعتدال والتطرف الصهيونيان

لعل من أهم النتائج التي خلصنا لها في تقييمنا للإدراك الصهيوني للعرب
انفصال الإدراك عن السلوك ، إذ أن نفس الإدراك لمس الظاهرة (إدراك الصهاينة
للعربي كإنسان حقيقي له حقوق) قد يؤدي إلى أنواع متباينة من السلوك . فإدراك
آحاد همام ويهودا ماجنيس وبن جوريون للعربي الحقيقي قد نجم عنه تذبذب من

جانب الأول، ومحاولات بمثابة للتوفيق بين رؤيتين متناقضتين من جانب الثاني أدت إلى تهميشه هو شخصياً، ومزيد من الشراسة من جانب الثالث. وكما يست من ليل تختلف الاستجابات من فرد لأخر نتيجة لمركب هائل من العوامل النسبية والعصية والتاريخية والسياسية. وقد بينا أن موازين القوى تلعب دوراً هاماً في ترجيح صورة إدراكية على حساب الأخرى، ولذا في غياب القوة العربية وجدنا أن النمط الثالث هو أكثر الأنماط الصهيونية شيوعاً، فهو النمط الذي كان يدرك منطق الرؤية الصهيونية والذي كان يعرف موازين القوى معرفة جيدة. ويمكننا أن نرسم مخططاً متكاملًا لطيف الإدراك الصهيوني في علاقته بموازين القوى

١ - في حالة انجلاء موازين القوى لصالح العرب وصد صالح الصهاينة فإنها تدعم الإدراك الواقعي ويساهم ذلك في تبديد الأوهام الأيديولوجية، وبدأ الإدراك الواقعي في فرض نفسه. وقد يتحول إلى برنامج سياسي يعكس الواقع - أي أنه يتم ترشيد العقل الصهيوني (وفي هذا الإطار قد تتحول الشخصيات الهامشية «المحبوسة» مثل إسرائيل شاهاك وإغيري إلى شخصيات قيادية ويمكن أن تظهر أيضاً قيادات سفارديه على استعداد لتعديل أسطورة الذات الصهيونية).

٢ - في حالة انجلاء موازين القوى لصالح الصهاينة وتجد صالح للعرب. فإنها مستندهم الإدراك الصهيوني المتحيز ويساهم ذلك في أن يتحول الواقع التاريخي إلى شيء هامشي ناهت وتدعم البرنامج السياسي الصهيوني كمرشد للتعامل مع

ويمكن أن نعرض التطرف والاعتدال الصهيونيين في ضوء الاحتمالين السابقين.

فإن ظل العربي الحقيقي مكاناً دون أن يتحدى الرؤية أو موازين القوى أصبح من الممكن قوله كشخصية متحلطة هامشية غائبة، ويصبح من الممكن إظهار التسامح تجاهه، بل و«محوه» بعض الحقوق (وهنا تكمن المفارقة). أما إذا بدأ العربي الحقيقي في التحرك لتأكيد حقوقه ولرفض الهامشية وتحدي الرؤية

الصهيوية وحاول تعيير موارد القوة لصالحه بصيغ مصدر خطر حقيقي وبصيغ من الضروري صريه لتهشيمه وتهميشه وبصيغ التسامح مرفوضا.

هنا لا يعني أننا مسقط أهمية الإدراك من حسابنا وبؤكد موارد القوى وحسب، فالواقع لا يصرح بعه على عقل الإنسان بتشكيل مباشر وإنما من خلال طيف إدراكي وتساهم القوة في تقويض الإدراك أو تدعيمه، فهي علاقة مركبة إلى أقصى حد. ولذا يجب أن نعرف تماماً أننا نعيش في عالم ليس من صنعنا وهو عالم يؤمن بالحواس الخمسة وبكل مايقاس، ولا يعترف كثيراً بالحق أو الخير أو الجمال. ولذا لابد وأن نصمط على حواس أعدائنا الخمسة بكل ما أوتينا من قوة حتى يعرف الآخر أن العرمي الحقيقي لس مجرد صورة هي وجدانه يمكنه تاسيها، وإنما هو قوة واقعية يمكن أن تسبب له خسارة فادحة إن هو تجاهلها أو حاول تهميشها ونهشيمها.

ولعل هنا هو الفصور الأساسي في محاولات التوصل للسلام في إطار كامب ديفيد فقد ظل مهندسو هذه الاتفاقية أنهم على طريق رفع رايات السلام سيمرون صورة للعربي في وهي العالم، وأن هذه الصورة ستخلق دينامية تفرغ على الاسرائيليين أن يصلوا إلى اتفاق عادل أو شبه عادل. ولكن الذي حدث عكس ذلك تماماً فبعد الأسابيع الأولى وبعد أن طويت عدسات التليفزيون الساخنة ظهرت حسابات القوة السارية التي فرضت مطلقها الثلجبي البارد القاسي على الجميع

وقد جاء في مجلة نيورويك الأمريكية أنه بعد أن قبل الرئيس السادات بشروط كامب ديفيد كما فرضها ييجين، طلب تخصيص رفعة ما في القلمس ترفع عليها الأعلام العربية حتى تكون اعيمة أخرى، يعود ليناهي بها، وكان تعليق أحد أعضاء الوفد الاسرائيلي هو أن ترفع الأعلام على المقابر العربية («سلام المقابر الذي لم يرد وایرمان لنمسه»). أما ديان فقال "السادات يريد يقشيش" أي أنه نظر إلى الرئيس السادات من خلال الطيف الإدراكي الصهيوني وحوله إلى إنسان متحلف هامشي، شعاذ ليس له حقوق، يمكن أن «نهبه» شيئاً إن أردت من قبيل

الاعتدال الصهيوني . وقد كان ديان أكثر واقعية من الرئيس السادات، فحسبت القوة الباردة في عالمنا لا تعرف الحق والحقيقة . ولو كان هناك وراء السادات ديانة هربية، تقف شامخة جميلة، لما رأى ديان شحاذاً يقف على عتباته .

ومرة أخرى رغم معرفتي بمنطق القوة لا أكن له حياً ولا احتراماً، ولكني كما قلت في عالم ليس من صنعت، وهو عالم قبيح صُنع أساساً في الحرب في القرن التاسع عشر، وإن أردنا التعامل معه بكفاءة علينا أن نقيمه تقييماً موضوعياً . ومع هذا اعتقد أنه يجب ألا نرفض فكرة الحوار مع الآخر فالآخر موجود الآن في وسطاء ومدجج بالسلاح، ولذا أطالب دائماً بالحوار المسلح - حوار يمكنني من فهم الاسرائيلي الحقيقي ويمكنني من فهم العربي الحقيقي . ولكن الحوار ملون سلاح قد يطرح صورة إدراكية صادقة ولكنها معرضة للشحوب ثم الاحتفاء لأنها تساندنا الصورة . ولذا يجب أن تستند بنية الإدراك لبيئة القوة، وحيث قد يتحول الإدراك إلى فعل فاصل، وتتحول الحقيقة إلى عدل .

(١) نم إقتباسه لي.

عبدالوهاب محمد المسيري، -الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة
في علم اجتماع المعرفة (الكويت، سلسلة عالم المعرفة إصدار المجلس
الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٢-١٩٨٣)، انظر خاصة الفصل
الثاني عشر.

(٢) - بن صير، ص ١٨٢.

(٣) - المصدر نفسه، ص ٢٤٥.

(٤) - المصدر نفسه، ص ٤-٣-٣٢٥.

(٥) - يديعوت أحرونوت ٢ ديسمبر ١٩٧٤

(٦) - روبشتاين، ص ٦٧

(٧) - يديعوت أحرونوت ١٧ أكتوبر ١٩٦٩.

(٨) - روبشتاين، ص ٦٧.

٢- الإدراك الاسرائيلي للدولة الفلسطينية

وصفنا المنصل الإدراكي الصهيوني الاسرائيلي في الدرامات السابقة، وبيننا أن هذا الإدراك يصل لحظة تحفقه النجادية في التغيث الكامل، وهذا هو الحلم الصهيوني في لحظة تحفقه الوهمية وفي حده الأقصى ورغم أنه حلم، إلا أنه يشكل البنية التحتية لكل أفكار ومواقف الصهاينة الأخرى، ولا يمكننا أن نصف الاختلافات والفرقات الأخرى إلا بأخذ هذه النقطة في الاعتبار ويجب التأكيد على أن الأفكار تلعب دوراً أساسياً في تحديد سلوك المستوطن في الجيوب الاستيطانية بشكل يمتد دور الذي تلعبه في تحديد سلوك المواطنين في التشكلات السياسية العادية. ففكره القومية العرسية تحرك الجماهير العرسية وفكره القومية اليونانية تحرك الجماهير اليونانية، ولكن القومية العرسية ليست مجرد فكرة أو مشروع قد يفشل أو ينجح، وإنما هو واقع تاريخي تمت ترجمته نفسه إلى مؤسسات وراث، ولم يعد من الممكن وضع وجوده ذاته موضع تساؤل كما أن العرسيين لبوا مهددين بشعب آخر كان يشعل أرضهم ولا بتاريخ آخر كان يشعل الحبر العرسماني في وطنهم، وبالتالي تكون فكرة القومية بالنسبة لهم مجرد تعبير عن واقع قائم راسخ، متعين مركب. أما بالنسبة للجيوب الاستيطانية فهي عادةً ١٠٠ إلى فكرة هي في الواقع كتابة تاريخية كبرى لآل، السكالك الأصليين غير موجودين)، وهذه الفكرة ليست واقعاً قائماً وإنما إطاراً عقلياً وعاطفياً. ولنا نجد أن هذه الفكرة (الحلم العوم) تلعب دوراً حيوياً في تحديد علاقة المستوطن مع واقع، بل ويجدها في كثير من الأحيان نحل محل الحقيقة.

ومع هذا نظل الحقيقة التاريخية قائمة، ويخرج المستضعفون والمغيثون من العباب والقرى وفي بين شقوق الأرض فيظهرون على شاشات التليفزيون وعلى شاشة الوعي ويقعون في أحلام الظالم الذي ظن أنه قد غيهم وإلى الأبد. فيتخلص للوهم أو يبتدئ ودلاً من العربي المعب يلبأ بعض المستوطنين بالحديث عن إمكانية التمايش مع السكالك الأصليين مع إسقاطهم حق تقرير المصير المحدود.

وبترديد الضغط، قد تظهر قطاعات توسع من نطاق هذه الحدود، فيتحدثون عن حق تقرير المصير الكامل، ولكن المشروط بنزع السلاح، وهناك من يقبل بدولتين متساويتين في السيادة القومية وهكذا. وهناك أخيراً (كما أسلفنا) من يصل إلى تقبل العرب الحقيقي ويدرك تماماً أن تاريخ فلسطين إنما هو تاريخ عربي، وهو في هذه الحالة يخرج على المشروع الصهيوني ذاته ويصبح معادياً للصهيوية، رافضاً لها.

الحد الأقصى الصهيوني

ولمحاوّل الآن دراسة نماذج من التفكير السياسي الإسرائيلي بخصوص فكرة الدولة الفلسطينية، هنا سنجد أفكاراً متضاربة عديدة واقتراحات لا حصر لها ولا عدد تقع على درجات مختلفة من المتصل الإدراكي الذي اقترحنه وتبسيط الصورة حتى يمكن تناولها بشيء من التحليل سنقسم المواقف إلى ثلاث يقترّب أولها من الحد الأقصى الصهيوني أي تعيب العرب ويكاد يلتصق به، ويتعد ثنائياً عنه حتى يبدو وكأنه نقيض، ويقف ثنائياً في نقطة اعتبارية متوسطة بينهما وقد احترما شموئيل كاتس - أحد مؤسسي حركة حيروت والذي شغل منصب مستشار رئيس الوزراء مناحم بييجون عام ١٩٧٨ كممثل للنموذج الأول^(١). وليعبر كاتس من وجهة نظره، من ١٤ ذات بن جوريون الذي يشير فيها إلى «تاريخ اليهود» وإلى «بلاد اسمها يهودا وهي التي سميها أرض إسرائيل» إن هذه البلاد جعلت ما شعباً، وشعبنا خلق هذه البلاد. ويضيف كاتس: «إحلال مئات المئات الذين هذه التي تحللتها عمليات قتل وطرّد وتمير ومستوى معيشي سيء لم يتأثر الوجود اليهودي في فلسطين ولم يتخلل اليهود عن عاداتهم وتقاليدهم»

وإحلال هذه العترة «لم يتأثر التراث اليهودي كما لم تتأثر الثقافة اليهودية أي اللغة العبرية التي بدء استعمالها في القرن العاشر في طبرية». ونحن لن نحاول تعقيد هذه الأفكار الصيبانية أو الرد عليها فهي من النماذج بحيث لا يصح أن يشمل المرء بها إلا بمقدار كونها مؤشراً على حدود صاحبها الإدراكية وكاتس لا يرى

سوى حضور يهودى كامل ولهايت عبر التاريخ يقابله غياب هريسي كامل. ويقتبس كلمات كاتب أمريكي، هو مارك توين، الذى زار فلسطين سائحا، للدلالة على رأيه وكان مارك توين هو أحد كبار مؤرخي المنطقة العربية: «لقد وجدنا البلاد خالية تماما (عام ١٨٦٧) لا أثر للحياة فيها. . . ولم نجد فى الطريق أية روح حية، وكانت أرضهم إسرائيل أرضا جرداء وكأنها لا تنتمى إلى هذا العالم».

ويستمر شموئيل كساتل فى التفتيش فينكر حتى وجود العرب ككل، أما البشر الذين وجدوا فى فلسطين هؤلاء مهاجرون من البلاد المجاورة (عناصر متحركة يمكن تحريكها مرة أخرى). ولذا هؤلاء الذين يطالبون بأرض إسرائيل ليسوا سوى مدعين عرب وإرهابيين فلسطينيين. وهو يحتم مقاله عبارة تصل إلى البنية التحتية لكل الأفكار الصهيونية «إذا انتصر العرب فى الحرب فإن الدمار سيطحق شعب إسرائيل كله، أما إذا انتصرت إسرائيل فسيكون على العرب الوضوح للأمر الواقع وتقبل إسرائيل».

وبلاحظ أن حل الصراع العربى - الصهيونى من المنظور الاسرائيلى لا يتم إلا من خلال الصراع المسلح - الانتصار أو الهزيمة والخضوع للشروط الاسرائيلية وللسلام على الطريقة الاسرائيلية.

الاعتدال الاسرائيلى

أما النموذج الثالث فيمثله مير بميل وهو من نشيطى مايم، ومن المنادين بالصهيونية ذات الدعاية اليسارية وأطروحاته العقائدية وإطاره التاريخى لا يختلفان عن أطروحات وإطار كاتس، فهو يعرف الحركة الصهيونية بأنها حركة تحرر وطنى، أى حركة تنصيب للعلسطينيين وقد امتازت الصهيونية «بأنها ضمت يهودا من مختلف الاتجاهات والميول الذين رأوا بأعينهم هدفا مشتركا وهو جمع شتات الشعب اليهودى وبناء أمة يهودية متجددة على أساس العمل العبرى فى أرض إسرائيل». فبميل يطلق إذا من الإيمان بأن للشعب اليهودى حقوقا تاريخية كاملة

في أرض إسرائيل ثم يفسر بعيل وجود الشعب الفلسطيني في أرض فلسطين على أساس صهيوني. «فلولا قيام الحركة الصهيونية لما ظهر القمع الفلسطيني التابع للحركة القومية العربية. ويمكن الاعتقاد بأن مسجىء اليهود إلى أرض إسرائيل واستيطانهم فيها كان هو الحافز الذي أدى إلى نشوء الكيان الفلسطيني» بل إنه يؤكد أنه «من الصعب أن نشعر اليوم كيف كانت تبدو الأوضاع في أرض إسرائيل لو لم يتحقق فيها الفكر الصهيوني»

فوجود الفلسطينيين - حسب تصوره - عرَضِي، ولكنه - وها مصدر الاختلاف بينه وبين كاتس - ليس بالضرورة زائل، فهو يرى أن بعض الصهاينة قد اعترفوا بحقوق الشعب الفلسطيني «بصعته يمتلك حقوقاً طبيعية في بلاده». ولا يدري ما هو الفارق بين حقوق اليهود التاريخية وحقوق العرب الطبيعية، ولكن ما يهمنا في سياق هذا المقال أن ثمة اعترافاً ما بوجود العرب وبحقوقهم. وهذا الاعتراف تابع من خوف عميق أن العنصر الفلسطيني داخل الدولة الصهيونية يهدد هويتها اليهودية ويهدد الطبيعة الإحلالية للكيان الصهيوني، بل إن بعيل يطرح السيناريو التالي. «هناك مخاوف من أنه إذا استمرت سيطرة إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة سوف تشند حركة المقاومة الفلسطينية للاحتلال الاسرائيلي، لتصل حامي المقاومة إلى العرب الاسرائيليين المقيمين في اثنى عشر المصير وفي الجليل بحيث يطلب حرب إسرائيل بعد جيل أو جيلين الانضمام إلى المطالبين بحق تقرير المصير للفلسطينيين».

ولكن كيف يمكن التصدي لهذا التيار ولتلك الحمى؟ يرى بعيل «أن ذلك يتم من خلال إقامة دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل. وكلما سارعت إسرائيل في تقديم مبادرة السلام المقترحة للشعب الفلسطيني كلما كان أفضل لها» ثم يأتي بعد ذلك بحشد هائل من التفاصيل عن الجمارك والكهرباء وعن ارتباط الدولة الجديدة بالأردن، لذا لابد وأن تولد الدولة مقيدة، ليس لها من الدولة غير الاسم

أرض في مقابل السلام

ويمكننا اختيار شلومو اميري كمثال على النموذج الثاني. وافنيري من كبار المفكرين الاسرائيليين وشغل منصب مدير عام وزارة الخارجية في حكومة العمال بين عامي ٧٦ - ١٩٧٧. وهو يتحدث أيضا عن أرض إسرائيل ذات التراث اليهودي المجيد ولأرض الخلاص بالنسبة لليهود والصهيونية هي الحركة القومية اليهودية التي ستقوم بعملية الخلاص هذه (وهو في واقع الامر تحليل الأرض وتغيير أصحابها الأصليين، أي العرب). وهو يرى أن المطالب الصهيونية في كافة مناطق أرض إسرائيل مطالب عادلة، ولكن الحركة الصهيونية رضخت لقرار التقسيم لأن «أحدا في العالم لم يكن يزيد المطالب اليهودية». ثم يضيف إلى هذا ديباجات أخلاقية عن «أن الصهيونية تجهد معنوية في المطالبة بحق تقرير المصير لنفسها، ومعارضة منح هذا الحق لعنة سكانية أخرى». ويسمى افنيري نفسه بأنه من أتباع الصهيونية السوسيولوجية (في مقابل صهيونية الأراضي) وصهيونته نهتم بالطابع اليهودي للدولة، أما صهيونية كاتس فهي تركز اهتمامها على ضم الأراضي، ومن هنا حديث «المعتدلين» عن الأرض في مقابل السلام ولكن مهما كاتب الأسباب (الضغوط الدولية أم عذاب الضمير الصهيوني أم الخوف على الطابع اليهودي للدولة) فإن افنيري يطرح الحل التالي الذي يسميه حلاً وسطاً - «لا دولة إسرائيل الكاملة ولا دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة، بل استبعاد بعيد الأثر لقبول الحل الوسط في إطار حل فوري - فلسطيني». ولعل هذه النماذج الثلاث تعطي كل الاتجاهات السياسية الاسرائيلية تجاه الدولة، مع اختلاف طفيف في الدباحات، فحوش إيمونيم والليكود يتسميان للنموذج الأول بينما تنتمي بعض الأحزاب الصغيرة الليبرالية وما يابام للنموذج الثالث، وينتمي المراح/للمنموذج الثاني.

خصوصية الإدراك الإسرائيلي

بعد أن رسمنا خريطة الإدراك الإسرائيلي لفكرة الدولة الفلسطينية وارتباطها بروية الذات ورؤية الآخر لابد وأن نوضح بعض النقاط الأساسية، كمحاولة لتوضيح المزيد من الأبعاد الخصوصية:

١ - يلاحظ أن جميع الصيغ الصهيونية، المتطرفة منها والمعتدلة، اليميني منها واليساري، لا يتوجه البتة لمقضية الفلسطينيين الذين طُردوا عام ١٩٤٨ واستوطنوا سوريا ولبنان والأردن ومصر واثحاء أخرى متفرقة من أنحاء العالم العربي، وهو لا يذكر بتاتاً قضية الفلسطينيين الذين يطالبون بحقوقهم في حيفا ويافا وعكا وكل بقعة في أرض فلسطين المحتلة والذين صدر قرار من هيئة الأمم لتأكيد حقوقهم في العودة إلى ديارهم أو التعويض لمن لا يريد العودة.

٢ - لا يتحدث الصهاينة البتة عن الأراضي خلف الخط الأخضر التي خصصها قرار التقسيم للفلسطينيين مثل الخليل وغيرها من المناطق. وهكذا حول الخطاب الصهيوني الخط الأخضر إلى مطلق صهيوني جديد لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من حلمه، وعلينا الرضوخ والقبول. وهذا أيضاً أمر منطقي ومعهوم، فالمتفاوض بشأن الأراضي فيما وراء الخط الأخضر ويشان حق العرب في السكنى في فلسطين المحتلة قبل ١٩٤٨ هو في واقع الأمر تفاوض بشأن فك الكيان الصهيوني. وعلينا أن نعي ذلك تماماً، فعلينا بعيه وإن كان لا يتحدث عنه.

٣ - يلاحظ أن كل الحلول مبنية على فكرة القسر والرضوخ، وأن أحد الأطراف سيفطر الطرف الآخر للتسليم بوجهة نظره. فالصهاينة يرون أن رؤيتهم للتوزيع هي الرؤية الوحيدة السليمة التي لا يمكن التراجع عنها على مستوى العقيدة حتى لو تم التراجع عنها على مستوى الإجراءات البرجماتية. وقد لحص ذلك الموقف أهارون ياريف بقوله: «الصهيونية هي حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي...»

اصطدمت بالحركة القومية العربية هامة والحركة القومية الفلسطينية خاصة. ولكنه بضيف: «إن أقوالى هذه لا تنطوى على تنازل أو استعداد للتنازل عما يعتبره حقنا التاريخى فى إرثنا إسرائيل وفى علاقتنا التاريخية بها» هذا الموقف المبدئى السائد فى صفوف الجميع يخلق استعداداً كاملاً دائماً لدى كل الصهيونية، مهما كان موقعهم على خريطة المتصل الإدراكى السياسى، أن يرلقوا دائماً نحو تعيير العرب وإنكار حقهم فى إنشاء دولة حقيقية خاصة بهم إن سنحت الظروف، كما أنه يضمن صيغة الشرعية على موقف دعاء إسرائيل الكبرى. فالأصل فى الموقف الصهيونى هو ابتلاع كل الأرض وتغيب كل العرب، والاستثناء هو المرونة والاستعداد للتفاوض بشأن الأرض خارج الخط الأحمر وبشأن الفلسطينيين خارجه. ولعل هذا يفسر كيف أن الاستيطان الصهيونى فى الضفة العربية قد بدأ إبان حكم العمال المعتدلين وأنهم اعتمدوا ملايين الدولارات لإنشاء مستوطنات هناك فى نفس الأرض التى بدأ بيريز بالإعلان عن استعداده للتنازل عنها فى مقابل السلام.

٤ - لابد وأن نحدد خصوصية علاقة الإدراك الاسرائيلى للفلسطينيين وللمعركة الدولة الفلسطينية بالسلوك الاسرائيلى، وهى علاقة مركبة لأقصى حد، نحلف عن علاقة إدراك العرب، للدولة الصهيونية وسلوكه نحوها، إذ أن محدثات سلوك العرب نحو الدولة الصهيونية مختلفة عن محدثات سلوك الصهيونى نحو الدولة الفلسطينية؛

أ - ومن أهم العناصر التى يجب ذكرها ابتداءً أن الحركة الصهيونية منذ مشائها حركة تفتقد إلى الجماهير، فهى رأس دون جسد، ورؤية دون تجسد، وهذا يعود لأسباب تاريخية عديدة من أهمها أن الجماهير اليهودية فى شرق أوروبا أثرت الهجرة إلى الولايات المتحدة على الهجرة إلى فلسطين.

ولا نزال الحركة الصهيونية حتى الآن تعانى من هذه الظاهرة التى يعبرون عنها بعبارة «نصوب المصادر البشرية» ولكن ما بهما فى هذا السياق أنه

بعبارة الجماهير كان المنظرين الصهيونية يحددون أطروحاتهم النظرية دون أحد الواقع التاريخي (سواء واقع الجماعات اليهودية في العالم أو واقع فلسطين) في الاعتبار فوجد هرتزل يسجل عبارة «من النيل إلى الفرات» في مذكراته. ولكنه في اليوم التالي يقبل بالتنازل عنها، ويرضى بصيغة برجمانية «كلما زاد عدد المهاجرين تزداد رقعة الأرض التي نستولي عليها». ثم لم يكن عنده مانع من الانتقال إلى شرق أفريقيا بل أن يورى اميرى يرى أن التوسعية الصهيونية لم تعد مرتبطة بأي إدراك صهيوني أو محطط رهيب أو غير رهيب، وإنما أصبحت مرتبطة بقوة إسرائيل الذاتية وبما يُطلب منها من القوة الاستعمارية التي ترعاها. فما يحدد سلوك الصهيونية ليس إدراكهم أو رؤيتهم وحسب وإنما أيضاً وبالدرجة الأولى قدرتهم الذاتية المستمدة من الدعم الإمبريالي، ويمكن أن يصيف ومدى قوة أو ضعف العرب

ب - اعتمدت الحركة الصهيونية ثم الدولة الصهيونية على دولة عظمى تضمن لها البقاء وتحقق لها الأمن نظير أن تقوم الدولة الصهيونية على رعاية مصالحها في الشرق الأوسط. وقد ازداد اعتماد الدولة الصهيونية على الولايات المتحدة لدرجة غير عادية، حتى أنه يمكن القول أن الولايات المتحدة أصبحت طرفاً في العقد الاجتماعي الذي يسد إليه النجم الصهيوني. هذا يعني أن الإدراك الصهيوني للدولة الفلسطينية ليس هو العنصر الوحيد الذي يحدد سلوك الصهيونية، فالولايات المتحدة، التي تقع خارج نطاق هذا الإدراك، تحدد سلوك الصهيونية بشكل قد يكون أكثر فعالية من الإدراك ذاته.

لكل ما تقدم يجب أن نكون في منتهى الحذر حين نرصد التفسيرات التي تدخل على الإدراك الصهيوني لفكرة الدولة الفلسطينية. فما يقال له تشدداً قد لا يكون تشدداً على الإطلاق، وما يسمى بالاعتدال قد لا يكون إلا تعبيراً عن الثقة بالنفس والصلف. بل إنني أعتقد أن تصاعد الضغط العربي على الحبيب الصهيوني سيؤدي

إلى التشدد في نهاية الأمر، هذه هي طبيعة المجتمعات التي تستند إلى رؤية فاشية، فهي تزداد صلابة وتركزاً ومحجراً مع تزايد ضغط التاريخ على الأسطورة. ولكن هذا التشدد في حد ذاته قد يكون مؤثراً على تزايد التوترات داخل الكيان، وبالتالي احتمال ترشيده أو ترشيده بعض القطاعات داخله. والعكس صحيح، حينما يركن العرب لعلوم ويخلدون للراحة ويظهرون استعداداً للمسرونة والامتثال للسلام بالشروط الصهيونية فإن العدو على استعداد لأن يمنحنا بعض الحقوق المدنية ويظهر تفهماً لبعض المطالبات العادلة مثل حرية لعب كرة السلة أو كرة الطاولة أو أية كرة شاء داخل ملاعب حرة مستقلة تابعة لبلديات فلسطين لا محال لها ولا أنظار.

فالاعتدال الصهيوني قد يكون مؤشراً على التخادل العربي، إذ لا يمكن الاعتدال مع العربي الحقيقي، أما هذا الكم الهامشي المهمل الذي يقف على عتبات العدو يطلب منه العفوان والرضا، ويتحدث عن سماعه بأخبارها المثل الأعلى، في حالة هي أقرب إلى الحجاب منها إلى الحضور، فهذا يمكن ممارسة التسامح والاعتدال معه.

(١) كل النصوص مستقاة من كتاب هل يوجد حل للقضية الفلسطينية؟ الذي أعدته معهد فريتلير في إسرائيل، وشركه دكتور الجليل ترجمته في عمان (الأردن) ١٩٨٦.

٢- الإدراك الإسرائيلي للانتفاضة

في الفصل الأولي لهذا الكتاب حاولت تقديم خريطة الإسراييليين الإدراكية للحرب وتأخذ هذه الخريطة - كما أسلفنا- شكل طيف إدراكي يبدأ بالعربي الحقيقي الذي يزرع ويحصد ويقاتل ويخلق أشكالاً حضارية. ثم تتحرك الخريطة نحو درجات متزايدة من التجريد ابتداء من العربي المتخلف إلى العربي ممثلاً للاغيار مشتبهاً عن كل ما حاق باليهود من مآسى ووصولاً إلى محاولة تهيمش (ومن ثم تهشيم) العربي، وفي نهاية الأمر تقييبه تماماً - عملاً بالمقولة الاستيطانية الإحلالية: أرض بلا شعب. وكما يرى الفارئ لم أقنع باستيراد مقولات العنصرية الغربية الإدراكية وطبعتها على الصهيونية ولم أحاول أن أدلل على أنها «عنصرية» وحسب، وإنما حاولت أن أصرخ مصطلحات عديدة تماثل مع ما أسميه «التخني الخاص للظاهرة»، أي سماتها الخاصة المتعينة كما أدركها وكما أحبرها لا كما يتفق مع إدراك عمومي مجرد. والظاهرة التي أمامنا ليست ظاهرة استعمارية وحسب ولا حتى استيطانية وحسب وإنما هي أيضاً ظاهرة إحلالية تستخدم اعتذاريات أو ديباجات يهودية ومجموعة المصطلحات التي استعملتها في دراستي الأنفة يمكنها التعبير عن استعمارية الصهيونية واستيطانياتها وإحلاليتها، وعن مراصمها اليهودية أيضاً وعن كيف يهبر كل هذا من نفسه في إستراتيجيات إدراكية واضحة

الحجارة والإدراك

وإذا ما حاولنا أن نرصد استجابة المستوطنين الصهيانية للانتفاضة لقابلنا مرة أخرى النموذج المعرفي العربي الذي يعبر عن نفسه في هيكل المصطلحات، ولوجدنا أن هناك مقولتين اثنتين وحسب - الاعتدال والتشدد واللذان يشار لهما بالحمائم والصقور. وهذه طريقة متعسفة للغاية للرصد، ولعلها تعود إلى تبسيطات النموذج المادي الإدراكي الذي يحول الإنسان المركب إلى مادة بسيطة ثم ينظر لها من الخارج كما لو كانت مجرد حركة دون دوافع أو وعى، ولعل التصنيفات المادية

إلى تصنيف الواقع بأسره إلى سالب وموجب . وقد قام أحد كبار المعلقين السياسيين العرب بكتابة مجموعة من المقالات عن أثر الانتفاضة على المستوطنين الصهاينة، فقام بحصر عدد المصابين في المستشفيات والجرحى وكمية الأحجار المستخدمة، وكان هذا هو «الأثر» الذي أحدثته الانتفاضة، مع أنه في دراسة هذه لم يزد عن تسجيل واقعة إلقاء الحجارة في شكلها الخارجي كحجر يخرج من يد عربي ويستقر على رأس إسرائيلي ، دون أن يذكر ماذا حدث للعربي (من إحساس بالانتصار) وكيف استجاب المستوطن الصهيوني لهذه الواقعة . وهي استجابة يمكن أن تأخذ شكل تشدد أو اعتدال أو تشدد على يحيى اعتدالاً فعلياً أو خوفاً يدفعه للفرار أو رفضاً لاستيعاب الموقف . فالحجر فعلى لا يحطد استجابة المصاب وإنما يحدد مركب من العناصر النفسية والتاريخية . إن عدد المصابين الاسرائيليين حقيقة مباشرة مصمته ليس لها دلالات حقيقية في حد ذاتها . فالإنسان الذي يصاب بحجر في رأسه يمكن أن ينهار ويمكن أن يتحول إلى وحش كاسر ويمكن أن يتألم شيئاً من الحكمة والرشد حينما يرتطم الحجر برأسه . ومن الصعب أن يسمي مصطلحان اثنا (حمائم وصقور) في محاولة وصف هذه الاستجابات المتداخلة المعقدة.

حمائم وصقور وطيور إدراكية أخرى

سأحاول توسيع هذا النموذج الإدراكي بما يتفق مع تركيبة الطائفة الصهيونية وأضم للحمائم والصقور الدجاج والسمام (وتوزيعات أخرى) . والحمائم كما يقال مسالمة دئماً، والصقور يفترض فيها أنها عدوانية شرسة . وأما الدجاج فهو - حسب رأي الخبراء - مخصص في الهرب، ويجد السمام في دهن رأسه في القرمال . واعتقد أن السمام هو أكثر أنواع الطيور الإدراكية انتشاراً في المستوطن الصهيوني خاصة بعد الانتفاضة، وإن كان لا يعلم الأمر وجود عدد كبير من الدجاج الذي يتحدث كالصقور، وتوجد قلة نادرة من الحمائم ليس لها وزن كبير (على عكس ما تصوره الاستعارة الشائعة)، وإن كان يوجد عدد كبير من الصقور التي تتحدث

كالحمائم ويقول الدكتور قنبري حفي: إن اليهود الشرقيين مثلاً هم حمائم تود أن تكون صفوراً لتثبت إحلاصها للحمية الحاكمة، الاشتكارية وقد أسقط المعلقون السياسيون كل التدرجات والتداخلات من إدراكنا لأن نموذجهم المعرفي كان قاصراً صادجاً يحوى مقولتين اثنتين تم استيرادهما من علم السياسة الغربي أو من الصحافة العربية التي تتمتع باحترام شديد بينهم، ولذا لم فر الدجاج أو النعام ولا عشرات الطيور الإسرائيلية الأخرى القابعة التي تنظر من يكتشفها ويرصدها، وقد أصبحنا وكأننا نتمى إلى واحد من تلك القبائل البدائية التي لا ترى سوى لوبيين اثنين لأن لعنا لا تضم سوى كلمتين اثنتين للتعبير عن كل الألوان.

حمائم بالقوة

وقد وجهت صحيفة حدائق صوت سؤالاً إلى عدد من الإسرائيليين البارزين الذين يمثلون مختلف الجارات السياسية والثقافية، يقول السؤال ماذا كنت تفعل لو كنت فلسطينياً؟ فجاء رد معظمهم بأنهم كانوا سيفعلون ما يفعله الفلسطينيون الآن، أي الانضمام للاستعصاف بل وأصاف أحدهم أنه «كان سيفعل أكثر من ذلك بعشرة أضعاف، وقبل هذا الوقت بكثير، وكنت سأفعل ذلك في ديرنمورف (أحد شوارع تل أبيب الرئيسية) بدلاً من نابلس فهناك سيكون تأثيره أقوى» وهذا التصريح لا يؤدي بالضرورة إلى سلوك حمائم، فمردوداً كان مذكراً عاماً «العدالة» المطالب العربية، وأن العرب سيثورون حتماً ويقاثلون ضد الصهاينة. ولكن مثل هذا الإدراك لا يؤدي بالضرورة إلى الانحياز للمظلومين انتعصبي، إذ ما يحدد السلوك النهائي ليس الإدراك وحسب - كما أسلفنا - وإنما موازين القوى أيضاً ومجموعة هائلة من العناصر الأخرى المادية والمعنوية فإن كان العربي ضعيفاً خاملًا، فإن إدراك «عدالة» مطالبه قد يؤدي إلى مزيد من الشدد لأن صاحب المطالب العادلة قد يشترك في أية لحظة للحصول عليها، ولذا لا بد من صبره بسيد من حديد قبل أن يصبح قوياً وقبل صوات لأوان وهذا هو موقف بن جوريون وجايوتسكي وشلوملوروسون وغيرهم. ولذا يمكن القول إن المثقفين الإسرائيليين الذي عبروا

من تفهمهم لوضع العرب ليسوا «حمائم بالعمل» وإنما «هم حمائم بالقوة» بالمعنى
الحرفي والعلمي. وهذه الاستجابة الحمائية محصورة في أوساط المثقفين وبعض
الشخصيات السياسية التي ليس لها وزن كبير، ولا اعتقد أنها تؤثر في الرأي العام
الإسرائيلي أو في صنع القرار الإسرائيلي.

الدجاج

أما الدجاج فهو موجود بكثرة والحمد لله، مثل يائيل اسكيد الذي قرر في
صحيفة الحير وساليم بوست (٢٥ يناير ١٩٨٨) أنه «لا يذهب الآن أحد إلى غزة
سوى الحمقى المستوطنين ولا يذهب أحد إلى الضفة إلا بسبب وجيه، سبب
وجيه للغاية «سحق حثثون» وعملية «تدجين» المواطنين على يد جبرالات
الحجارة لا تزال قائمة على قدم وساق. وكما قالت الجيرو ساليم بوست (٨
فبراير ١٩٨٨) إن المستوطنين يسافرون أقل الآن، ولا يتركون الأطفال بمفردهم
ولا يخرجون إلا لأمور ضرورية. وقد صرح أحد الصحفيين في صحيفة
«عاشوت» «إن العائلات اليهودية تشاهد جدلاً حاداً إذا ما أرادت السفر وإذا
ما سافر مستوطن وحده، فهو «معامر» أما إذا اصطحب زوجته وأطفاله، فهو
مجنون».

وتؤكد مستوطنة صهيونية أن طريق المستوطنات قد حمت وحيماء تم حافلة
المستوطنين بجوار محيم عاناتا (الغلسطى) فيها تسرع بطريقة مجنونة لتجاشى
الأحجار. وبدأ المستوطنون يسلبون السناثر ويعلقون المداخل بعد أن كانت
المستوطنة تتمتع بجوانعناحي بهيج «إن الوضع -كما تقول السيدة- محيف»
خاصة وأنها تعرف أن الجيود الإسرائيليين أوقفوا مظاهرة من ٦٠٠ عربى كانت
متجهة نحو المستوطنة «ماذا كان يمكن أن يحدث لنا لو أن الجيود فشلوا في
إيقافهم؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لأطفالنا؟»

بلد كلها حدود

والخاصية «الدجاجة» للمستوطنين تظهر أحياناً في محاولاتهم الظهور بظهور الصقور. سائق الحافلة رقم ٢٥ (من القدس للضفة) يشيد بركابه من المستوطنين الذين لا يهلمون من الحجارة ويجيدون في الاستجابة مهم كما يقول: «يتوقعون الهجوم في أية لحظة، معتادين عليه». وعندما يبدأ الهجوم فهم يتصرفون «كالجنود المدربين، على ما يجب عمله» إذ يبطحون في أرض الحافلة والمصورة الكامنة هنا هي صورة إنسان قلق يتوقع الهجوم ويجيد في الاحتياط (الجير و صاليم پوست ٨ فبراير ١٩٨٨)

ولناخذ المستوطن ليمودي جيبك، كمثال آخر، فهو رجل عجوز، يهودي أرثوذكسي يعمل خياطاً، وهو صقر لاشك فيه يطالب بضرب العرب وتخطيطهم ثم يقول «نحن نفعل ذلك عند الحدود والأمر لا يختلف هنا (في المناطق المحتلة) فتلك حدود، وهذه أيضاً حدود كل البلد حדר» (الهيرالد تريبيون ٦ يناير ١٩٨٨) وإدراك هذا المستوطن العجوز لمسلطين المحتلة كبلد كلها حدود هو إدراك طريف للعناية ببيئته مدى الهلع والإحساس بعدم الأمن.

ومن أيسر الطرق لتحديد استجابة المستوطنين دراسات علماء النفس الإسرائيليين. وقد لاحظ بعض علماء النفس الأمريكيين انتشار ما سموه بأمراض فئساق بين جنود الإسرائيليين - وهو الإحساس بالإحباط لدخولهم في حرب غير كريمة لا معنى لها، لا يمكنهم كسبها أو الانسحاب منها - فيهاجمهم اليمين الإسرائيلي لتفاعمهم ولعدم استحقاقهم لمزيد من العنف، ويهاجمهم يهود العالم وبعض الحماة الإسرائيليين لأنهم يحطمون عظام المتفصين دون أن يطرحوا عليهم الدليل. وقد ذكرت صحيفة هآرتس أن نسبة المستوطنين الصهاينة الذين يرتادون العبادات النفسية قد ارتفع ثلاث أضعاف بسبب القلق الذي أصابهم من جراء استمرار الانتفاضة (الوطن ١ أبريل ١٩٨٨). وقد حُفِد اجتماع في بلدية القدس لمناقشة هذه الظاهرة فأشار مدير إحدى المدارس الثانوية إلى خوف المعلمين من

الوصول إلى مدارسهم "بسبب خوفهم الشديد من تساقط الحجارة على الحافلات وعلى رؤوس الركاب".^١ كما عبر مدير مدرسة آخر عن خوفه من تورب هذا الخوف والمرض النفسى من المعلمين والطلبة ليشمل كافة الصهاينة فى الاراضى المحتلة (الوطن ٤ أبريل ١٩٨٨). وعلى كل ليس من السهل رصد استجابات المستوطنين ومحاوهم بالطريقة التقليدية فقد جاء فى الجيروصايم بوست ان أحد علماء النفس الإسرائيلين صرح أنه بعد ٤ عاماً من الاحتلال لم تظهر أية حالات بين المرضى النفسيين تعبر عن قلقها من العرب، وكان عملية التكبىت كاملة نظراً لأن التهديد العربى كامل، ولا يمكن للجهاز العصبى للمستوطن الصهيونى أن يواجه العربى بشكل مباشر ولو على مستوى اللاوعى. وعلى كل من يجب أن يعترف أنه دجاجة؟ ولنا فم الواضح أن نتائج بحوث الدراسات الإسرائيلية هى نتائج استخلصها الباحثون وجردوها من أقوال المرضى الذين أبى معظمهم أن يعين العرب كمصدر للخوف.

النعام

أن يرفض المرء أن يكون «دجاجة» فهذه مسألة إرادة واعية، ولكن أن يتحول المستوطن إلى نعام فهذا أمر يتسم رغم إرادته، ولا يلاحظها هو وإنما يلاحظها الباحث الذى ينظر إليه من الخارج.

والنعام فى المستوطن الصهيونى، كما أشرنا، كثير، مثل جاباي صاحب مطعم صغير فى مستوطنة يسجاف رثيف الذى أسكت حومه بقوله: «أهم الأشياء الآن أن نوقف العنف من الطرفين وأن نجلس سوياً ونشرب القهوة ونحل مشاكلنا كبشر»، وهو لم يتحدث قط عن طريق التوصل لهذا السلام وكيف سيتمكن الوصول لتسوية ما (الجيروصايم بوست ٢٠ فبراير ١٩٨٨ العدد الدولى). وقد حدد أحد الضباط الإسرائيلين هذا الموقف النعاسى بدقة بالغة حين صرح لصحيفة حداثوث أن اختفاء ظاهرة الانتفاضة الشعبية الفلسطينية يعنى سحرية (أى على طريقة النعام) هو مجرد تمبير عن آمال وأوهام يجب أن يستيقظ منها الإسرائيليون (بدلاً من دفن رؤوسهم فى الرمل أو فى أرض فلسطين).

ولعل هذه المعصاة السحرية توجد في أحد مبادئ حرب الليكود، إذ أن شارون يقول «إن الانتفاضة سوف تنتهي فور وصول الليكود إلى السلطة في نهاية لعام» (الشرق الأوسط «لعبة الخيل بين عسكر إسرائيل وسياسيها» ١٢ يوليو ١٩٨٨). ولكن شارون يعنى بطبيعة الحال حمامات الدم غير السحرية. ولكن حتى لا يصنع معاملة كان عليه أن يقدم لنا الإجراءات، لأن حمامات الدم تؤدي أحياناً إلى تصعيد الانتفاضات والثورات، كما يعرف الأمريكيون عن فيتنام والمصريون عن الجزائر.

وقد وصف دانيال جيمرون إدراك النعماء هذا في مقال في الجيرو ساليم بوست (٦ فبراير ١٩٨٨) بعنوان «لماذا الانسحاب من جانب واحد هو المخرج الوحيد» فقال «إن المثولين [النعماء في مصطلحنا] يظنون أنهم سيحصلون على كل شيء دون مقابل. حدود آمنة، وعمق استراتيجي، وعمالة رخيصة، وسوق مفضولة عليه، وأرض لتدريب الجيش الإسرائيلي، وتجاهل العداوة العربية المستمرة. [لكن] ازدياد التمرد بين العرب وتدهور المجتمع الإسرائيلي الأخلاقي وتآكل وضعه الدولي» يدل على استحالة هذا. وبعد الانتفاضة ترجم إدراك النعماء نفسه إلى تركيز على الجانب النفسى لقمع الانتفاضة كما لو كانت المسألة مجرد إجراءات يتم تنفيذها أو خطوات يتم اتخاذها بحيث نتحول الفضية برمتها إلى مسألة إجرائية (هل الرصاص المطاطي ومدافع المياه كميل بالقضاء على الانتفاضة أم لا) دون التوجه للاستئلة النهائية وقد اشتكى شمعون بيرير من أن الوزارة الإسرائيلية تتحلى بنفس الموقف الذى نسميه بالنعماسى فهي تناقش النقاط الدقيقة الفنية الخاصة بإجراءات الأمن وطريقة التصدي للانتفاضة وتتجاهل تماماً الحلول السياسية اللازمة. وأضاف «فى المستقبل حينما يقرأ أحد محاصر جيلسات الوزارة فإنه لن يصدق عينيه» (النيويورك تايمز ٣١ يناير ١٩٨٨).

وقد كتب ب مايكيل في هارتس (ملحق الجمعة ١٨ ديسمبر ١٩٨٧) مقالاً بعنوان «عيد ميلاد سعيد» وصف فيه بشكل كوميدى إدراك النعماء هذا، فقال: «الحمد لله أصدرت الحكومة بياناً أكدت فيه أنه لا يوجد عصيان مدنى فى

إسرائيل» وقد اقترح الكاتب إصدار قانون باسم «قانون غياب المعصبان» يقضى بمعاينة كل من تسول له نفسه أن يدعى أو يكتب أو حتى أن يلمح بأن هناك عصياناً مدنياً. ولكن مع هذا تبقى مشكلة صعبة وهي - ماذا يحدث هناك إذن في المناطق المحررة من أرض إسرائيل؟ ثم يحاول الكاتب أن يصف الانتفاضة بطريقة كوميدية تفور ما يحدث وتكره في ذات الوقت، أي يقول الشيء وعكسه «ثمة مجموعات من الأطفال المدربين بعناية الذين يعتقدون إلى المبادرة، يتصرفون بتلقائية ويتم توجيههم من الخارج من قبل المنظمات الإرهابية التي لم تنجح في اختراق المناطق؛ بسبب المعركة المستمرة التي خاضتها قوات الأمن ضدهم ولذا يمكن أن تقرر أن هذه المنظمات وحدها وراء هذه الانتفاضة التلقائية، التي تظهر وراءها بوضوح اليد الموجهة والتي يدل وجودها على فشل منظمة التحرير الفلسطينية أن تكسب دعم الجماهير المحلية القانعة بالاحتلال الإسرائيلي لو تركت وشأنها، فالاضطرابات ليست سوى حدث عابر مستمر ولكنها ليست عصياناً مدنياً»

إن إدراك النعاس هو العنصرية الصهيونية مقلوبة حرفياً على رأسها، فالعنصرية الصهيونية تعبير عن الرغبة الصهيونية في إحلال العنصر اليهودي محل العرب. ولذا هم، تهدف إلى، تخييب العرب، ولكن إن عاد العربي بهذا الشعب، وإن ظهر على شاشة الوعي ورغص العياب، فما العمل إذن، وما الحل؟ الحل النعاسي -بطبيعة الحال- أن يدفن المستوطن رأسه في الرمن فيعيب العربي مرة أخرى. ولكن الأمور ليست بهذه البساطة هذه المرة: إذ أن العربي يحسك في يده بحجر -والحجر يؤلم ويحرج وقد يقتل.

الصفور

وإذا انتقلنا إلى الصفور فحدث ولا حرج، فهم كثيرون، فريش الودراء الإسرائيلي صرح (تاييم ٣ يناير ١٩٨٨) بأنه لا توجد قوة في العالم «لا المتظاهرون ولا الإرهابيون ولا الضمط يمكنها أن تمنع إسرائيل من الاستيطان في كل أجزاء

أرض فلسطين، وغشى من الفول أن عملية الاستيطان لا يمكن أن تتم من طريق الحب والإحياء والإقناع الهادئ، فالمغرب ولا شك غير موافقون أن تؤخذ أراضيهم. وقد أصاف شامير (في النيويورك تايمز ٣ أبريل ١٩٨١) : «أما أولئك الذين يقولون: إننا نحس الإسرائيليين خزيًا، وإن قتال مشير القلاقل والقتلة والإرهابيون. أنهم أصحاب الحقوق الحقيقية، فإننا نقول لهم من أعالي هذا الجبل ومنظور آلاف السنين من التاريخ أنهم مجرد جراد بالقياس لنا، وكنتنا يهرف ماذا يفعل بالجراد». فالاستعارة هنا تحوى داخلها مؤشرات نحو الإبادة. وقد صرح رابين (تاييم ٤ يناير ١٩٨٨) بأن إسرائيل لم تستخدم كل أسلحتها بعد وأنها «مستعدة فرض الأمن حتى ولو كان موجعًا». وحسب تجربة الفلسطينيين العرب، نجد أن الأمن الإسرائيلي دائماً موجع. وقد أشار رابين إلى بعض الطرق التي يجب استخدامها لفرض هذا الأمن الموجع. فقد حذر المتخصص أن كل من يتحدى إسرائيل «سيحطم رأسه على صخور هذه القلعة وحيطانها» (النيويورك تايمز ٣ أبريل ١٩٨٨).

وعصرح إسحق مردوخاي «إن قوات الأمن ستستخدم جميع الإجراءات اللازمة من أجل إعادة الأمن إلى مصابه. ولن تتوانى في استعمال جميع الوسائل من أجل تحقيق هذا الهدف». وتلجأ القوات الإسرائيلية لكسر العظام وإطلاق النار وترحيل الأفراد خارج الوطن. بل إن الانداع الصهيوني في القمع بدأ يأخذ أشكالاً جديدة. «هناك ما يسمى «بحظر التجول النشط» (ليل المعصى الطويلة» ليوئيل ماركوس هآرنس ٢٦ يناير ١٩٨٨) ويتلخص في اقتحام المنازل في الظلام أثناء حظر التجول حيث يجري الجنود الصهاينة تفتيشاً عنيفاً داخل البيوت وينهالون بالضرب على رب العائلة والإبن الأكبر.

وقد علل قائد الجيش هذا الأسلوب الجديد في القمع بأنه محاولة لإعادة بث الرعب من الجيش في قلوب الفلسطينيين، فالهدف ليس النظام الخارجى وحسب، وإنما إعادة الثقة الذاتية للجنود، بعد أن أصبحوا أضحوكة طوال أسابيع. ويبدو أن اجتياح لبنان الأخير (عملية القانون والنظام» كما يسميها الإسرائيليون) تهدف إلى

نفس الشيء. فقد وصفت الصناديق بأنها تشكل محاولة من جانب إسرائيل لاستعادة زمام المبادرة بعرض عضلاتها وظهور أنها عادت إلى مسعد السابق. وقال مردوخاي غور: «سيدكر الاجتياح سكان الاراضي المحتلة بأن الجيش ليس مفككاً» (القبس ١٠ مايو ١٩٨٨)، لقد أدرك العدو أنها معركة هوية.

وقد اقترح تسلومو جاريت (رئيس المخابرات السابق) أنه يجب عدم الاكتفاء بهدم منزل الإرهابي كعقوبة، بل يجب هدم كل شيء في محيط قطره ٢٠٠-٤٠٠ متر من منزله (هناك صوت ١٠ يناير ١٩٨٨). أمبا وزهر الاديان وزعيم الحزب الديني «الشفال» فقد أكد أنه يتعين على قوات الشرطة الاسرائيلية إزالة قرية بيتا في قضاء نابلس من على وجه الأرض تماماً وإقامة مستوطنة تحمل اسم الفتاة اليهودية التي قتلت فوق أنقاضها، ويجب أيضاً طرد وإبعاد مئات المواطنين العرب من سكان القرية (الوطن ٢٤ أبريل ١٩٨٨).

وقد أدرك وفاتيل إيتان، عضو الكنيست الحالي، ورئيس أركان القوات المسلحة الإسرائيلية الأسبق بأن الانتفاضة هي الطلقة الأولى في الحرب القادمة، وعلى على دجاجة الجنود الاسرائيليين وكهف يولون الأدبار أمام الأحجار، وكيف ينظر العالم كله لسيرى ذلك المنظر: «وينظر إلى جيش ضعيف وحكومة عمزفة ولا تعمل». وقد قرر إيتان أن يقدم اقتراحاته للقضاء على الانتفاضة، وهي بحسب بكل تبسيطات النماذج المادية العملية: «إذا أشعل العرب إطاراتاً في شارع رئيسي فيتم جر هذا الإطار إلى أقرب بيت في المنطقة من مكان اشتعاله. وحلال ثوانٍ يخرج سكان البيت ويضعونوا الإطارات لأنه سيؤدي إلى حرق بيوتهم إذا لم يفعلوا ذلك». واقترح أن تُصنع السيارات العربية من السير في الشارع المعلق بواسطة حاجز من الحجارة لمدة شهرين. وهذا لا يحتاج جيشاً كاملاً بل شرطيين يفعان على حافة الطريق. وأشار إيتان إلى حقيقة هامة وهو أنه بين عام ١٩٦٧ و١٩٧٧ تم إبعاد (أي تلييب) ٨٠٠ عربي محرض، (أثناء حكم المراح المعتدل) ويجب إبعاد ٤٠٠ - ٥٠٠ محرض، بل وإبعاد أمهاتهم وأبناء عائلاتهم. ولا يوجد أي إنداع قمعي في

اقتراحات إيتان وعلى كل من يود أن يحصل على اقتراحات مماثلة أن يدرس تاريخ الإرهاب النازي وسجد أفكاراً أكثر إبداهاً وأكثر مسهية وأعلى كفاءة، فمفهوم العقاب الجماعي ليس من اختراع الصهاينة وإنما هي ممارسة استعمارية غربية قديمة وتقليد راسخ.

التشدد اللغوي

ويقوم المستوطنون أيضاً في التشدد، فمهم من يرى ضرورة ضم القطاع والضفة تماماً. وكما قالت جريدة هرانكفورتر الجمانية «إن معظم الإسرائيليين مع خط شامير المتشدد»، وإن «هدفهم إنهاء الوجود العربي في فلسطين»، وعندما وقع حادث بيتا (حينما وقعت مستوطنة صهيونية صغيرة صريعة رصاص المستوطنين وأشيع أنها رجمت بالحجارة) طالب المستوطنون اليهود بتدمير قرية بيتا على رؤوس سكانها وتسوية القرية بالأرض. وشطبها نهائياً من الخريطة حتى تكون هبة للغير (القبس ٢٢ أبريل ١٩٨٨). ومن المستوطنين من يرى ضرورة تسمية الحساب مع العرب كما سواء الأمريكيون مع الهنود الحمر، على شرط أن يتم ذلك بعيداً عن خدمات التليفزيون (تايم ٤ أبريل ١٩٨٨).

ونبي إحدى استطلاعات الرأي التي تُنشر في الصحف والمجلات ويطلبها المحللون والمقربون العرب وغير العرب أن ٤٨٪ من الإسرائيليين يرون ضرورة منح العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية و ٣٢٪ غير متأكدين، ولم يوافق سوى ٢٠٪ على إعطائهم الحقوق الكاملة. وكان موقعهم المتشدد هذا نتيجة إدراكهم أنه لو احتفظت إسرائيل بالأراضي المحتلة فإن العرب سيصبحون أغلبية (وهذا إدراك ٧٧٪ بينما لم ير ١٦٪ ذلك). (نيويورك تايمز ٢٥ يناير ١٩٨٨).

لقد اكتسبنا حتى الآن كلمات الصهاينة المتشددة وحسب، ولكن يجب أن نفرق بين الأقوال والأفعال. فالأقوال لا تعبر عن الموقف المتكامل وإنما تعبر عن تشدد الإنسان اللغوي وعن نيته وقصده وعن حالته العقلية - أي عن جزء من كل.

ولدراسة مدى تشدد الاسرائيليين المعلى وفي كليلته، علينا تجاوز النية والغصد والذبيحيات لنرصد عناصر اخرى مركبة تتجاوز إرادة القاتل ذاته، فالتشدد اللفظي، أى الموقف الصقري الكلامي، قد يكون أحياناً بمثابة غطاء لتمطية الموقف الدجائى أو النعاسى المعلى.

نجد مثلاً رغبة إيثان أن يمسح مرور السيارات ويكتفى بجنديين يقفان على ناحية الشارع. هل درس إمكانية إلغاء المحاربة عليهما، وأن الجنديين سيحتاجان إلى فرقة عسكرية كاملة لحمايتهما؟ أما بخصوص ترحيل مئات القهائدات، ألا يحتاج الأمر لأليات معينة وآلة قمعية معينة لأن قاعدة هؤلاء القادة فى حالة استنفار؟ ولكن هذه الأسئلة تفترض أن صاحب الاقتراح عنده الصورة الكلية، والأمر ليس كذلك فالمودج الإدراكى المادى يجزئ مجموعة من الحقائق ويستبعد الحقائق الإنسانية والتاريخ، ولذا يتحول الصقر الهائج من منظور الممارسة إلى نعاس مضحك. نجد مثلاً رغبة هذا المستوطن الذى يود ذبح العرب وإبادتهم بعيداً عن كاميرات التلفزيون، تماماً كما فعل الأمريكان فى تجربة استيطانية كائنة، وهذه هى شهوة الصقور. ومع هذا بعد الشك، نجد أن موقفه هذا يعامى تماماً، فهو يعرف أن التجربة الأمريكية الاستيطانية الإحلالية تمت ابتداء من القرن السابع عشر فى منطقة لم تكن فيها الكثافة السكانية كبيرة، تسكنها عدة «أمم» من اليهود، تسم حضارتهم بعدم التركيب، رغم جمالها ورفقتها، ومن هنا كان من السهل إبادتهم بعيداً عن عين التلمريون الشيطانية. أما هذا المستوطن الصهيونى فقد تمت تجريبته الاستيطانية ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر فى منطقة تعج بالسكان الديس تحيط بهم ملايين من إخوانهم وهم يتمتعون لثراء حضارى قديم مركب وعلاوة على كل هذا أصبح فى وسعهم الآن الجول مع الكاميرا وبكماء غير عادية، فالتشدد هنا هو من قبيل ما يمكن تسميته بالعادة السرية السياسية، والحلم بالمستحيل اللديد.

أما الذى يود إعطاء العرب حقوق مواطنين من الدرجة الثانية رغم إدراكه أنهم أغلبية فهو لم يبين كيف يمكن تحقيق ذلك، ولعله لو طرح عليه عدة أسئلة اخرى لظهرت التناقضات النعاسية الكامنة.

ويجب أيضاً أن نرى التشدد باعتباره تصبيراً من أزمة حقيقية وعميقة،
فالصهاينة- كما أسلفنا- على استعداد لإظهار قدر كبير من التسامح حيال العرب
إذا قبل هذا بالتطبيع وبأن يكون قطعة حيار للصهيوني يمكنه استخدامها وتوظيفها
لصالحه. حيثئذ يمكن أن يمحى العرب كثيراً من الحقوق المدنية وبعض الحقوق
السياسية ويمكنه أن يلعب ما شاء من تنس الطاولة، أي أن يمارس هوايته إذا كان
بلا هوية.

إن غاب العربي، وإن قنع وحسب أي لم يتحد الشرعية الصهيونية، فبوسع
الصهيوني أن يتحد موقفاً معتدلاً تجاه دجاج عربي متأنس تم تطيعه، أما إذا تحول
العربي إلى صقر ذي هوية يهاجم دفاعاً عنها فإن الاعتدال يحصى ويتخلى العلو
عن ديمقراطيته العربية المزعومة، ويضرب بيد من حديد، فالتشدد من هذا المنظور
له مدلولات تختلف عما تود وسائل الإعلام الغربية نقله لنا

الشخصية القومية الإسرائيلية

مع هذا نرى أنه من الضروري أن نحكم على التشدد الإسرائيلي في إطار
أوسع بحيث نستخدم مؤشرات أخرى مثل نسبة التزوج كمؤشر على الترانس.
فالمستوطن الذي يصبح ويطلب بإهلاك العرب ثم يجري للسعادة الأمريكية في
اليوم التالي ليحصل على نائيرة هجرة، هو في واقع الأمر دجاجة في ريش
الصفور. وقد انتشرت زوجتي إلى أن عزوف الإسرائيليين عن الإنجاب يصلح أيضاً
كمؤشر آخر على مدى التشدد والتراخي، فإذا كانت المعركة «معركة بقاء» كما
يقول الصهاينة، وأنا أوافقهم الرأي، فإن من ينجب أكثر هو صاحب العزم
والعزيمة. ولينظر من يشاء للنساء الإسرائيليات وللمرأة الفلسطينية «النفوس» التي
تنجب الأطفال فتدخل للفرحة على قلبى وتدخل الكآبة على قلب الحسود.

ويمكننا أيضاً أن نستخدم مؤشرات أكثر مباشرة إلى المستوطنين «الذين توقعوا
عن إصلاح منازلهم أو توسيعها أو زراعة حدائقها لأن المستقبل لم يعد مؤكداً كما
كان من قبل». (الأهرام ٢ فبراير ١٩٨٨ عبدالمعظم حماد ومحمد الجناري
«انتفاضة الحجارة»).

إن التشدد إذن يصرف إلى الصياغة اللفظية وحسب ولا يصلح كمؤشر على كل السلوك، فهو دال دون مدلول، أو دال جزلي وحسب. وهنا هل يمكننا القول -على طريقة علماء «الشخصية القومية»- إن تشدد الإسرائيليين الملتصقي هذا ينم عن حبهم للألفاظ وأنهم يطربون للغة، وأن لعتهم -لأنها لغة قديمة متحجرة- تفرض عليهم صيغاً لفظية لا تعبر بالضرورة عن حقيقة موقفهم؟ وأنا لست من المتحمسين لفضية دراسة الشخصية القومية هذه (خاصة وأنها استحدثت كمصا لضرب الإنسان العربي في العقود السابقة)، إذ أنني أرى أن سمات الإنسان القومية، إن وجدت وتم تعريفها، وهذه مسألة ليست مستحيلة ولكنها في غاية الصعوبة، فإنها عبارة عن سمات محايدة يمكن توظيفها للنهوض أو للتكوص، للخير أو للشر، وهي سمات لا تؤدي إلى هذا الموقف أو ذاك بشكل حتمي فالسمات في حد ذاتها لا تصلح كنموذج تفسيري لسلوك الإنسان، وإنما كمؤشر على استعداد كامن قد يتحقق وقد لا يتحقق. وأعتقد أن نفس الشيء ينطبق على الإسرائيليين، فلا يمكن القول أن الإسرائيليين شجاع بطبيعتهم أو أن اليهودي طماع بطبيعتهم وهكذا.

الإحساس بالدولة

وسع جدا نجد أن من أهم الاستجابات للاستغاثة تلك التي حاولت أن تروجه النقد للشخصية القومية الإسرائيلية، وكأنهم يقولون لقد فشلنا في ترويتها. وقد تناولت في مكان آخر فكرة انتقاد السلطة، وهي أن اليهود عبر التاريخ لم يمارسوا قط السلطة السياسية وقد بحث المؤلفون الإسرائيليون مرة أخرى هذه المسألة وبدأوا في انتقاد شخصيتهم القومية من هذا المنظور، باعتبارها شخصية تنفد إلى «الإحساس بالدولة» وعلم القلوة على استخدام السلطة. ومن أهم الشخصيات التي ذكرت هذا الموضوع عدة مرات هو إسرائيل هاريل، رئيس مجلس المستوطنات في الضفة الغربية والقطاع ورئيس مجلة نيكودا، لسان حال المستوطنين- فقد قال (في مجلة نيوزويك ١٥ فبراير ١٩٨٨) إن الإسرائيليين يتصرفون كاليهود الألمان في

الكريستال سايت أى ليلة الكريستال (التي قام النازيون فيها بمهاجمة ممتلكات يهود ألمانيا ونحطيمها) «فالإنجازات فى كل مكان بأن الكارثة معدقة، ولكننا أصبنا بالشك». وقد أشار إلى ما سماه الخلل الأساسى فى الشخصية القومية، فالإسرائيليون - حسب تصور- يعترفون إلى الإحساس بأنهم يشكلون دولة. ثم عقد مقارنة بينهم وبين الشعوب الأخرى فقال «فى أوروبا أو فى أى مكان آخر لا يمكن التنازل عن المطالبة بأرض لأن شعباً آخر يعيش فيها». (الجيرو ساليم بوست، إبراهيم رابوفتش «سحب فوق السامرة» ٣٠ يناير ١٩٨٨)

وقد كرر يحرقتيل دور نفس الفكرة تقريباً فى الجيرو ساليم بوست (٢ فبراير ١٩٨٨) إذ أكد أن «الشعب اليهودى» يقتصر إلى تقاليد الدولة، أى عارضة الحكم، ويرى بعض المؤرخين أن هذه عقبة كأداء فى بناء دولة إسرائيل، مما يدل على أنها إشكالية حقيقية بدأت تطل برأسها.

ومن أهم الشخصيات التى تحصصت فى الشخصية القومية العربية وبين مدى قصورها وعمل مستشاراً للحكومة الإسرائيلية لى الشئون العربية بهوشافط هركابى، ويتميز موازين القوى نجد أنه حول مسطع الجراح للشخصية القومية الإسرائيلية فكرر ما قاله هاريل ودور عن إخفاق الإسرائيليين فى فهم كيف يمكن للدولة أن تحسرف تجاه الدول الأخرى، ونفس هذا الإنفاق على أساس أنه نقطة قصور كامنة فى التقاليد اليهودية (الجيرو ساليم بوست ١٩ فبراير ١٩٨٨).

الإسرائيليون الذاتيون والعرب الموضوعيون

ويذهب دور إلى أنه يمكن تعويض ذلك الافتقار إلى تقاليد الدولة، الذى تعيش فى ظلاله الشخصية الإسرائيلية، عن طريق بذل جهد واسع من جانب الإسرائيليين أن يذكروا من خلال التاريخ (الجيرو ساليم بوست، ٢ فبراير ١٩٨٨)، أى أن الافتقار إلى تقاليد الدولة هو ما كنا سميناه فى أوائل السبعينات ونفس التاريخ أو الحلم بسهابة التاريخ - أى أن يعيش المرء داخل الأسطورة الذاتية التى لا تعكس

الواقع التاريخي بكل جملته ونسخته ويجسده الواقع من خلال أعلامه وأوهامه وحسب. ويبدو أن هركابي هو الآخر يربط بين رفض التاريخ وهذه المسحة في الشخصية القومية الإسرائيلية وإن كان يستخدم مصطلحاً بمعنهما يسمى «إصغاء طابع ذاتي على هاصر التجاح» وهو يرى أن الحركة التصحيحية الصهيونية مصابة بهذا الداء أكثر من غيرها، إذ أن أتباعها كانوا يودون أن يفسروا على الواقع للوصول إلى الدولة ولكنه في مكان آخر من المقال داته يعمم هذه المقولة على كل الصهيانية ويشير إلى أن السعقل الإسرائيلي ككل مصاب بهذا المرض العضال فيقول: «إن مشكلة إسرائيل ليست سياسية دائماً وإنما وراء سياسيه (ميتاسياسيه)، وتكمن في تشوه تفكيرها الاساسي نجسد الوهم، والمقصود في إدراك أن الواقع يتحدد بحدود الممكن، وأن ما هو غير واقعي لا يوجد ولن يوجد، ونجسد الإرادة الطوعية أو الإرادية (Voluntarism) كما لو كانت الإرادة وحدها كافية لتحقيق الأهداف نحن نرفض معطيات الواقع دون أن نترك أن للعلمو إرادة لا بد أن نأخذ في الحسبان، ونصبح سياستنا بشكل مسجرد حسب احتياجات الصهيونية كأننا نعيش في فراغ [الأسطورة المعادية للتاريخ] ونتجاهل النظام العالمي والزمن ومتطلباتها من الآخرين. وكل هذا نابع من صبق أفق يتعارض مع التاريخ anachronistic» هذا الوصف أي «فقدان الارتباط بالواقع» يبدو أنه «كنالوج» جاهز عند هركابي. فقد ذكر في طي نقده للشخصية العربية أشياء من هذا القبيل ولكن للطريف هذه المرة أنه لا يكفي بانتقاد الشخصية الإسرائيلية وإنما يرى أن الشخصية العربية لا يمكنها أن تنفصل في هذه الذاتية المعادية للتاريخ، ويقول: «إن العوامل الموضوعية التي يعبر عنها أعداد العرب الهائلة واتساع أرضهم قد أفقدتهم من الاضطراب للجوء للعناصر الذاتية لضمان النجاح؛ بكل ما يتضمن هذا من تشويه للواقع... إن الانتماء العربي هو دائماً محور التمثيل الرمزي للعناصر الموضوعية التي تضمن نجاحهم» وهذه الأقوال تفصلها مسافة شاسعة عما قاله عتا في أواخر الستينات. لقد تعير إدراك خبير الشخصية القومية العربية مع تغير موازين القوى.

اعراض باركوخيا

هذا الانغماس في الذاتية يعبر عن نفسه - من منظور هركاى - في اتجاه انتحارى بين الاسرائيليين. فالقضية التي تواجههم ليست أن دولتهم ستتحول إلى دولة «أبارتهيد»، (تفرقة لونية) وإنما القضية هي «أنتا لى تكون وحسب»؛ إذا ما استمروا متخلفين في الاسطورة الخاصة. ويضرب هركاى مثلاً مشابهاً وهو ما حدث لليهود إثر التمرد اليهودى الثانى ضد الرومان (١٢٥ - ١٣٦ ميلاديه). فاعضاء هذا التمرد دخلوا الحرب تدفعهم حمى ماشيخانية ترى أن نهاية الأيام (أو التاريخ) وشيكة. وقد أعلن بعض الخاخامات أن باركوخيا زعيم التمرد هو الماشياح (المسيح المخلص اليهودى الموعود). وبدون حساب موازين القوى أو معرفة مدى قوة الرومان أعلن باركوخيا وأتباعه التمرد على روما فتم القضاء عليهم وعلى ثورتهم وعلى البقية الباقية من الوجود اليهودى الهزيل فى فلسطين. ويسمى هركاى مرض الذاتية هذا الذى يؤدي إلى الانتحار، «اعراض باركوخيا» (الجبر وسالم بوست ٤ أبريل ١٩٨٨)، وهو ينصح الاسرائيليين بتغيير هذا الجانب من شخصيتهم القومية.

ولنلاحظ أن سمة قومية مثل الاتجاه الانتحارى كانت نستعمل فى الماضى لتهديدا، والآن نرى واحدة من كبار المفكرين الاسرائيليين أنها فى الواقع نقطة قصور، مما يبين أنها سمة محايدة واعتقد أن ما يسميه هو «الاتجاه الانتحارى» هو ما أسميه أنا «الاتجاه النعاسي»، واعتقد أن الصورة التى استخدمتها أكثر دقة لأنها ليست متطرفة، ولأنها مرتبطة بصور إدراكية أخرى مثل صور الدجاج والنعام والصقور.

وقبل أن نختم هذا الفصل قد يكون من المفيد أن نشير إلى صورة شمشونية انتحارية أخرى، وهى صورة ماسادا. إذ كان يقال لنا أن ثمة نزعة انتحارية عند الاسرائيليين فإن تم محاصرتهم، فهم سيدمرون أنفسهم ويلمروننا معهم تماماً كما فعل شمشون وكما فعل أسلافهم فى قلعه ماسادا، حين رفضت جماعة يهودية

حاصرها الرومان أن تستسلم لهم وفصلت الانتحار. وقد استُخدمت هذه الصورة الإدراكية للذات الإسرائيلية لتخويفنا وإقناعنا بضرورة التعامل مع العدو بحذر.

وقد أثبتت الأبحاث التاريخية ريف والعة ماسادا وأثبتت الوقائع التاريخية أن هذه الأسطورة لا تشكل إدراكاً حقيقياً للذات الإسرائيلية لأنهم يسلطون كثيراً من المرونة والتكيف كما حدث أثناء حصار إحدى المواقع في خط بارليف. فقد تحدث الجنود مع قيادتهم في إسرائيل وقالوا ساخريين: «هل تتحرر على طريقة ماسادا؟» فكان الرد عملياً وواضحاً لا إيهام فيه: «لا داعي لهذا، المهم أن تظهروا بمظهر لائق أمام عملاء التليغرافيون المصري».

وقد حدث نفس الشيء أثناء الانتفاضة، لم يفكر الإسرائيليون في هدم المعبد على رؤوسهم وعلى رؤوس العرب، وإنما ظهرت الدجاجة الكامنة داخلهم، لكنها أحبطت هذه المرة شكل الطائرة المروحية الأمريكية. إذ يبدو أن من المناظر العالقة في أذهان الإسرائيليين صورة أحمر طائرة مروحية أمريكية تغادر «سايجون» بعد الهزيمة التي لحقت بالقوات الأمريكية، وقد تعلق بها الأمريكيون. وقد ورد ذكر هذه الطائرة الدجاجية على لسان هذه متحدثين صهيانية من بينهم شارون الذي أشار إلى أنه إن لم يصمد الإسرائيليون فستأتي العاصات المروحية وستقتلها الإسرائيليون من سطح السفارة الأمريكية، أي أن شعثون الجبار، هذا الصقر الرهيب، هو في واقع الأمر دجاجة أو ربما ديك رومي يهرول بسرعة غير عادية نحو الدجاجة للمروحية، وفي هذا فليمكر المهرولون.

وبعد، هذه محاولة لرصد إستجابات المستوطنين الصهيانية للإنتفاضة الماركة، وهي محاولة ترمي إلى تجاوز الثنائيات المتعارضة التي تسم للحدود الإدراكي العربي (المادى البسيط) وتحاول أن تطرح بدلاً من ذلك نموذجاً أكثر تركيباً لأنه يستفيد الإنسان الإنسان مرة أخرى ككائن حسي. ظاهره غير باطنه، قوله غير فعله، وعيه غير لا وعيه، قصده غير سلوكه. هذا لا يعنى الانفصال الكامل للواحد عن

الأخر فالظاهر يعبر عن جزء من الباطن، والقول يؤثر في العمل ويتأثر به، والوهم يتداخل مع اللاوعي، والقصص والسلوك يتفقان ويختلفان حسب الظروف والعوامل.

وهذا النموذج الإدراكي المركب المقترح هو وحده الذي يصلح كنقطة بدء لرصد سلوك الممدور. ولعل مراكز البحوث العربية تنفض عنها التسيطات المادية الإدراكية التي زرعت في قلوبها الهرمية وشبهت رؤيتنا لأنفسنا وللآخر.

الفصل الثالث

في الإدراك الغربى لليهود

- ١- اليهودى كعنصر نافع داخل الحضارة الغربية
- ٢- اليهودى كمسلم فى أفران الغاز
- ٣- الإدراك النازى لمفهوم الحكم الذاتى
- ٤- الإدراك الغربى والصهيونى لحروب الفرنجة
(الصليبيين)

١ - اليهود كمصدر نافع داخل الحضارة الغربية

من يضح أن يؤسس علاقتنا مع الآخرين من منظور مدى نفعهم لنا أو حتى للمجتمع ككل؟ لاشك أن مفهوم المنفعة، حتى بمناها المادى الواحدى، مفهوم مهم للعناية، سنستخدمه دائماً فى حياتنا اليوم فى علاقتنا مع كثير من البشر، ولكننا عادة لا نطبقه على من ندخل معهم فى علاقة إنسانية مباشرة (أولية) مثل علاقات القرابة والحيرة والأسرة. فمن يستخدم هذا المفهوم مع من ندخل معهم فى علاقة موضوعية تعاقدية، مثل السكرتير أو مضيعة الطائرة فمضيعة الطائرة إن لم تحضر لى طعامى فى الوقت المحدد له، وإن لم تحضر لى القهوة حينما أطلبها، وإن لم تحبى مواعيد الأفلام، بل وإن لم تنصع الرقعة حينما نتحدث معى، فهى لا فائدة لها، ومن حقى أن أقدم شكوى لشركة الطيران، خاصة إذا ما كنت من ركاب الدرجة الأولى (وهى مرتبة تقترب إلى حد ما من العردوس الأرضى). ولكن حينما يحكم بعدم النفع على شخص ما، فلما يدرك أنا نتحدث عن جانب واحد من وجوده، وهو وظيفته، وهى الرقعة العامة التى التقى معى فيها. ومن ثم فمن يدرك، أحياناً عن وهى، وأحياناً أخرى بدون وهى، أن حكمنا لا ينصرف إلى إنسانيته الكلية المتينة (كأن وابن يحب ويتعذب مثلما). فبهما بلغ المرء من الصوء، فإنه لا يمكن أن يبلغ به التسطح درجة أن يظن أن الوظيفة هى الشخص، وأن أدائه لوظيفته هو وجوده وكيانته.

الشعب الشاهد

ومع هذا هناك ظاهرة الجماعة الوظيفية، وهى جماعة بشرية يستجلبها المجتمع لتصطلح بوظائف يأنف أعضاء المجتمع القيام بها لأنها مثينة (البسعاء) أو لأنهم عاجزون عن القيام بها لأنها تتطلب أدوات وحبرات معينة (الطب وقطع الماس)، ولأسباب أخرى عديدة (الاعتبارات الأمية)، وعادة ما يُعرف عصر الجماعة الوظيفية فى ضوء الوظيفة التى يضطلع لها، وفى ضوء مدى نجاحه أو إخفاقه فى

أدائها، أي في ضوء نفعه، هذا هو تعريفه وهذا هو إدراك مجتمع الأغلبية له. وقد كانت الجماعات اليهودية تصطلح بدور الجماعة الوظيفية (القتالية والاستيطانية والأمنية) في العصور القديمة، ثم تحولت إلى جماعات وظيفية تجارية في العصور الوسطى في المغرب - مادة بشرية نافعة يتم قبولها أو رفضها في إطار مدى النفع الذي سيعود على المجتمع من جراء وجودها فيه. وبما دعم من هذا الإدراك العربي لليهود الرؤية المسيحية (الكاثوليكية) لهم باعتبارهم شعباً شاعداً، يدل وجودهم المتدني على عظمة الكنيسة، ومن ثم ينشئ الحفاظ عليهم بسبب دورهم الذي يلعبونه في الدراما الكوبية الدينية. وقد سادت هذه الفكرة في أوروبا الكاثوليكية الإنطاكية، واستقر اليهود في إنجلترا وفرنسا، في العصور الوسطى العربية، كأتقان بلاط (Servi Camerae regis) ومصدر نفع ودخل للإمبراطور وللطبقات الحاكمة التي كانت تستجلبهم وتوطنهم وتمسحهم المزايا والحماية والمواثيق. وكان يشار إلى اليهود أحياناً على أنهم سلع ومنقولات Chattel وكانت المواثيق التي تمنح لهم من قبل الحكام الإنطاكيين تتحدث عن ملكية الحكام لهم (judaeos habere) وعن حق الحكام في الاحتفاظ بهم (judaeos tenere). ويمكن القول أنه قد يكون من الأدق النظر إلى اليهود داخل الحضارة العربية (خاصة في العصور الوسطى) باعتبارهم أدوات إنتاج وإدارة ورأسمال لا باعتبارهم شراً بل حتى قوى إنتاج (إن أردنا استخدام المصطلح الماركسي) وقد استقر اليهود في ألمانيا ثم في بولندا على نفس الأساس.

ومن أكثر الأمثلة أهمية (وطرافة) التي قد تساعدنا على فهم الطبيعة السفعية لعلاقة المجتمعات العربية باليهود ما حدث لليهود في شبه جزيرة أيبيريا فقد كانت توجد عناصر يهودية كثيرة في بلاط فرديناند وإيزابيلا، وقد لعب أحد أثرياء اليهود دوراً مهماً في عقد الفراخ بينهما وتوحيد عرش قشتالة وأراجون. كما قام بعض أثرياء اليهود بتمويل حرب الملكين ضد المسلمين، مما أدى إلى هزيمتهم وإنهاء الحكم الإسلامي. ومع هذا تم طرد أعصاء الجماعات اليهودية بعد سبعة شهور فقط من

إنجاز هذه العملية العسكرية التي مولها بعضهم، ذلك أن نجاحها قد أدى إلى أن دورهم كجماعة وظيفية نافعة لم يعد لازماً.

العصر الحديث

هذا المفهوم الكامن في الفكر الغربي الوسيط، ازداد انتشاراً وتواتراً ووضوحاً مع علمنة الحضارة الغربية، ويمكننا القول إن الرؤية العربية لليهود في العصر الحديث هي إعادة إنساج لهذه الرؤية النفعية. ولكن يلاحظ إن الدياجات الدينية ازدادت خفوناً (إلى أن تلاشت تماماً، إلا من بعض التصريحات المضحكة عن التراث المسيحي -اليهودي). ولقد كان وضع اليهود مستعزاً تماماً داخل المجتمعات العربية في العصور الوسيطة كجماعة وظيفية وسيطة ذات نفع واضح ثم بدأ هذا الوضع في التقلقل مع التحولات السبوية العميقة التي تخاضها المجتمع الغربي ابتداء من القرن السادس عشر وظهور الثورة التجارية، ولم يعد من الممكن الاستمرار في الدفاع عن وجود اليهود من منظور فكرة الشعب الشاهد (الدينية) فظهرت فكرة العقيدة الألفية أو الاسترجاعية (البروتستانتية) التي تحمل الخلاص المسيحي مشروطاً بعودة اليهود إلى فلسطين. ولكن هذه الأسطورة ذاتها رعم نعتيتها وماديتها الواضحة لا تزال مرتبطة بالخطاب الديني، وكان لابد من أن يتم الدفاع عن اليهود على أن لا دينية هامشية، كما كان لابد من طرح أسطورة شرعية جديدة ذات طابع أكثر علمانية ومادية.

ويلاحظ تراجع الدياجات الدينية وبروز مفهوم النفعة المادية في النصف الثاني من القرن السابع عشر. تتم الدفاع عن عودة اليهود إلى إنجلترا من منظور النفع الذي سيجلبونه على الاقتصاد الإنجليزي، حيث نظر إليهم كما لو أنهم سلعة أو أداة إنتاج وكان المتابعون عن توطيئ اليهود يشحذون عن نقلهم على السفن الإنجليزية مما يمتق مع قانون الملاحة الذي صدر آنذاك، والذي جعل نقل السلع من إنجلترا وإليها حكراً على السفن الإنجليزية. كما أن كرومويل فكر في إمكانية توظيفهم لصالحه كجواسيس. وقد عمل اليهود في تلك المرحلة في وسط أوروبا

كـيهود بلاط (١)، جماعة من الوسطاء والخبراء الشاهدين بشكل مباشر للبلاط الملكي الذين بشرة دن على مالية الدولة وجيوشها ومواردها وعلاقاتها الدولية) وكـيهود أرنهـا (٢) هولندا (مستأجرين بضائع النبلاء الإقطاعيين الهانزي في وارسو) وهذه كلها جماعات وظيفية وسيطة يستند وجودها أيضاً إلى مدى نعمها -ولذا تم طرد اليهود من هذه المجتمعات حينما لم يعد لهم من فائدة

أوتاد ومسامير

ويبدو أن مفهوم نفع اليهود مفهوم متجذر في الرجلان العربي تباه الجميع، ولذا حينما قام أعداء اليهود بالهجوم عليهم من منظور علم نعمهم وضررهم، نسي أعضاء الجماعات اليهودية نفس المنطق، فلم يدافعوا عن أنفسهم من منظور حقوقهم الأساسية والمطلقة كغيرهم، وإنما بينوا أن حقوقهم تستند إلى نعمهم. كتب سيمون لوتساتو (١٥٨٣-١٦٦٣) وهو حاحام إيطالي مقالاً تحت عنوان «مقال عن يهود البندقية» عُدَّ فيه الموائد الكثيرة التي يمكن أن تعود على البندقية وعلى غيرها من الدول من وراء وجود اليهود فيها، فهم يصطلحون بوظائف لا يمكن لغيرهم الإصطلاح بها مثل التجارة، وهم يطورون فروعاً مختلفة من الاقتصاد ولكنهم على عكس التجار الأجانب خاضعون لسلطة الدولة تماماً ولا يبحثون عن المشاركة فيها. وهم يقرمون بشراء الممارات، ومن ثم لا يفلتون أرباحهم خارج البلاد إن اليهود من هذا المنظر يشبهون الرأسمال الأجنبي لأبد من الحفاظ عليه والدفاع عنه. وقد نسي الممول اليهودي الهولندي مئسي بن إسرائيل نفس المنطق في خطابه لكرومويل، الذي طلب فيه السماح لليهود بالاستيطان في إنجلترا. كذلك نسي أصدقاء اليهود المنطق ذاته، فطالب جوميا تشايلد رئيس شركة الهند الشرقية، عام ١٦٩٣ بإعطاء الجنسية لليهود الموجودين في إنجلترا بالفعل، وأشار إلى أن هولندا قد فعلت ذلك، وازدهر اقتصادها بالتالي. كما كتب جون تولاند عام ١٧١٤ كتاباً مهماً للمعایة عواقبه «الأسباب الداعية لمنح الجنسية لليهود الموجودين في بريطانيا العظمى وأيرلندا» دافع فيه عن نفع اليهود متعلماً مطلقاً لوتساتو.

ومن أهم المدافعين عن نفع اليهود الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو، حيث بين أهمية دورهم في المصور الوسطى في الغرب، وكيف أن طرد اليهود ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم اضطرتهم إلى اختراع خطاب التبادل لنقل أموالهم من بلد إلى آخر ومن ثم أصبحت ثروات التجار غير قابلة للمصادرة وتمكنت التجارة من تخشى العنف ومن أن تصبح نشاطاً مستقلاً، أي أنه تم ترشيدها

ولعل أدق وأطرف تعبير عن أطروحة نفع اليهود ما قاله إديسون في مجلة إسبيكتاتور في ٢٧ سبتمبر ١٧١٢ حين وصف بذكه تحول اليهود إلى أداة كاملة، فاليهود مستثمرون في كافة الأماكن التجارية في العالم، حتى أصبحوا الأداة التي تتحدث من خلالها الأمم التي تفصل بينها مسافات شاسعة والتي تترايط من خلالها الإنسانية مهم مثل الأوتاد والمسامير في بناء شامخ، وعلى الرغم من أنهم ليس لهم قيمة في ذاتهم، فإن أهميتهم مطلقة لاحتفاظ الهيكل بتماسكه.

مصلحة الدولة

وقد أصبح مفهوم نفع اليهود مفهوماً مركزياً في الحضارة الغربية مع ازدهار فكرة حركة الاستنارة، ومع هيمنتها شبه الكاملة على الفكر الفلسفي والأخلاقي الغربي. فمن أهم دكات هذا الفكر في المجال الأخلاقي الفلسفة النفعية التي تنظر للعالم كله وكافة مجالات الحياة من منظور المنفعة (المادية) وقد ظهر في هذه المرحلة فكر كل من آدم سميث في إنجلترا، والفيريويقراط في فرنسا، حيث كان كلاهما يطالب الدولة بتنظيم ثروتها وريادتها، كما كانا يخطيان فكرة أن الهدف النهائي (والمطلق) لكل الأشياء هو مصلحة الدولة وكان أعضاء الفريق الأول يرى أن الصناعة هي المصدر الأساسي للثروة في حين كان أعضاء الفريق الثاني، يحكم وجودهم في بلد دواشي أسساً، يرون أن الزراعة هي المصدر الأساسي للثروة ولكن مع هذا، تظل فكرة المنفعة هي المكرة الأساسية في فكر الفريقين ولا بد وأن تدرك أن هذه المرحلة شهدت اهتمام وضع أعضاء الجماعات

الفرنسية مثل ميرابرو وغيره، دافعوا فيها عن بيع اليهود أو إمكانية إصلاحهم أو تحويلهم إلى شخصيات نافعة منتجة. وموضوع نفع اليهود يشكل إحدى اللبئات الأساسية في كتابات السياسي الإنجليزى والمفكر الصهيونى المسيحى السلورد شافتسبرى الذى اقترح توطئ اليهود فى فلسطين لأنهم جنس معروف بمهارته ومثابرته، ولأنهم سيوفرون رموس الأموال المطلوبة، كما أنهم سيكونون بمثابة إسمين من سوريا يعود بالفائدة لا على إنجلترا بمجرد ما، وإنما على العالم العربى بأسره. وتحويل اليهود إلى عنصر نافع عن طريق نقلهم إلى الشرق ليصبحوا مادة بشرية استيطانية هو الحل الغربى الاستعمارى للمألة اليهودية. ولذا نجد أن بلفور يكرر نفس هذه الآراء فى مقدمته لكتاب ناحوم سوكلوف تاريخ الصهيونية.

وقد سيطر الفكر العبريوقراطى وفكر آدم سميث على كثير من الحكام المطلقين فى أوروبا، حيث كانت حكومات البلاد الثلاثة التى انقسمت بولندا واليهود فيما بينها، فى أواخر القرن الثامن عشر، يحكمها حكام مطلقون مستثرون فريدرىك الثانى فى بروسيا، وجوزيف الثانى فى النمسا، وكاترين الثانية فى روسيا. فتمت هذه الحكومات مقياس المنفعة تجاه أعضاء الجماعات اليهودية، فتم تقسيمهم إلى فاعلين وغير فاعلين. وكان الهدف هو إصلاح اليهود وزيادة عدد الفاعلين، وطرد الصارين منهم أو عدم زيادتهم. وبما أن معظم أعضاء الجماعة اليهودية مركزون فى التجارة أحدثت عملية تحويل اليهود إلى عناصر نافعة شكل تشجيعهم على العمل فى الصناعة أو الزراعة، وهوما يسمى «تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادى منتج» كما كان لا يُعتق من اليهود سوى النافع منهم، وكان يُنظر لليهود كمادة بشرية، فكانت تُحد حريتهم فى الزواج حتى لا يتكاثروا. وكان الشباب يجندون لمدة طويلة حتى يتم تحديدهم وتحويلهم إلى عناصر نافعة. ومن الحقائق المرعبة أن البعيا كس يعتبرون من العناصر النافعة ولذا منح حرية التنقل، وقد أدى هذا إلى زيادة عدد البعيا اليهوديات، زيادة واضحة.

قابل للترحيل

ولا يمكن فهم تاريخ الحركة الصهيونية ولا تاريخ العناء لليهود (بما في ذلك النازية) إلا في إطار مفهوم المنفعة المادية هذا، فقد تبنى المعادون لليهود هذا المفهوم وصنّوا عنه في رؤيتهم وأدبياتهم، فراحوا يؤكدون أن أعضاء الجماعات اليهودية شخصيات هامشية غير نافعة، بل وضارة يجب التخلص منها. ومعظم الأدبيات العنصرية العربية في القرن التاسع عشر حول هذا الموضوع، وحتى أطروحة لها أصداؤها أيضاً في الأدبيات الماركسية، بما في ذلك أعمال ماركس نفسه، حيث تظهر اليهودي باعتباره نمثلاً للرأسمالي الطفيلي الذي يتركز في البورصة ولا يعامر أبداً بالدحول في الصناعة. وتظهر نفس الأطروحة في كتابات ماكس فيبر الذي يرى أن رأسمالية اليهود رأسمالية متبوءة، بمعنى أنها رأسمالية مرتبطة بالنظام الإقطاعي القديم ولا علاقة لها بالنظام الرأسمالي الجديد (ومن المفارقات أن اليهودي الذي كان رمزاً للرأسمال المحلي المتجذر، أصبح هنا رمزاً للرأسمال الأجنبي الطفيلي المستند دائماً للترحيل والهروب).

وقد وصل هذا التيار إلى قمته في الفكر النازي الذي هاجم اليهود لطبيعتهم وللأصرار التي يلمحونها بالاجتماع الألماني وبالخصاصة الغريبة وقد قام النازيون بتقسيم اليهود بهزيمة منهجية واضحة إلى قسمين:

أ - يهود غير قابلين للترحيل، وهم أكثر اليهود نعماً.

ب - يهود قابلين للترحيل *Transferable disposable* ويستحسن التخلص منهم بوصفهم عناصر غير منتجة (أفواه تاكل ولا تنتج *useless eaters* حسب التعبير النازي للمادى الرشد الطريف) وبوصفهم عناصر غير نافعة لا أمل في إصلاحها أو في تحويلها إلى عناصر نافعة منتجة (وعما سجد ذكره والتأكيد عليه، إن هذا التقسيم تقسيم عام شامل، غير مقصور على اليهود، فهو يسري على الجميع، فقد صنف الألمان المعوقين والمتخلفين عقلياً وبعض المحزة والمثقفين البولنديين على أنهم «غير ماهين» أي قابلين للترحيل ويستحسن التخلص منهم، وقد سويت حالة هؤلاء (بما في ذلك اليهود) عن طريق الترحيل إلى

معسكرات السخرة أو الإبادة، حسب مقتضيات الظروف والحسابات النفعية
المادية الرشيدة.

الشعب النافع

من المعروف أن من أهم وظائف أعضاء الجماعة الوظيفية القيام بوظيفة ما هي
في جوهرها إستغلال للسجماهير لصالح النخبة الحاكمة. فتقوم الجماعة بتحصيل
الصرائب من الجماهير أو امتصاص فائض القيمة منها من خلال الإغراض بالربا أو
التخصص في بيع سلعة معينة (مثل الملح) والخمور يحتكرها الحاكم لحسابه. وكان
أعضاء الجماعة الوظيفية يحققون بذلك أرباحاً عالية، ولكنهم بعد ذلك كان عليهم
دفع الصرائب الماحضة للحاكم، ولذا، فقد كانت معظم الأرباح تصب مرة أخرى
في حزائه - أي أن أعضاء الجماعة الوظيفية اليهودية كانوا في واقع الأمر من أهم
مصادر الربح للحب الحاكمة في الغرب في العصور الوسطى. ومفهوم الشعب
النافع هو استمرار لنفس هذه الرؤية، وإعادة إنتاج لها داخل أطر حديثة

وقد تغلب الصهيانة هذه الأطروحة النفعية المادية تماماً، فوجد أن هرتزل يؤكد أن
اليهود في أوروبا فائض بشري غير نافع داخل أوروبا، ولكن يمكن تحويله إلى عنصر
نافع للحضارة الغربية من طريق نقله إلى الشرق (فلسطين على سبيل المثال) ليصبح
عنصراً استيطانياً، أي أنه سيتم السخاض من اليهود وسيتم تحويلهم إلى عنصر نافع
بصرية واحدة من خلال نقلهم وتحويلهم إلى مستوطنين في إطار الدولة الصهيونية
الوظيفية المملوكية. ويتحدث ناحوم سوكلوف بسعس الطريقة عن اليهود ويقدم
الاقتراحات الكفيلة بتحويلهم إلى مادة نافعة - وكان مفكرو الصهيونية العمالية
(جوردون - سودووف - سيركين) يؤكدون ضرورة تحويل الشعب الطفلسي
اليهودي إلى عنصر نافع ومنتج من خلال غزو الحراسة والأرض والعمل والإنتاج.
ويجب أن نشير هنا إلى الفريد نوسيج الممان الصهيوني الذي عاون هرتزل في
تأسيس المنظمة الصهيونية وكان أحد زعماء الصهيونية في ألمانيا. وقد امتد به العمر
إلى أن استولى النازيون على السلطة واحتلوا بولندا. فتعاون نوسيج مع الجستابو

ووضع مخططاً لإبادة يهود أوروبا باعتبارهم عناصر غير ناعمة. وقد حاكمه يهود جيتو واريسو وأعدموه. قد فعل رودولف كاستر، المسئول الصهيوني في المجر بعض الشيء حينما تفاوض مع إيمان (المسئول النازي) بخصوص تسهيل نقل يهود المجر (باعتبارهم عناصر غير ناعمة قابلة للترحيل والإبادة) في مقابل السماح لبعض الشباب اليهودي بالسفر إلى فلسطين والامشيطان فيها (أشباب من أفضل المواد البيولوجية) على حد قول إيمان أثناء محاكمته).

الدولة الصهيونية الوظيفية الناعمة تدور في نفس الإطار، فهي تقوم بنفس الأعمال التي تقوم بها الجماعة الوظيفية في العصور الوسطى، فتتحول الجماعة الوظيفية إلى دولة وظيفية تفرس في الشرق العربي في العصر الحديث وتقوم هذه الدولة الوظيفية بنفس الأعمال المشينة التي كانت تقوم بها الجماعات الوظيفية، وهي أعمال لا يمكن للدول العربية المحترمة أن تقوم بها نظراً لأنها دول ليبرالية ودعمقراطية تود الحفاظ على صورتها المشرفة فتجلى إلى الدولة الصهيونية بمثل هذه الأعمال. ومن هذه الوظائف تزويد دول أمريكا اللاتينية العسكرية بالسلاح، والتعاون مع جنوب أفريقيا في كثير من المجالات بما في ذلك السلاح النووي، والقيام ببعض أعمال المحابر والتجسس، والسماح للولايات المتحدة بإنشاء إذاعة موجهة فيها للاتحاد السوفيتي (سابقاً). كما تقوم الدولة الصهيونية بتوفير الجو الملازم والتسهيلات اللازمة للترفيه عن الحشود الأمريكيتين ويبدو أن الدولة الصهيونية الآن أصبحت مصدراً لكثير من المرتقة في العالم، كما يبدو أنها بدأت في تصدير البعيا لبلدان غربية مثل هولندا (استردام) وألمانيا (فرانكفورت)

ولكن أهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق هو الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية) فعائد الدولة الوظيفية الأساسي عائد إستراتيجي والمصلحة أو الخدمة الأساسية الشاملة التي تستجها هي القتال - القتال في نظير المال - أي أنها طبيعة مملوكة بالدرجة الأولى. وفيما عدا ذلك، فإنها ديمقراطية وتفاصيل فرعية

وقد تنبه أصدقاء الصهيونية وأعدائها على السواء إلى طبيعة هذه العلاقة وطبيعة

هذه الوظيفة منذ البداية، فتم الدفاع عن المشروع الصهيوني والترويج له من هذا المنظور، كما تم الهجوم عليه وشجبه من هذا المنطلق. فعلى سبيل المثال، صرح ماكس نورددو، في خطاب له في لندن (في ١٦ يونيو ١٩٢٠) بأنه يرى أن الدولة الصهيونية ستكون بلداً تحت وصاية بريطانيا العظمى وأن اليهود سيقفون حراساً على طول الطريق الذي تمخض به المحاطر ويمتد عبر الشرقين الأدنى والأوسط حتى حدود الهند، وكان حايم وايمان كثير الإلحاح في تأكيد الأهمية الإستراتيجية (لا الاقتصادية) للجيب الاستيطاني الصهيوني الذي سيشكل، حسب رأيه «ملجأ آسيوية»، أي خط دفاع أول لا محلتراً ولا سيما فيما يتعلق بقناة السويس.

وأما حته أرنت فقد أكدت أن الصهيونية بطرحها لنفسها «حركة قومية» باعت نفسها منذ البداية لتفياح بالوظيفة القتالية الاستيطانية، مشعار الدولة اليهودية كان يعنى في واقع الأمر أن اليهود يبوون التستر وراء القومية وأنهم سيقدمون أنفسهم باعتبار أنهم «مجال يعود» إسرائيحي لأي قوة كبرى تدفع الثمن.

وقد عرض ناحوم جولدمان القضية بشكل دقيق للغاية عام ١٩٤٧ في خطاب له ألقاه في مونتريال بكندا وقال فيه: «إن الدولة الصهيونية سوف تأسس في فلسطين، لا لاعتبارات دينية أو اقتصادية بل لأن فلسطين هي ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وأمريكا، ولأنها المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية والمركز الكرى الإستراتيجي للسيطرة على العالم». معنى هذا أن الدولة الصهيونية لن تتج سلعاً بعينها، ولن تقدم فرصاً للاستثمار أو سوقاً لتصريف السلع أو مصدراً للمواد الخام وللحاصيل الزراعية، وإنما سيتم تأسيسها لأنها مستخدم شيئاً مختلفاً ومغايراً وثميناً: دوراً إستراتيجياً يؤسس سيطرة العرب على العالم، وهو دور سيكون له مردود اقتصادي دون شك، ولكن غير مباشر.

ولا تختلف المنظمة الإشتراكية الإسرائيلية «ماتزين» أي البوصلة، في وصفها وضع إسرائيل عن وصف جولدمان أو حته أرنت، حيث ترى المنظمة، في تحليل لها صدر في الستينيات، أن الدور الذي تضطلع به الدولة الصهيونية لم يطرأ عليه

أى تعبير، فهي لا تزال تشكل قاعدة لقوة عسكرية يمسك الاعتماد عليها، قوة موجهة ضد العرب للخدمة المصالح الإمبريالية الإستراتيجية وقد بين ب. سبير (فى عليهمشمار بتاريخ ٢٩ إبريل ١٩٨٦) أن إسرائيل قد جعلت من جيشها الدراع المستقبلية المحتملة للولايات المتحدة، فهي خدمة حربية كاملة جاهرة على أمة الاستعداد لتأدية الخدمات فى أى وقت.

الجدوى الاقتصادية للدولة الوظيفية

والدولة الوظيفية الصهيونية لا تقوم، مثل الجماعة الوظيفية اليهودية، بتحصيل الضرائب مباشرة، ولكنها مع هذا تحقق ريعاً هائلاً للدولة الراعية لأنها تقوم بضر تلك السظم القومية العرية التى تحاول رفع سعر المواد الخام أو حتى تتحكم فى سعرها وفى أسعارها أو التى تحتط طريقاً تنموياً مستقلاً أو تنبى سياسة داخلية وحارحية تهدد المصالح العرية بالخطر. أما العرية التى يدفعها أعضاء الدولة الوظيفية الصهيونية، فهي حالة الحرب الدائمة التى يعيشونها بسبب الدور الذى يظلمون به.

ومهما يكن الأمر أدرك الصهاينة هذه الوظيفة، كما أدركوا أنهم كلما زاد ما يجمعونه من ربح لأراضيهم من خلال أداءهم المهام وظيفتهم زادت فرص استمرار الدعم وفرص البقاء، ومن هنا كان تأكيدهم المستمر وإلحاحهم الدائم على الجدوى الاقتصادية التى يؤذيها التجمع الصهيونى وعلى مقدار النفع الذى سيعود على الراعى والممول (الإمبريالى)، نمائاً مثلما يعمل أى شخص رشيد مع أى سلعة تناع وبشترى. وبالمثل، نجد أنه فى وقت كان فيه المشروع الصهيونى لا يزال فى إطار الظلم والأمة، كان الرعاة الصهاينة يؤكدون، الواحد تلو الآخر، أن تمويل مثل هذا المشروع الاستيطانى الصهيونى مسألة مربحة للدولة التى تستثمر فيه وقد أدرك هرمل عنكره ودعائه أن ثورة العلاحين المصريين ستجعل مصر مكلفة للغاية كقاعدة عسكرية بالسبة لالمنترا، ولذا فقد أشار إلى أن المشروع الصهيونى، بتكاليفه الرهيبة، شيء مفير. واستخدم وايرمان الاسعار التجارية المتعاقبة ذاتها

حين كتب لتشرشل قائلاً: "إن السياسة الصهيونية في فلسطين ليست على الإطلاق تديباً للموارد، وإنما هي التأمين الضروري الذي نعطيه لك بسر أرخص من أن يحلم به أي فرد آخر". وأفاص وايرمان في شرح وجهة نظره، مبياً أن الاستعمار البريطاني، بتأييده للمنظمة الصهيونية، قد وضع ثقته في مجموعة مستعدة أن تتحمل قدراً كبيراً من المسؤولية المادية عن الاستعمار. وإذا تبين أن تكاليف الحماية البريطانية ستكون مرتفعة، صددت يمكن تنظيم وتسليح المستعمرين اليهود ثم يتساءل وايرمان شيء من الخطائية وبكثير من التوتر: "هل تمت أي عملية استعمارية أخرى تحت ظروف مؤاتية أكثر من هذه - أن تجد الحكومة البريطانية أمامها منظمة لها دخل كبير وعلى استعداد لأن تضطلع مجراً من مسؤولياتها التي تكلفها الكثير؟" إن الصورت هنا هو صوت يائع متجول يجيد الإعلان عن السلعة، حتى ولو كانت هذه السلعة هي كيانه ووجوده.

وإذا كان سمحاً ديتس قد حاول الترويج للمشروع الصهيوني في الولايات المتحدة من منظور الدور الاستراتيجي، فإن يعقوب ميريلور ركّز على مدى رخصه وانخفاض ثمنه ففي حديث إذاعي ذكر أن إسرائيل تحمل محل عشر من حاملات الطائرات، ثم قُدِّمَ الوزير الإسرائيلي كشف حساب بسيط جاء فيه أن تكلفة بناء الحاملات العشرة هذه تبلغ ٥ بليون دولار. ثم أضاف الوزير، وهو الخبير بالأمور الاقتصادية، أنه لو دفعت الولايات المتحدة فائدة قدرها ١٪ على تكاليف تشييد هذه الحاملات (وقد كان الوزير متسامحاً مع الولايات المتحدة إذ أنه لم يذكر تكلفة الحدود الدين متحملهم حاملات الطائرات أو الحرج السياسي الذي يسببه وجود مثل هذه القوات)، لو دفعت الولايات المتحدة مثل هذه الفائدة لبلغت خمسة بلايين دولار. وحيث أن المعونة الأمريكية لا تصل بأية حال إلى هذا القدر، فقد احتسم ميريلور حديثه بملحوظة فكاهية ولكنها في الوقت ذاته بالغة الدلالة، إذ قال "أين إذن بقية المبلغ؟" ويبدو أن هذا هو الخط الإعلامي الإسرائيلي في مواجهة الأمريكيين، ففي العام نفسه بين أبريل شارون أن المعونات

التي قدمتها الولايات المتحدة للكيان الصهيوني لا تزيد عن ثلاثين ملياراً من الدولارات، أما الخدمات التي قدمتها إسرائيل إلى أمريكا فتتجاوز مائة مليار من الدولارات، ثم قال بشكل جدي: "ما قاله ميريدور بشكل فكاكهي" إن الولايات المتحدة لا تزال مدينة لنا بسبعين ملياراً".

وترد الفكرة نفسها، كما يرد كشف حساب بمائل، في مقال لشلومو ماعوز المحرر الاقتصادي للجيروسالم بوست بعنوان «صفقة إستراتيجية» حين أشار إلى أن الإسرائيليين يعرفون جيداً أن مساعدة الولايات المتحدة للدولة الصهيونية هي في جوهرها مساعدة لخدمة مصالح الولايات المتحدة الإستراتيجية فالولايات المتحدة تدفع سنوياً ١٣٠ بليون دولار لقواتها في حلف شمال الأطلسي و ٤ بليوناً للوفاء بالتزاماتها في المحيط الهادي وبالتالي، فإن مساعداتها العسكرية والمدنية لإسرائيل صغيرة بشكل مضحك، إذا ما قورنت بالمبالغ الأتفة الذكر، خصوصاً إذا ما تم النظر إلى مثل هذه المساعدات باعتبارها استثماراً لحماية مصالح أمريكا في المنطقة.

هذا هو المفهوم المبرهي لإسرائيل. فالمدافعون عنها في الولايات المتحدة لا يلجأون أبداً إلى الحديث عن المنافع الاقتصادية الثانوية أو المعارم الاقتصادية الناعمة وإنما يشيرون دائماً إلى الحليف الذي يمكن التعويل عليه، وإلى المصالح الإستراتيجية الأساسية الشاملة الهائلة وقد عبرت مجلة الإيكونوميست (في ٢٠ يولييه ١٩٨٥) عن موقف هؤلاء بقولها: "إذا كان من الممكن لأمريكا أن تدفع ٣ بليون دولار كل عام ضمن تكاليف حلف الأطلسي (لتحقيق أهداف إستراتيجية)، فإن من المؤكد أن إسرائيل، وهي المحفر الأمامي والقاعدة المحتملة، تستحق مبلغاً ناعماً (نحو ٤ بلايين دولار)".

وقد لخص سبير كل الموضوعات والاستثمارات السابقة فقال أن الرعماء الإسرائيليين مضطرون دائماً أن يذكرّوا القيادة الأمريكية في واشنطن بمقدار تكلفة وجود الجيش الأمريكي في غرب أوروبا بالمقارنة تلك الهيئات المصروحة لإسرائيل وقد بين سبير أن الجيش الإسرائيلي ليس خدمة حربية كاملة وحسب، وإنما هو

أيضاً خدمة رحيصة، بل إنها أرخص من أي خيار عسكري آخر محتمل لأمريكا في المنطق. وحسبما جاء في مقاله، يوافق البينتاجون على هذا الرأي، ولذا لا يدي خبراؤه أي ناصب إزاء الحساب الذي يقدمه الإسرائيليون، حتى أن هناك من يرى فيه أنه رخيص نسبياً، الأمر الذي يذل على أن يبوءات المزعماء الصهيونية وحججاتهم، بخصوص الخيب الصهيونية الوظيفي، كانت تتسم بالدقة، وأن السلعة الصهيونية مربحة ولا شك، وأن العقد النعيمي الذي وقّع بين الحصار العربية ويهود العالم لا يزال نافداً حتى الآن وأن عائلته لا يزال مرتفعاً

استعارات الحوسنة

الدولة الوظيفية هي دولة يتم حوسنتها (أي تحويلها إلى وسيلة) لصالح الدول الراحية الإمبريالية، ولكن يبدو أن الحوسنة الصهيونية هي حالة الحركة الصهيونية لن تتوقف عند الدولة الوظيفية، بل ستمتد لتشمل كل المادة البشرية اليهودية أينما كانت. وفي اجتماع بين هرتزل وفيسكتور عمانوئيل الثالث، ملك إيطاليا، أشار الرعيم الصهيوني إلى أن ناسيون دعا إلى عودة اليهود إلى فلسطين ليؤسروا وطناً قومياً، ولكن ملك إيطاليا بين له أن ما كان يريد في الواقع هو أن يجعل اليهود المشتتين في جميع أنحاء العالم عملاء له. وقد اصطر هرتزل إلى الموافقة على ما يقول. بل وأن يسعف بأن تشابهه. وير الحاربية البريطاني، كان لديه أيضاً أفكار مماثلة. وكان هرتزل يكرر بأنه إذا وافقت إنجلترا على مشروعه الصهيوني، فإنها ستحصل «وفي ضربة واحدة»، على عشرة ملايين تابع (عميل) سري في جميع أنحاء العالم ينمون بالإحلاص والنشاط، وبإشارة واحدة سيضع كل واحد منهم نفسه في خدمة الدولة التي تقدم لهم العون. "إن إنجلترا ستحصل على عشرة ملايين عميل يضعون أنفسهم في خلعمة جلائتها ونفودها". ثم أضاف هرتزل، مستخدماً الاستعارة التجارية التعاقدية الشائعة في الأدبيات الصهيونية "ثمة أشياء ذات قيمة عالية تكسبون من نصيب الشخص الذي يحصل عليها في وقت لم تكن بعد قد عرفت قيمتها الحقيقية العالية". وأعرب الرعيم الصهيوني عن أمله في أن

تدرك إنجلترا مدى القيمة والمائدة التي مستعود عليها من وراء كسبها الشعب اليهودي، أي أن هرتزل مدرك تماماً لوظيفة الدولة اليهودية والشعب اليهودي ونفعهم وفائدة توظيف اليهود حوسلتهم.

والخطة الصهيونية الخاصة بسحب الشعب اليهودي هي جزء أساسي من العقيدة الصهيونية. ففي عام ١٩٢٠، أمر ماكس نوردهاوسن نعيمه العميق للدواع التي حرك رجال السياسة البريطانيين الذين كانت تواجههم مشكلة التوازنات الدولية وبعد القيام بحساباتهم توصل هؤلاء السياسة إلى أن اليهود يعتبرون في الحقيقة "مصدر قوة" ورمزاً "مصدر نفع" أيضاً لبريطانيا وحلفائها، ومن ثم عرضت عليهم فلسطين.

ويلاحظ أن كل الكتاب السابقين ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها "رقعة" أو "مساحة" أو "مكاناً نامياً" أو "بلداً" تحت الوصاية (فهو مكان تم نزع القداية عنه وحوسلته تماماً حتى أصبح موضوعاً محضاً). وهم يعتبرون المستوطنين الصهاينة حراساً و"خدمة عسكرية جاهزة"؛ جماعة من المماليك أو المثرثرة على أمة الاستعداد دائماً. والملوك أداة ووسيلة، وليس إرادة وقبعة

وسراً. الكائنات، الإشارات للمكان أو كانت للإنسان، فإن جوهر الاستعارات كلها هو التبعية الكاملة للعرب، والتحوصل الكامل لحسابه، وتحويل المكان والإنسان إلى أداة معزلة عن المحيط الحضاري الشرقي ("ذراع مستقبلية"). وقد مزج هرتزل، مؤسس الصهيونية، كل العناصر في استعارته الشهيرة حين قال "سنقيم هناك في آسيا] جزءاً من حائط لحماية أوروبا يكون عبارة عن حصن منيع للحضارة [العربية] في وجه الهمجية"، فقد مزج الإنسان والمكان بحيث أصبحا حائطاً غربياً في مواجهة الشرق (يلاحظ أن كلمة "إسرائيل" في العبرية كلمة متعددة المعاني متنوعة الدلالات وتشير للأرض والشعب تماماً كما فعل هرتزل).

ولا يزال إدراك الإسرائيليين لدورهم (وإدراك العالم العربي له) بدور في هذا الإطار. وكثير من الاستعارات التي يستخدمها المستوطنون الصهاينة في وصف الدور الموكل إليهم بين إدراكهم لعملية المحوسلة الرطيفية هذه فقد استخدمت جريدة هآرتس استعارة درامية لوصف الدور الذي تم إسناده إلى الدولة اليهودية (في مقال في سبتمبر ١٩٥١) بعنوان "نحن وعاهرة المواني" جاء فيه أن "إسرائيل قد تم تعيينها لتقوم بدور الحارس الذي يمكن الاعتماد عليه في معاقبة دولة واحدة أو أكثر من جيرانها العرب الذين قد يتجاوز سلوكهم تجاه الغرب الحدود المسموح بها".

والاستعارة السابعة (إسرائيل كحارس أجير يشه العاهرة) تلمس على ما يبدو - ونراً حصلها في الذاب الصهيونية الإسرائيلية، إذ تكشف أحياناً من خلال وثائق وزارة الخارجية البريطانية لعام ١٩٥٦ الخاصة بحرب السويس أنه أثناء المباحثات السرية التي جرت بين إنجلترا والدولة الصهيونية ومهدت للعدوان الثلاثي على مصر، تم الاتفاق على أن تقوم إسرائيل بمهاجمة مصر وبعد وصولها إلى قناة السويس، تقوم إنجلترا وربما بالتدخل ثم تصدران أمراً إلى الطرفين المصري والإسرائيلي بالانسحاب عدة كيلو مترات من حدود القناة، ولما يتم تسير المرور الفرنسي والإنجليزي أمام الرأي العام العالمي باعتباره عملية محايدة تهدف إلى حماية الملاحة في القناة. وقد ضمنت الدولتان أمن إسرائيل وزودتاها بالمعدات الجوي المطلوب (وهذه أمور معروفة لا تحتاج إلى توثيق) ولكن يبدو أن المنسوب الإنجليزي في هذه المفاوضات السرية بالغ قليلاً في الأمر وطلب أن تقوم القوات الإنجليزية بالحاق بعض الإصابات الطفيفة، ولكن العملية، بالقول الإسرائيلية لرفضها الانسحاب أو لتساخطها فيه حتى يتم حك المرحية. وهذا ثارت قاترة بين جوريون واستخدم استعارة شبيهة باستعارة هآرتس لوصف العلاقة بين إسرائيل والدول العربية إذ قال "إنجلترا تشبه النبل الإقطاعي الذي يرغب في معاينة إحدى المقادرات جنسياً على أن يتم ذلك في الحفاء وحسب، أي في المطبخ مثلاً".

لا هي حجرة النوم* ومن الواضح ان بن جوريون لم يرفض الدور الاستراتيجي الموكل اليه(الخادمة الحناء)، ولكنه كان يطمح في أن يتم اللقاء بين الخادمة والسيد بأسلوب راقٍ يلقى بالدولة اليهودية الوظيفية

ومن الاستعارات المتواترة الأخرى، الاستعارة التي تعتبر إسرائيل كلب حراسة. فقد وصف البروفسور يشعياهو ليبوفيتس في حديث له في صحيفة لوموند بتاريخ ٨ مارس ١٩٧٤ إسرائيل بأنها "عميل للولايات المتحدة" ووصف الإسرائيليين بأنهم "كلاب حراسة للمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤنا بصدورتنا علي القيام بهذه المهمة". وقد طور الصحفي الإسرائيلي عاموس كيان هذه الاستعارة المثيرة من عالم الحيوان وجعلها أكثر حدة وإثارة إذ وصف إسرائيل بأنها "كلب حراسة رأسه في واشنطن وذيله في القدس"، وهي كلب حراسة قوي لكنه يحتاج إلي حماية ويفضل العرب استغلال استعارة "مخلب القط"، لوصف الدولة الوظيفية. وهي استعارة مألوفة وشائعة فقدت كثيرا من قوتها بسبب تكرارها الممل، وإن كانت معبرة تماما. والاستعارات السابقة(الحارس، والعاهرة، والخادمة الحساء الطيبة، وكلب الحراسة، ومخلب القط) سواء قبلما بها لجدتها أم رفضاها لحدتها، تؤكد أن أهمية إسرائيل من وجهتي النظر العربية والصهيونية لا تكمن في عائلتها الاقتصادي وإنما في دورها الاستراتيجي إذ أن كل الاستعارات تعبر عن وجود دور يؤدي وثما يدفع، لا عائدا اقتصاديا يحصل.

ولكن كل الاستعارات السابقة، اللاتق منها وغير اللاتق، هي في الواقع استعارات مستمدة من القرن التاسع عشر قبل تفجر الثورة التكنولوجية وتزايد معدلات نمو الصناعات الحربية وتنوعها. ولذا، كان لابد من تطوير الاستعارة بشكل يتفق مع روح العصر في أواخر القرن العشرين(والواقع أن إحدى السمات الأساسية الشاملة للدولة الوظيفية الصهيونية مقدرتها علي تغيير وظيفتها بما يتفق مع متطلبات الدولة(الرابعة)، وهذا ما ألمح به يعقوب ميريديور وزير التحصيل

والنسبى الاقتصادي (١٩٨٢ - ١٩٨٤)، حيث قال في حديث له للإذاعة التابعة للجيش الأمريكى، أنه لولا وجود إسرائيل كقاعدة ومنطقة نفوذ وحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة إلى بناء عشر من حاملات الطائرات وهو بذلك يكون قد أحلّ استعارة إسرائيل كحاملة طائرات أمريكية محلّ الاستثمارات العائمة أو الفاصحة المانعة. وترد نفس الاستعارة وبشكل أكثر تيلوراً، في مقال الصحفى الإسرائيلى سبير والمعمود «مجمع ينفذ على الهياك الخارجية» إذ قال الكاتب: «إن الأمريكى يدفعون لنا لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة مجهزة بأفضل الأسلحة والجود». وقد وصف سبير هذه الدولة بأنها حاملة طائرات عليها أربعة ملايين سمّة في موقع إستراتيجى قريب من نوعه قريب من الاتحاد السوفيتى وقريب من أوروبا الشرقية، قريب من حقول النفط.

إسرائيل إذن «حاملة طائرات»، أي أنها وظيفة تُؤدي أو دور يلعب وأداة تُستخدم أو ثروة إستراتيجية تُهم أربعة ملايين مقاتل، ولا شك أن استعارة «الحاملة» أكثر دقة ودلالة من سابقاتها لأنها لا تتحدث عن دور الدولة الصهيونية أو وظيفتها بشكل عام، وإنما تعرّف - وبدقة بالغة - طبيعتها الإستراتيجية كدولة عميلة توجد في منطقة حدودية قريبة من الاتحاد السوفيتى (سابقاً) وأوروبا الشرقية وحقول النفط، وليس لها عائد اقتصادى مباشر وتؤكد الاستعارة حركية هذه الدولة النافعة الثمينة وإمكانية نقل جنودها من مكان حدودى إلى مكان حدودى آخر، ولكن الاستعارة تظهر في الوقت ذاته أيضاً أنه يمكن الاستعانة بها، فالأجراء الآلية الحركية ليست عضوية ولا ثابتة. وتتمى الاستعارة عن إسرائيل أي دور اقتصادى مباشر. ولعل الاتهام الإستراتيجى الذى تم توقيعه بين الولايات المتحدة وإسرائيل عام ١٩٨٤ هو لتحقيق آخر لهذا الإدراك لطبيعة دور دولة إسرائيل وعلاقتها بالعالم الغربى.

الدولة المملوكية

والتعبيرات المجازية التي تُستخدم للإشارة إلى الدولة الصهيونية تؤكد كلها كونها أداة نافعة، ليس لها قيمة ذاتية، وإنما تتبع قيمتها بما تزديه من خدمات وتُجلبه من منفعة، فالدولة هنا وظيفة ودور، لا كياناً مستقلاً له حركياته، وهي تستمد استمرارها، بل ووجودها، من مدى مقدرتها على أداء هذا الدور. ولذا فسُحِنَ تشير إلى الدولة الصهيونية باعتبارها دولة مملوكية، علاقتها بالعرب تُشبه علاقة المملوك بالسلطان فهي علاقة زعمية محصنة، مستمرة طالما استمرت مقدرة المملوك على الأداء. وسُحِنَ تشير لها كذلك باعتبارها الدولة الوظيفية، أي الدولة التي تضمن استمرارها وبقائها من خلال أدائها لوظيفتها. وربما يبين هذا مدى أهمية الانتماء المباركة التي أثبتت أن الدولة الصهيونية غير قادرة على أداء دورها ووظيفتها كفاعله استراتيجية في الشرق الأوسط، وأن نفعها من الناحية العسكرية ليس كبيراً، وأن أدائها لوظيفتها أصبح أمراً مكلفاً للغاية. ومن هنا تحرك الدولة الصهيونية السريع لتجد لنفسها وظيفة جديدة، بدلاً من أن تكون حاملة طائرات أو معسكر للمالك، فإنها ستصبح مثل سناخورة مركزاً للسماسرة والسياسة، وربما ركيزة أساسية لقطاع اللذة (ملاهي - كازينوهات - مصحات - سياحة) وسوبر ماركت ضخمة، مردوس أرضي، يضم كل السلع التي يحلم بها الإنسان، فيدوب فيها ويفقد حدوده وينسى كل المنعصات مثل التاريخ والذاكرة القومية والهوية والكرامة والقيم الأخلاقية. ومن هنا أهمية توقيع اتفاقية السلام والإصرار على ضرورة رفع المقاطعة العربية، حتى يتسنى للدولة الصهيونية أن تلعب دورها الجديد الذي لا يحتل كثيراً عن بعض الأدوار التي كان يلعبها أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في العرب.

وعما يجدر ذكره أن سياسة البلاشمة تجاه اليهود كانت تصدر عن معنى المنظور النفعي، فعندما كان من مصلحة الاتحاد السوفيتي دمج اليهود تماماً قررت الدولة السوفيتية أن هذا هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية باعتبار أنه لا يوجد شعب

يهودي . ولكن الاتحاد السوفيتي وجد في الأرمينيات أن من مصلحته الاعتراف بالدولة اليهودية في فلسطين، على أمل أن تشكل هذه الدولة خلية اشتراكية في الوسط العربي الإقطاعي المتخلف، فتقوم بتطوير المنطقة، ومن ثم سمح بالهجرة السوفيتية، بل ودافع المتحدون السوفييت عن «حقوق الشعب اليهودي» بشراسة غير معهودة فيهم وكان الاتحاد السوفيتي، أول دولة اعترفت بشكل قانوني بالدولة الصهيونية.

وبد ظلت سياسة السوفييت تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين مرتبطة تماماً مع مصالح الدولة السوفيتية ومنفصلة تماماً عن الأطروحات الأيديولوجية (والأخلاقية) التي كانت تشكل أساس شرعيته.

٢ - اليهودي كمسلم في أفران الغاز

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى حقيفة مثيرة وهي رؤية الصهاينة لأنفسهم كمسلمين وهي ما سميت اليهودي كمسلمين، ثم انقلاب هذا الإدراك بعد ذلك ليصبح العربي كيهودي. وتداخل المقولات الإدراكية مسألة تستحق الدراسة والتوقف. وفي هذا الفصل سندرس ظاهرة مماثلة فقد وقعت على اكتشاف لا عن طريق الصدفة تماماً ولا عن طريق التخطيط أيضاً، وإنما عن طريق نموذج معرفي وتفسيرية مختلف عما هو سائد في الغرب. فالدراسات التي كُتبت عن الإبادة النازية (هولوكوست) باليونانية وشواحي بالعبرية وترجم أحياناً إلى المجرقة) تناول هذه الظاهرة كما لو كانت ظاهرة ألمانية مقصورة على الألمان، وكما لو كانت هي جريمة النازيين الأشرار ضد اليهود الأبرياء. والأدبيات العربية تفرص هذا الإطار وتقع في قبضة إمبيرالية المقولات. وإن حاولت توسيع هذا الإطار فهي تقول إن اليهود لم يقتل منهم ستة ملايين وإنما مليونين، كما أن اليهود ليسوا هم الضحايا وإنما يستحقون ما حدث لهم إلخ. ، إلى آخر هذه الأحاديث الصيانية المعنوية وقد طرحت تصوراً مختلفاً في كتاب الأيديولوجية الصهيونية إذ أذهب إلى أن الإبادة النازية لليهود (وغيرهم) ليست جريمة ألمانية/ نازية وإنما عربية. فحل الإبادة هو عن طريق المباشرة العربية المديئة (السلطانية المادية) لكثير من مشاكلها. قُسمت إبادة سكان الأمريكتين في القرن السادس عشر ولا تزال عملية إبادتهم المباشرة مستمرة في بلاد مثل البرازيل. وقد تمت حروب إبادة أو شبه إبادة أخرى في بلاد الكونغو والجزائر (بلاد الملايون شهيد). وهذا أمر متوقع، فالعكس المنعكس العربي يتضمن إنكار حتى الوجود للآخر وإن وُجد فهو في مرتبة أدنى لا بد وأن يوظف في خدمة العالم العربي. ويجب أن نذكر أن وعد بالصور كان يهدف إلى تحليص أوروبا من اليهود عن طريق نقلهم إلى فلسطين وتوظيفهم لصالح الحصار العربية وهذا ما كان يهدف له هتلر أيضاً الذي كان يهدف إلى التخلص من اليهود وغيرهم. وقد حاول هو الآخر أن ينقلهم إلى بولندا وشل،

ثم تبني مشروعا لنقل اليهود لدخشتر ليفشل . فكان هتلر هو بالفور دون مستعمرات، وهذا يعود إلى أن معاهدة فرساي بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى أجهضت مشروع ألمانيا الاستعماري . ولولا هذا لتخلص هتلر من اليهود بالطرق البالعربية المتحصرة بدلا من الطرق النازية الهمجية فإذا أضعنا إلى كل هذا الفكر المداروسي والينشوي والإيمان بالمنفعة كـمقياس مطلق وإسقاط قداسة كل شيء . (إد كيف يمكن الإيمان بقداسة أي شيء إن كان مصدر القداسة قد انسحب من الكون ومجره، وإن كان كل شيء مادة في مادة، مجرد أرقام ودرجات متجاورة؟) إن فعلنا ذلك، اكتشفنا أن الحضارة الغربية الحديثة هي لحظة حضارية تجعل من معسكرات الإبادة أمراً منطقياً ومفهوماً . ولعل القضية فاجت لأن عنصرية الحضارة الغربية في حالة ألمانيا لم يتم ممارستها في أحرش أفريقيا أو غابات آسيا أو سهول الولايات المتحدة قبل أن يعمرها الإنسان الأبيض كما هو الحال مع عنصرية النجلترا ودرسا والولايات المتحدة، وإنما تمت ممارستها داخل المجتمعات الأوروبية ذاتها ووقع صحتها عناصر بشرية غريبة مثل العجم والسلاف والشيريين واليهود وغيرهم، وهي عناصر تم تصنيفها بشكل مهجى على أنها غير ناعمة تماماً مثل الأطفال المحروقين والعجزة والجنود الألمان المصابين في الحروب الذين كانوا يطلقون عليهم Useless eaters أي مستهلكون للطعام لا جدوى اقتصادية منهم والذين أُنشئت أفران الغاز لابتداء للتخلص منهم . وفي أثناء محاكمات نورمبرج كان خط الدفاع لمجرمي الحرب النازيين أن تفكيرهم إنما هو نتاج طبيعي للأبحاث التي أجراها العلماء الغربيون لمدة أربعين عاماً (أي منذ عصر النهضة).

المسلمون وأفران الغاز

الجرمة النازية إدى جريمة غربية بمعنى الكلمة تعبر عن شيء أصيل ودهيب وكامن في الحضارة الغربية الحديثة، وهي مثل الصهيونية، ليست انسحافاً عن جوهر هذه الحضارة وإنما هي تعبير متطور عنه . هذا هو التصور الذي أطرحه منذ أمد طويل وببما كنت أكمل بعض المداخل الأخيرة الخاصة بالإبادة في موسوعة

اليهود واليهودية والصهيونية. لاحظت إشارات غمبية للصحايا الذين سيقتلون لأفراد العاز، «قالت أحد المراجع أنهم كانوا يسمونهم تسمية «هربية» ولاحظت في مقال عن التفرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس تكرار كلمة «مسلم» ، وقد أصبح عدي حساسية غير عادية لمثل هذه الإشارات، فعادة نخفيء المراجع الصهيونية شيئاً محرراً ما حينما تفعل ذلك، ففقت بقراءة عدة مراجع وموسوعات إلى أن وصلت إلى حقيقة ملهلة، وهي أن هؤلاء الصحايا كانوا يسمونهم «Muselmann» أي «مسلم» بالألمانية، وقد ورد ما يلي في مدخل هي الموسوعة اليهودية: Encyclopedia Judaica (جزء ١٢ ص ٥٣٧-٥٣٨) عنوانه «مسلم»:

«ميرلمان» أي مسلم بالألمانية، وهي إحدى المصطلحات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تستخدم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت- أي بدأت تظهر عليهم أعراض آخر مراحل الجوع والمرص وعدم الاكتراث العقلي والإرهاق البدني. وكان هذا المصطلح يستخدم أساساً في أوشفيتس ولكنه كان يستخدم في المعسكرات الأخرى. هذه هي المعلومة، فكان العقل العربي حينما كان يدمر صحاباء كان يرى فيهم الآخر، والآخر منذ حروب الفرنجة (الصلبية) هو المسلم. ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لسوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول ﷺ وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط.

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي، كل ما في الأمر أنه تم توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» لتشير «الآخر» على وجه العموم، سواء كان من النجر أم السلاف أم اليهود (وهنا لا يختلف كثيراً عن توسيع الكلمة «عربي» في الخطابات الصهيونية لتصبح «الأعيار»). ويحاول كاتب المدخل أن يفسر أصل استخدام الكلمة، ولكن تفسيره هو مجرد تفسير وحسب، فهو يدعي أن الصحايا سُموا «مسلمين» استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم: «إنهم كانوا

يجلسون الغرفساء وقد تُسبِت أرجلهم بطريقة «شرقية» ويرتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة. والكتاب في محاولة التفسير هذه لم يتحل قط من عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية، كل ما في الأمر حاول أن يحل كلمة «شرقيين» محل كلمة «مسلمين»، لكن المهم أن الضحايا هم الآخر، والآخر ليس غربيا وإنما شرقي لو مسلم.

أوشفيتس ودير ياسين

وعثوري على هذه الإشارة لصحايا الإبادة على أنهم «المسلمين» ثير قضيتين واحدة عمليه، والآخرى معرفيه فمن الساحية العملية لابد وأن نتناقل وكالات الأنباء هذه المعلومة حتى يتضح الإدراك الغربي لنا، وحتى يوضح لِمَ لم يتوان العرب عن حل جريمة أوشفيتس عن طريق جريمة دير ياسين وكفر قاسم، فالمهم هو ضرب من سماتهم «بالمسلمين»، أي «الآخرين» وتأكيد هذا المصطلح يقلل من احتكار اليهود لفكرة أنهم الضحية الوحيدة ويثير قضية أن مايشتر من معلومات هو الذي يحدد صالح فريق بعينه، وإلا لم اختفى هذا المصطلح ولم يشر إليه أحد؟

أما من الساحية المعرفية، فمن الواضح أننا نبحث رحمة العرب فنحن لا نقرأ تاريخه من منظورها وإنما نقرأ تاريخه كما ورد لـ من منظوره، وهذا ليس عيباً في الغرب وإنما فيها نحن، فكتب التاريخ موجودة وكل من يود أن يحصل على المعلومات سيبحثها هناك، وعليه أن يعيد تفسيرها وأن يستطفاها (وهو فعل لا يوجد في اللغات الأوروبية وترجمته مستحيلة) عن طريق اكتشاف نصيباتها الخفية وعن طريق اكتشاف حقائق جديدة لم تظهر للوجود أو لم تحرز المركزية التي نستحقها.

وممن إن فعلنا ذلك فإننا قد نصل إلى الدلالات الخفية والخفية لكثير من أحداث التاريخ العربي، وهي دلالات لم يدركها الإنسان الغربي نفسه نظراً لحدوده الإدراكية المفهومة والمتوقعة. إن درسنا هذه الأحداث بطريقتنا قد نتوصل أيضاً إلى رصد أثرها الحقيقي على الإنسان، وبهذا قد ناهم في فهم الأزمة الـكسوبة التي وقع فيها إنسان القرن العشرين، وقد نصل إلى بعض الحلول.

٢ - الإدراك النازي لمفهوم الحكم الذاتي

قام الصهاينة وأصدقاؤهم بكتابة تاريخ النازية بطريقة تُعبر عن رؤيتهم وتخدم مصالحهم . ولذا أرى من الهام بمكان أن نعيد كتابة تاريخ النازية (بسل وتاريخ الحضارة المعربية ككل) من منظور عربي، بدلاً من تلقى التواريخ التي كتبوها، وبدلاً من قبول طريقة تنظيمهم للأحداث، فيبقون بعضها ويركزون عليه، ويستبعدون البعض الآخر لئلا يهيمشونه . ومن التجارب النازية الهامة التي تذكر وكأنها واقعة عرضية لا أهمية لها، تجارب الحكم الذاتي اليهودية التي أقامتها السلطة النازية في كثير من بقاع أوروبا . وتحرص التواريخ الصهيونية على إغفاء هذه الوقائع التاريخية لأنها تبيّن تشابه الرؤية النازية بالرؤية الصهيونية، وتبيّن أن ثمة تعاون تم بين الطرفين . وقد اكتسبت هذه التجارب في الحكم الذاتي أهمية خاصة هذه الأيام بعد توقيع الاتفاقيات الأخيرة، لأنها قد تلقى بعض الضوء على التصور الإسرائيلي للحكم الذاتي الفلسطينيين في الضفة الغربية . فقد أسس النازيون جيتوات كانت تأخذ شكل مناطق "قومية" تتمتع بقدر كبير من الاستقلال، فكان يتم إحلاء رقعة من إحدى المدن من غير اليهود ثم يُنقل إليها عشرات الآلاف من اليهود . ومن أشهر هذه المناطق جيتو وارسو ولودز وريجا في بولندا وسبولطة تيريس ينشتات "النسر هبة" في بوهيميا في المجر .

جيتو وارسو

ويُعدّ جيتو وارسو أهم هذه المناطق جميعاً، فقد بلغ عدد القاطنين فيه عام ١٩٤١ حوالي نصف مليون يهودي يعيشون في رقعة صغيرة حولها حائط طوله ثمانية أقدام، وكان له اثنتان وعشرون مدخلاً يقف على كل منها ثلاثة جنود، أحدهم ألماني والثاني بولندي مسيحي والثالث بولندي يهودي . وقد كان التعريف الذي تبناه الألمان للهوية اليهودية هو تعريف قوانين نورمبرج وهو أن اليهودي يهودي بالمولد وليس بالعقيدة (وهو التعريف الذي تبنته دولة إسرائيل فيما بعد) .

ويجب النظر إلى تجربة الجيتو هذه في ضوء الحسطة النازي ذي الطابع الصهيوني الواضح الذي ينطلق من تصور استغلال اليهود كمشعب عضوي مسود ومتدنى له شخصيته القومية المستقلة . ويمكن توظيفه وتحويله لمصدر للعمالة الرخيصة ولما كان للجيتو مؤسساته المستقلة الخاصة به (عملة خاصة - وسائل نقل خاصة - خبطة بريدية - مؤسسات الرفاه الاجتماعي) كما سُمح للجيتو وارسو بأن يكون له نظامه التعليمي، وبأن يفتح المكتبات لبيع الكتب واستعارتها، وبأن يصدر جريسته اليومية بل وكان لهم ميليشيا ومحاكم خاصة به، أي أن الجيتو كان بمثابة دولة صغيرة متعزلة ثقافياً واقتصادياً عما حولها

وقد كان يدير الدولة الجيتو «سلطة يهودية» أو «مجلس كبراء» كانت السلطات النازية تُعين أعضائه . ولكن استقلالية الدولة - الجيتو لم تكن كاملة، إذ كان الجيتو يقوم باستيراد كل المواد الخام والطعام والملابس التي يحتاجها من سلطة الاحتلال السارية على أن يسدد ثمن الواردات بالمنتجات الصناعية (الملابس والمصوغات الجلدية) التي كان ينتجها الجيتو . كما كان على المجلس أن يقدم عدداً من العمال يومياً يبيعون عملهم لتسديد واردات الجيتو . وقد كان العامل البولندي، يهودياً كان أم غير يهودي، يتقاضى ربع ما يتقاضاه العامل الألماني.

ويبدو أن النازيين قد رنسروا منسلطاً لإيابة يهود بيمرو وارسو من شلال فرمى وضع غير متكافئ عليهم، بحيث يمكن استمرارهم لصالح النازيين . إذ أن قيمة السلع التي كان ينتجها الجيتو والخدمات التي يقدمها كانت دائماً دون حد الكفاف ولا تفي باحتياجات العاملين اليهود الأساسيين، مما كان يعنى سوء التغذية داخل الجيتو وتناقص عدد سكانه مع صمان تدفق فائض القيمة بشكل مستمر إلى النازيين . وقد أدى عدم تكافؤ العلاقة بين الدولة النازية والجيتو - الدولة لليهودية إلى أن السكان زادوا فقراً وزادت حاجتهم إلى المواد الغذائية، فكانوا يموتون جوعاً وبذلك يتم إيابة اليهود بالتفريغ ويبطء دون أفران غاز .

وقد قام أحد الباحثين بدراسة إحصائية دقيقة لهذه الإيابة التدريجية البطيئة

مستخدماً جيتو وارسو أساساً للدراسة الحالية . فأشار إلى أنه في الفترة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٢، أى في خلال سنة وثلاثين شهراً، زاد عدد الوفيات بشكل ملحوظ . فقد كان معدل الوفيات بين أعضاء الجماعة اليهودية قبل الحرب ٣٥٠ كل شهر وحسب، أى أنه كان من المعروف أن يكون عدد الوفيات ١٢,٦٠٠ لو أن المعدل استمر في معدله الطبيعي، ولكن الجوع والمرص (وكذا غارات الخلاء واحكام الإعدام) أدت معاً إلى موت ٨٨,٥٦٨ ألفاً، وهو عدد يشكل ١٩٪ من مجموع سكان جيتو وارسو البالغ عددهم خمسمائة ألف، مما يعنى أنه كان من الممكن زيادة كل سكان الجيتو خلال ثمانية أعوام دون أفران غاز . ويمكن أن نضيف أن هذه العملية كانت مستتاراً نحو النهاية بسبب زيادة ضعف وهزال سكان الجيتو، ولذا فإن ما بين خمس إلى ست سنوات كانت كافية في تصورها لإنهاء هذه العملية .

وعلاقة الدولة النازية بدولة - جيتو وارسو كانت علاقة كولونيالية لا تختلف كثيراً عن علاقة إنجلترا بمستعمراتها أو علاقة الدولة الصهيونية بالصفة الغربية . وربما كان الفارق الأساسي هو درجة التحكم، إذ أن جيتو وارسو كان كياناً صغيراً متخلفاً، ومن ثم كان يمكن التحكم فيه بدرجة كاملة أو شبه كاملة، على عكس الصفة الغربية حيث يوجد كيان حضارى مركب يعود إلى أعماق آلاف السنين ويتم بنجده، الأمر الذى يجعل مصادر الحياة فيه متنوعة . وكل هذا يجعل التحكم فيه صعباً إن لم يكن مستحيلاً .

مستوطنة تيريس ينشتات النموجية

أما التجربة الثانية من تجارب الحكم للذاتى التى نهما فهى تجربة مستوطنة تيريس ينشتات النموجية Theresenstadt . التى أسست عام ١٩٤١ واستمرت حتى عام ١٩٤٥ . وقد رُحِّل إليها حوالي ١٥٠٠ يهودى من وسط أوروبا وغربها من المتميزين أو المستن أو اليهود من أبناء النزيجات للمحتلطة . وقد أهدى الجماعة اليهودية فى تشيكوسلوفاكيا الخطوة، باعتبار أن هذا كان يعنى أن يهود تشيكوسلوفاكيا سيقفون فى وطنهم . ويقال أن الهدف النازى من تأسيس هذه

المستوطنة النموذجية كان إعلامياً بحيث تقدم للإعلام العالمي باعتبارها مثالا على "حياة اليهود الجديدة تحت حماية الرايخ الثالث" (وهو اسم أحد الأعلام التي صُوِّرت في المستوطنة).

وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء بينهم القادة اليهود وبتنسياده أحد كبراء اليهود كانت تديره السلطات الألمانية . وقد تمتعت المستوطنة بحريات كثيرة، فقد كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية . ومن ثم كانت من مسئوليات مجلس الكبراء الحفاظ على النظام في المستوطنة وتوزيع العمل فيها وتزويد المواطنين الخبز والعناية بالصحة وبالمسكن والأطفال والإشراف على النشاط الثقافي . كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل (أي أن تيريس يشترط كانت تتمتع بالحكم الذاتي) وقد سمحت السلطات النازية لسلطات الصليب الأحمر بزيارة المستوطنة وبالاجتماع بمجلس الكبراء

وقد وُجِّل حوالي ٩٣٧ . ١٤٠ يهودياً إلى مستوطنة تيريس بشتات من بينهم ٢٣.٥٢٩ ماتوا فيها، أي حوالي ٢٥٪، وُجِّل حوالي ٨٨.١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال والإبادة، وكان يوجد فيها ١٧.٢٤٧ حتى تم تحرير المستوطنة

ولا تختلف علاقة المستوطنة بالسلطات النازية عن علاقة أي دولة في العالم الثالث بالقوة الإمبريالية التي تحكمها، والخريات التي كان يتمتع بها سكان المستوطنة لا تزيد كثيراً عن تلك التي تعرضها الحكومة الصهيونية على سكان الضفة الغربية باسم الحكم الذاتي .

ولعل مريداً من دراسة مثل هذه «الدول المستقلة» ذات الأعلام وطوايع البريد تلقى مزيداً من الضوء على التفكير الصهيوني بخصوص مستقبل فلسطين والفلسطينيين وهذا أمر يجب أن يضعه الفلسطينيون نصب أعينهم وعلى كل هناك تجارب جنوب أفريقيا في هذا المجال حين أقامت كاثونيات السكان الأصليين التي كانت تُسمى «الباتوستان» .

٤ - الإدراك الغربي والصهيوني

الحروب الفرنجة (الصليبيين)

على الرغم من أن حروب الفرنجة ظاهرة مرتبطة بالتشكيل الحضاري العربي في العصر الوسيط، فقد ساهمت هذه الحروب وبعمق في صياغة الإدراك الغربي لـ فلسطين والعرب . ولا يملك الدرس إلا أن يلاحظ عمق التشابه بين المشروع العربي والمشروع الصهيوني الإسرائيلي، وهذا أمر متوقع لأن كليهما جزء من المواجهة المستمرة بين التشكيلين الحضاريين السائدين في العرب والشرق العربي، كما أن حملات الفرنجة هي نقطة انطلاق أوروبا نحو التوسع والإصرار على بسط سيطرتها على الخارج .

إمبريالية جنينية

وعد اختوت حملات الفرنجة على أجنة كافة أشكال الإمبريالية الأوروبية التي حكمت فيما بعد حياة جميع شعوب العالم (على حد قول أحد المؤرخين الغربيين لحملات الفرنجة) . ولهذا، أصبحت حملات الفرنجة استخدماً مجازياً أساسياً في الخطاب الاستعماري الغربي، وأصبحت ديباجتها هي ديباجة المشروع الاستعماري الغربي . وقد رأى كثير من المدافعين عن المشروع الصهيوني، من اليهود وغير اليهود، أنه استمرار وإحياء للمشروع الصليبي أي الفرنجي ومحاولة وضعه موضع السعد من جديد في العصر الحديث . فقد ألف مسي آر كوينر في عام ١٨٩٧، وهو صهيوني غير يهودي ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين، كتاباً عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس أشار فيه إلى أن الإمبريالية العربية قد عجزت فيما أحققت فيه الحملات الصليبية أي حملات الفرنجة . والواقع أن تصويره هذا يشبه في كثير من الوجوه تصور الصحافة البريطانية وكذلك تصور بعض أعضاء النخبة الحاكمة في بريطانيا بأن هجوم اللتي على القدس يساوي حملة صليبية أخرى . وقد صرح لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك، والذي أصدرت وزارته وعد

بلفور، أن اللبني من وربع آخر الحملات الصليبية وأعظمها انتصاراً . ويمكننا أن نقول أن المشروع الصهيوني هو نماء المشروع العرقي بعد أن تمت حلمته، وبعد أن تم إحلال المادة البشرية اليهودية التي تم تحديثها وتطعيمها وتغريبها وحلمتها محل المادة البشرية المسيحية .

وقد لاحظ روبرت برسارد مولومون، وهو ضابط إنجليزي ورئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني، أوجه التشابه بين المشروعين العرقي والصهيوني في دراسة له نشرها في جومش ريفيو عام ١٩١٢ تحت عنوان امستعمرات القرن الثاني عشر في فلسطين، حيث أكد أن المشكلات التي واجهها المستوطنون العرقي ونجحوا في التغلب عليها تشبه من نواح كثيرة تلك المشكلات التي تواجه المستوطنين الصهاينة في فلسطين ثم أخذ في تعداد هذه النواحي . كما أشار إلى العوامل التي أدت إلى انهيار عمالك العرقي بعبارة "المؤثرات الشرقية التي أدت إلى الانحلال" لـيحظر المستوطنين الجدد منها .

بعض جوانب الشبه

فلنحاول حصر جوانب الشبه بين الشجرتين العرقية والصهيوية، ونصنيفها تحت رؤوس موضوعات قد تكون متداخلة ولكنها مع هذا نيسر لنا عملية تقسيم هذه الأوجه والتعامل معها . ولعل نقطة التشابه الأساسية ذات طابع جغرافي فلسطين هي النقطة المستهدفة في كل من المشروعين العرقي والصهيوني . ويبدو أن فلسطين مستهدفة دائماً من صناعات الإمبراطوريات إذ أنها تعدُّ مفتاحاً أساسياً لآسيا وأفريقيا، وتعدُّ معبراً على البحرين الأحمر والأبيض، وتقف على مشارف الطرق البرية التي تؤدي إلى العراق وإيران، وهي أيضاً معبر أساسي لشطري العالم الإسلامي . وفلسطين في واقع الأمر ليست سوى جزء من ساحل طويل يضم سوريا ومصر، بشكل فاصلاً بين البحر المتوسط في الغرب والمحيط الهندي في الشرق . ويعدُّ هذا الموقع، بالتالي، فاصلاً بين مراكز النشاط في أوروبا الغربية والشرق الأقصى . كل هذا يبين تشابهك المصير بين سوريا ومصر من جهة

وفلسطين من جهة أخرى، خصوصاً وأن الكثافة السكانية لمصر جعلتها دائماً المرشحة لقيادة المنظمة بأمرها في صراعها ضد الغزوات الغربية . ويُلاحظ أن كلاً من المشروعين العرقي والصهيوني اكتشف أنه لا بد، لحسم الصراع لصالحه، من ضرب مصر أو على الأقل تهديدها .

والواقع أن العراة الاستيطانيّين عادةً ما يملكون طريق البحر، ثم تستقر الجيوب الاستيطانية على الساحل أو لحمت بركرتها الأساسية فيه كما حدث في جوب أفريقيا والحرائر . وكذلك، فإن العزوتين العرقيّة والصهيويّة سلكتا نفس الطريق البحري واحتلتا أجزاء من نفس الشريط البحري، وإن كان الشريط الذي احتله العرقي أكثر طولاً من الشريط الذي احتله الصهيانة

أما من الناحية التاريخية، فيمكن القول أن ثمة تشابهاً بين وضع العالمين العربي والإسلامي في القرن الحادي عشر ووضعهما في أواخر القرن التاسع عشر، فقد كانا في حالة انقسام وتراجع ونجدة . فالخلافة العاطمية في مصر كانت في حالة مواجهة مع الخلافة العباسية في العراق، وقد انقسمتا فيما بينهما العالم الإسلامي . وكان النظام العباسي والفاطمي يعانيان من الصراعات الداخلية والمؤامرات . وهما، في هذا، يشبهان النظام السياسي العربي المعاصر، المتجرى، المنقسم على نفسه . المتصارع مع ذاته

والعروتان العرقيّة والصهيويّة تهتمان إلى حل بعض مشاكل المجتمع العربي والتحفيف من حدة تناقصاته . فالمجتمع الوسيط العربي كان يخوض عملية بحث اقتصادي متحت شهية للاستيلاء على طرق التجارة المتجهة إلى الشرق . وهذا يشبه من بعض الوجوه، وإن كان بدرجة أقل، انفتاح شهية رجل أوروبا الشره في القرن التاسع عشر الميلادي الذي لم يهدأ له بال إلا بعد أن وقع العالم كله في قبضته . وقد استخدمت أوروبا كلا المشروعين، العرقي والصهيوني، في التخلص مما أطلق عليه في القرن التاسع عشر الميلادي «العائق البشري»، أي العناصر التي لم تستطع أن تحقق الحراك الاجتماعي داخل مجتمعاتها ولذا كانت تهدد السلام

الاجتماعي وكان لابد من تصديرها للشرق حتى يحقق الغرب سلاماً اجتماعياً داخلياً . فالمشروع الفرنسي كان يهدف أيضاً إلى تخليص أوروبا من فائضها البشري الذي كان يهدد سلامها الاجتماعي حسب تصور البعض على الأقل .

استعمار استيطاني إحلالي

ومن نقط التشابه الأخرى أن المشروعين العربي والصهيوني مشروعان استعماريان من النوع الاستيطاني الإحلالي . فالمشروع الفرنسي كان يهدف إلى تكوين جيوب بشرية غربية وممالك فرنجية تدين بالولاء الكامل للعالم الغربي ولذا، لم تأت الحشوش وحسب، وإنما أتى معها العنصر البشري العربي المسيحي ليحل محل العنصر البشري العربي الإسلامي . وهو في هذا لا يختلف عن المشروع الصهيوني إلا في بعض التفاصيل . فعرو فلسطين ثم أولاً على يد القوات البريطانية، ثم حضر المستوطنون الصهاينة بعد ذلك بوصفهم عنصراً يقوم بالزراعة والقتال . وقد كانت المؤسسات الاقتصادية للفرنجية، مثلها مثل فريتها الإسرائيلية، تتسم بطابع عسكري . كما أن التنظيم الاقتصادي التعاوني لم يكن مجهولاً لدى الفرنجية . ويمكن القول أن دولات الفرنجية، مثلها مثل الدولة الصهيونية، كانت ترسانات عسكرية في حالة تأهب دائم للدفاع عن النفس وللتوسع كلما سمحت لها الفرصة . ويلاحظ أن كلا من ممالك الفرنجية والدولة الصهيونية، - كما يذكرها الإحلالية، خلقت مشكلة لاجئين . كما يلاحظ أن هؤلاء اللاجئين تحولوا إلى الوفود الذي جند سكان المنطقة ضد الدولة القلعة .

ومن المعروف أن الكيانات الاستيطانية لا تفقد صلتها قط بالوطن الأم بل تعتمد عليه اعتماداً يكاد يكون كاملاً لأنها، بسبب تناقضها الجوهرية مع البيئة المحلية التي تلفظها، تستمد مقومات الحياة من دعم عسكري ومالي وهوية ثقافية ومادة بشرية من وطنها الأصلي . وهذه سمة أساسية في الكيانات الفرنجية والصهيونية، مع تنويعات فرعية تنصرف إلى التفاصيل لا الجوهر . فمثلاً اعتمدت ممالك الفرنجية على كل أوروبا كمصدر للدعم، ولكن اعتمادها كان على فرنسا بالدرجة الأولى .

وكذلك، فإن الدولة الصهيونية التي اعتبرت أوروبا قاعدتها الإستراتيجية واعتمدت على معظم دول العالم العربي الرأسمالي مع التركيز على بلد واحد هو إنجلترا ثم فرنسا^١، ره قصيرة وأخيراً الولايات المتحدة منذ منتصف الستينيات^٢، ومع سقوط الأراكبية في الاتحاد السوفيتي تطرح الدولة الصهيونية نفسها باعتبارها قاعدة للحصارة العربية كلها في مواجهة العالم الإسلامي^٣، ويشير أحد الدارسين الإسرائيليين إلى أنه كان هناك جاية فرنجية موحدة تماماً مثل الجاية لليهودية الموحدة

وقد جاءت المادة البشرية لكلا المشروعين من العالم العربي^٤، ولكنهما، مع هذا، لم يحققا التجانس العرقي المطلوب لتحقيق شيء من التوازن داخل التجمع الاستطاني، فتولدت درجة عالية من التوتر^٥، فمالك الفرنجية كانت تضم في ماضي الأمر عنصراً عربياً عالياً بالإضافة إلى عنصر إيطالي انقسم بدوره إلى جنوي وسفلي نسبة إلى جنوة والسفينة^٦، ولكن عناصر أخرى انضمت إلى هذين العنصرين، مثل الأرمن وبعض العناصر المسيحية المحلية والمسلمين الذين تنصروا. كما أن ممالك الفرنجية ذاتها استوعبت، بمرور الزمن، العناصر الثقافية من البيئة المحلية^٧، ولكن، ومع هذا، يمكن القول أن ممالك الفرنجية احتضنت بقدر من التجانس أعلى بكثير مما حققه الكيان الصهيوني^٨، فهذه الممالك ظلت فرنجية (عربية)، كما أن أعضاء الحة الحاكمة التي كانت عناصرها الأساسية من الفرنجية ظلت متماسكة، وكذلك كانت الهوية الثقافية مستمدة من عربيا^٩، ويلاحظ أن أوروبا في ذلك الوقت لم تكن قد انقسمت بعد إلى كتانات قومية لكل منها لغتها، وكانت اللاتينية هي لغة العادة والعكر^{١٠}، وكان التشكيل الحضاري يتمتع بشيء من الوحدة الثقافية، على الأقل، بالقياس إلى فترة التفتت القومي التي بدأت معصر النهضة

وقد حاول التجمع الصهيوني أن يحتفظ بهوية أشكنازية متجانسة تستند إلى تجربة شرق أوروبا^{١١}، ولكن أوروبا، في القرن التاسع عشر الميلادي، كان تشكيلها

المضاري مفسماً إلى كيانات قومية مختلفة تتحدث لغات مختلفة، فجاء يهود من المجر ورومانيا وألمانيا والمجر وفرنسا، كل يتحدث لئته . وجاء من شرق أوروبا داتها أنواع غير متجانسة، فثمة يهود جاءوا من بولندا يتحدثون البولندية، وآخرون جاءوا من رومانيا يتحدثون الرومانية، ومن روسيا جاء من يتحدث الروسية إلى جانب الأعلىية التي تتحدث البلديشية . كما كان السن الديهي اليهودي في حالة تعنت وتراجع ومن ثم نجد أن هناك يهوداً أرثوذكساً ويهوداً إصلاحيين أو محافظين أو فرائيين إلح ثم اجتاحت التجمع الصهيوني الكثافة الكانية الواقعة من العالمين العربي والإسلامي والتي غيرت من بنيته الكانية وتوجهه الثقافي بحيث أصبحت أغلبية العصر اليهودي شرقية تحكمها أقلية أشكنازية . ولكن الدولة الصهيونية تحاول مع هذا أن تحتفظ بالتوجه الاشكاري للمجتمع، إذ يتضح هذا في تشجيع الهجرة من الاتحاد السوفيتي وهي المناخ الثقافي الذي تفرصه المؤسسة الحاكمة، وهذا الوضع يولد الكثير من التوتر .

ويلاحظ الصحفي الإسرائيلي يسوري أفيري أن كلاً من التجمعين العرقي والصهيوي تكون من ثلاث طبقات ذات طابع عربي . الطبقة الحاكمة من المسيحيين العرب في دويلات الفرنجة يقابلها اليهود الاشكناز في الدولة الصهيونية ثم يأتي في المرتبة الثانية مواطنو الدرجة الثانية من المسلمين الشرقيين في دويلات الفرنجة يقابلهم اليهود الشرقيون في الدولة الصهيونية وأخيراً يأتي مواطنو الدرجة الثالثة وهم المسلمون واليهود وبعض المسيحيين العرب في دويلات الفرنجة، والمسلمون والمسيحيون العرب في الدولة الصهيونية

مجتمع مشتول

والمجتمع الاستيطاني مجتمع مروع أو مشتول في العادة، فهو يأخذ شكل الدولة الجيتو أو الدولة القلعة ويشير له الآن بأنه الدولة النتل والنتل هي المدن الصغيرة التي أسسها التلاء البولنديون (شلاختا) في أوكرانيا لأعضاء الجماعات اليهودية ليقوموا بدورهم الذي أوكل إليهم في جمع الضرائب

والإيجارات والإشراف على إدارة ضياع هؤلاء النبلاء حيث كانت تحميمهم القوة العسكرية الإسرائيلية . وهذا المجتمع منعزل عن بيئته وينصرف جزء كبير من نشاطه إلى عمل الفئال ضد السكان المحليين . وهذه مسألة بيت عرضية وإنما هي مسألة جوهريّة وتبع من الوظيفة ذاتها . والعالم العربي يروى الجيوب الاستيطانية بالعون ومقومات الحياة حتى تظل ركيزة لنشاطاته الإمبريالية والتوسعية . وينطبق هذا الوضع على الحيين الفرنجي والصهيوني، وإن كان يبدو أن الدعم الغربي للجيب الصهيوني يفوق الدعم العربي للجيب الفرنجي . ولعل هذا يعود إلى أن الغرب أدرك وظيفة الجيب الصهيوني كاستثمار إستراتيجي يأتي بعائد اقتصادي غير مباشر عن طريق تهدة المنطقة وليس كاستثمار اقتصادي يأتي بعائد اقتصادي مباشر وربما لم تكن لدى أوربا في العصور الوسطى الرؤية الإستراتيجية الشاملة التي يمتلكها العرب في الوقت الحاضر .

ويبدو أن أزمة التجمع الفرنجي لا تختلف عن أزمة التجمع الصهيوني فيلاحظ أن الكيان الفرنجي كان يعاني من أزمة سكانية لا تختلف كثيراً عن أزمة المستوطن الصهيوني، وذلك نظراً لانخفاض عدد سكان أوربا عام ١٣٠٠ بعد انتهاء فترة تزايد السكان، الأمر الذي أدى إلى عدم مجيء المزيد من المادة البشرية، كما كان الكيان الفرنجي يعاني من تناقص نسبة المواليد . وكان كثير من الأراضي التي صممها الفرنجة يزرعها سكانها الأصليون العرب . بل إن بعض الأقان الذين جاءوا مع حملات الفرنجة اشتغلوا بأعمال أخرى غير الزراعة، نظراً لعدم درايتهم بالتربة وربما لتمتع فرص اقتصادية أخرى بحيث أمكنهم العمل في التجارة . وهذا يشبه الروح التدريجي للعرب على الزراعة داخل المستوطن الصهيوني بما في ذلك الكيبونات، وتحويل المستوطنين الصهاينة إلى مهام أخرى غير الزراعة

الدياجات والفهد

ولا نحصر نقاط التشابه بين المشروعين الفرعوي والصهيوي في الظروف الاجتماعية والجغرافية المحيطة بكل منهما، ولا في بنية الكيانين فقط، وإنما تمتد نقاط التشابه هذه لتشمل الدياجات والسقصد . فقد قدمت تبريرات للمشروعين وتم الدفاع عنهما عن طريق دياجات دينية تستخدم الرموز الدينية وتوظفها في عملية التبرئة السكرية . والرموز الدينية المستعملة هي في واقع الأمر رموز عرقية أو إثنية أو قومية على الرغم من طلائها الديني اللامع . ويتبدى هذا في واقع أنه لا حملات الفرجة ولا الحملة الصهيونية تحتكم إلى القيم الأخلاقية المسيحية أو اليهودية، ولا يوجد لدى أي منهما استعلاء لأن يقبم ملوك المقاتلين التابعين لها من مفلور مسيحي أو يهودي . فلم يكن الصليب في الحروب التي يقال لها «صلبية» رمزاً للنسق الديني المسيحي وإنما كان رمزاً للهوية الإثنية الغربية المخترقة في الدنيوية، كما أن نجمة داود كان يستخدمها الصهاينة الذين لا يعرفون إلا المفليل عن الدين اليهودي ولا علاقة لهم بالنسق الديني اليهودي . فالحملات التي يقال لها «صلبية»، أو تلك التي يقال لها «صهيونية»، هي إذن تعبير عن قوى غير دينية استولت على الرموز الدينية ووظفتها مثلما استولت فيما بعد على الأراضي وقتلت أصحابها .

ومن هنا كانت عنصرية الدياجات الصليبية والصهيونية . ومن هنا أيضاً كان تمجيرها الحاد بين البشر وتقسيمهم إلى أدنى وأعلى، أو حاضرس وغائب، أو فئة لها كافة الحقوق وفئة لا حقوق لها على الإطلاق . . . إلخ . وهنا مختلف تماماً عن إيمان الديانات التوحيدية الثلاث بالمساواة بين البشر والتي تصدر عن الإيمان بأننا نولد جميعاً من آدم وأدم من تراب .

ويلاحظ أن دياجات الفرجة والصهاينة ترى ضرو فلسطين في إطار فكرة أن الغزاة شعب مقلّس أو مختار . وكان يسيطر على كل من الفرجة والصهاينة تفكير نخبوي يجعل زعماءهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم طلائع شعوبهم التي

ستحمل السلاح لتخلص الأرض المقدسة، وأن هذه الحملة العسكرية إن هي إلا خروج ثانٍ يشبه خروج العبرانيين من مصر إلى كنعان . وقد ارتبطت الديباجات في كلا المشروعين بالأحلام الالغية في استرجاع فلسطين بعد عودة المسيح لوجهته لعودته .

حملات الفرنجة في الوجدان

نظراً لالتشابه بين المشروعين الفرنجي والصهيوي، ونظراً لأن كليهما اتخذ فلسطين ساحة لتنهيد أحلامه، نجد أن الوجدان الصهيوني مشغول إلى أقصى حد بالمشروع الفرنجي، خصوصاً وأن الفرنجة قد رحلوا ولم يتركوا شيئاً خلفهم سوى بعض القلاع التي يزورها السائحون ويدرسها علماء الآثار من الإسرائيليين والعرب . ويحاول الدارسون الصهاينة أن ينظروا إلى مشروع الفرنجة من منظور ما يسمونه «التاريخ اليهودي» وكأن حملات الفرنجة جردت بالدرجة الأولى ضد اليهود، تماماً مثلما يمتحنون مركزية للجماعات اليهودية في كل الأحداث التاريخية . وتتحدث الكتابات الصهيونية الإسرائيلية عن ضحايا حملات الفرنجة وكأنهم هم الضحايا الوحيدون، بل وتدعي بعضها دوراً يهودياً مستغلاً في صد الفرنجة، وهو الأمر الذي يتنافى تماماً مع حقائق التاريخ، ومع ما ورد في كتابات بعض الرحالة اليهود المعاصرين مثل بنيامين التوديللي، فإن مدينة صور كانت (في عام ١١٧٠) تضم خمسمائة يهودي على حين كانت كل من عكا وقبصرية تضم مائتين، وكانت عسقلون تضم مائتي يهودي حاخامي . وتشير موسوعة التاريخ اليهودي إلى أن هذه هي الجماعات اليهودية الكبيرة ! ويذكر العالم اليهودي الإسرائيلي موسى بن حيمان (نحمانيس) أنه وجد في القدس عام ١٢٦٧ يهوديين اثنين فقط .

ولكن أهم جوانب الاهتمام الصهيوني الإسرائيلي بالكيان الفرنجي هو دراسته من منظور الصراع العربي الإسرائيلي، بمعنى عقد الدراسات المقارنة في مشاكل الاستيطان ومشاكل الموارد البشرية والعلاقات الدولية فضلاً عن محاولة فهم عوامل الإحباط والفشل التي أودت بالكيان الفرنجي . وهناك من يهتم بدراسة

المقومات البشرية والاقتصادية والعسكرية للكيان الفرنجي، ومن يهتم برصد الملائمة بين هذا الكيان والكيان الأوربي المساند له . وقد وسع فريق من الباحثين اليهود اهتمامه لدراسة مشكلات الاستيطان والهجرة

ولكن الاهتمام لا يقتصر على الدوائر الأكاديمية، فنجد أن شخصيات سياسية عامة مثل راين وديان وأمسيري يهتمون بمشاكل الاستيطان والهجرة . هي مستعير ١٩٧٠، عقد إسحق راين مقارنة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية حيث توصل إلى أن الخطر الأساسي الذي يهدد إسرائيل هو تجميد الهجرة، وأن هذا هو الذي سيؤدي إلى اصطحاب الدولة بسبب عدم سريان دم جديد فيها . ويعقد أمسيري في كتابه إسرائيل بدون صهيونية (١٩٦٨) مقارنة مستعصبة بين ممالك الفرنجة والدولة الصهيونية لا تختلف كثيراً عن المقارنة التي عقدها في الجزء الخاص بهذا الموضوع والذي استعملنا فيه بتحليله الدكي . ولكن أمسيري يحلص إلى أن المقارنة درس لا بد وأن يتعلم منه الصهاينة، بإسرائيل مثل ممالك الفرنجة محاصرة عسكرياً لا لأن هذا هو المصير الموعود (الذي لا مفر منه) كما يتصور بعض الصهاينة، وإنما هي محاصرة عسكرياً لأنها تجاهلت الوجود الفلسطيني ورفضت الاعتراف بأن أرض الميعاد يقطعها العرب منذ مئات السنين

وقد عاد أمسيري إلى الموضوع، عام ١٩٨٣، بعد الشرع الصهيوني للبيان في مقال نشر في هاعولام هزه بمسوان "ماذا ستكون النهاية" فأشار إلى أن ممالك الفرنجة احتلت رقعة من الأرض أوسع من تلك التي احتلتها الدولة الصهيونية، وأن الفرنجة كانوا قادرين على كل شيء إلا العيش في سلام، لأن الحلول الوسط والتعايش السلمي كانا غريبين على التكوين الأساسي للحركة . وحسبما كان يقوم جيل جديد يطالب بالسلام كانت مجهوداتهم تضيق مدى مع قنوم تيارات جديدة من المستوطنين، مما يعني أن ممالك الفرنجة لم تعقد قط طابعها الاستيطاني . كما أن المؤسسة العسكرية الاقتصادية للفرنجة قامت بدور فعال في القضاء على محاولات السلام، فاستمر التوسع الفرنجي على مدى جيل أو جيلين . ثم بدأ الإرهابي يحل

بهم، وزاد التوتر بين المسيحيين الفرنجة من جهة وأبناء الطوائف الشرقية من جهة أخرى، الأمر الذي أصعب للجنمخ الاستيطاني للفرنجة، كما ضعف الدعم المالي والسكاني من العرب . وفي الوقت ذاته، بدأ يمتد إسلامي جديد، وبدأت الحركة للإجهاد على ممالك الفرنجة، فأوجد المسلمون طرقاً تجارية بديلة عن تلك التي استولى عليها الفرنجة . وبعد موت الأجيال الأولى من أعضاء النخبة في الممالك، حل محلهم ورثة ضعفاء في وقت ظهر فيه سلسلة من القادة المسلمين العظماء ابتداءً من صلاح الدين ذي الشخصية الأسطورية حتى الظاهر بيبرس . وظل ميزان القوى يميل لغير صالح الفرنجة، كما لم يكن هناك ما يوقف هزيمتهم النهائية . وقد ترك هذا الحدث التاريخي بصماته وآثاره على وعي شعوب المنطقة حتى اليوم

والواقع أن اهتمام المستوطنين الصهاينة بممالك الفرنجة هو تعبير عن إدراك أولي لطبيعة دورهم في المنطقة كدولة وظيفية تكون مجرد أداة في يد قوى عظمى خارجية، وهو إحساس يشوبه قط كبير من القنصرية والعدمية الناجمة عن إحساس الأداة بأنها لا تمتلك ناصية أمورها ولا تسطر على مصيرها أو قدرها .

الفصل الرابع

في تفكيرك الإدراك الصهيوني

- ١ - معاداة اليهود: تفكير وتركيب ثلاث حالات
- ٢ - الصهيونية والرومانسية: إعادة التفكير في طرق التفكير
- ٣ الإدراك والمقدرة التنبئية للنموذج

١ - معاداة اليهود: تفكير وتركيب ثلاث حالات

في العصور الثلاثة السابقة تناولنا كيف يؤثر الإدراك في سلوك البشر، كما تناولنا طبيعة الإدراك الصهيوني الإسرائيلي للعرب ويمكننا أن نتقدم خطوة للأمام في هذا الفصل ونقوم بتفكيك هذا الإدراك الصهيوني لرى كيف يتشكل وكيف بعيد صاعه الواقع وقد نجح الصهاينة في إشاعة إدراكهم للواقع عن طريق تناول أحداث ووقائع وأساطير العداة لليهودية، بعد تجريدها من سياقها التاريخي والاجتماعي والإنساني بحيث يمكنهم من معنى صهيوي عليها. وهذا ما يمكن أن يحدث لاية واقعه تاريخية تتحول إلى مجرد واقعة لس لها أبعاد تاريخية. وقد تسرب هذا الإدراك الصهيوني إلى وجداننا وأصبح - دون أن نعي - جزءاً من ترسانتنا الإدراكية وفي هذا الجزء سنتناول ثلاث وقائع عادة ما يشير لها الصهاينة في كتاباتهم، وسنحاول أن بين كيف يحرصون الدلالة الصهيونية عليها، أي أننا سنقوم بعملية تفكيكية نوضح لنا المادح الإدراكية الصهيونية الكامنة وكيف تنجح هذه المادح في أن تعيد صياغة الواقع واختزاله بما يخدم الرؤية والمصالح الصهيونية. ولكننا في هذه الدراسة لن نقف عند هذا الحد بل سنقوم بعملية تركيبية وسنحاول أن نطرح تصوراً أكثر عمقا وإنسانية وتفسيرية لنفس الوقائع والأحداث، وسنجر ذلك عن طريق ربط الوقائع التي وردت في الكتابات الصهيونية بوقائع أخرى استبعدتها الصهاينة بحيث تظهر الأنماط التاريخية الإنسانية العامة كما أننا سنضع هذه الوقائع في سياقها التاريخي والإنساني وبذلك نكتب معناها التاريخ الإنساني الأعرق الذي يحرص الصهاينة على حجب.

الوقائع الثلاث

أولى الوقائع هو مايسمى به 'تهمة الدم' أى اتهام اليهود بأنهم يقتلون مسيحياً مسيحياً فى عيد الفصح، سحرية واستهزاء من صلب المسيح. ونظراً إلى أن عيد الفصح المسيحى واليهودى قريبان، فقد تطوّرت التهمة وأصبح الاعتقاد بأن اليهود يستعملون دماء ضحيّتهم فى طقوسهم الدينية وأعيادهم، وخصوصاً فى عيد الفصح اليهودى الذى أشبع أن خبز الفطير غير المحمّر (الماتزوت) الذى يؤكل فيه دمى بدماء الضحية.

وتمتد جذور تهمة الدم إلى عصر الاغريق والرومان، أى إلى ما قبل العصور المسيحية. فقد أتى فى كتابات آبيون الهيلينى (السكندرى) وديمقريطس الرومانى إشارة إلى أن اليهود يقدمون ضحايا بشرية إلى آلهتهم ولكن هذا الادعاء لم يصبح جزءاً من صورة اليهود الذهبية، ولم توجه هذه التهمة إليهم بشكل متكرر إلا فى القرون الوسطى المسيحية فى العالم الغربى.

وقد وجهت أول تهمة دم فى القرن الثانى عشر فى انكلترا، فى وقت كان اليهود يمارسون نشاطهم التجارى والمالى، مما كان يعنى أن أفراداً كثيرين اقترضوا أموالاً من المرابى اليهودى، ولم يسجدوا فى تسليدها. وألّت ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم إلى المرابى. وقد اتهم اليهود حينئذ بأنهم ذبحوا طفلاً عمره أربعة أعوام ونصف العام، يدعى وليام فى الجمعة الحزينة فى عام ١١٤٤. وقد قال أحد اليهود المنتصرين أن هذا هو عيد الفصح الذى تقوم فيه إحدى الجماعات اليهودية فى إحدى بلاد أوروبا بذبح طفل مسيحى (وقد نُصّب وليام قديساً فيما بعد). ثم وُجّهت تهم دم أخرى فى مناطق مختلفة فى إنجلترا، بين العامين ١١٦٨ و ١١٩٢. وقد انتشرت التهمة إلى فرنسا، فوجهت التهمة فى بلوا، فى العام ١١٧١. كما وجهت التهمة إلى اليهود خمس عشرة مرة فى القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيو من لنكولن (١٢٥٥) التى يذكرها نشوسر فى حكايات

كانتربرى. وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين، ومن أشهرها
حادثة دمشق (١٨٤) وقضية بيليس (١٩١٣). وتمتد حادثة دمشق استثناء في أنها
حدثت في العالم الاسلامي؛ إذ أنها تكاد تكون ظاهرة مقصورة على العالم
المسيحي. وكانت تهمة الدم تأخذ عادة الشكل التالي ' يختص شخص مسيحي (في
العادة طفل) أو يوجد ميتاً، فيتذكر أحد الأشخاص أن هذا الطفل شوهد آخر مرة
بجوار الحى اليهودي أو أن هناك عبداً يهودياً ما (تطلب شعاعته دم نصراني)
فيوجه إلى اليهود تهمة قتله ويتم القبض على بعض أعضاء الجماعة اليهودية،
ويتم تعذيبهم ثم شق بعضهم.

أما الواقعة الثانية، فهي حادثة دريموس الشهيرة، وبطلها هو الفريد دريموس
الذى كان من كبار الصباط الفرنسيين وكان اليهودى الوحيد في هيئة أركان الجيش
الفرنسي، وقد ولد دريموس في الالراس لامرأة يهودية ثرية مندمجة في محيطها
الفرنسي. وبظرا إلى أن اسمه كان فلهاورن، وهو اسم ألماني للكهنة، فقد عيروه
إلى اسمه الرسمي الذى اشتهر به. وقد اتهم دريموس بأنه أعطى وثائق سرية
عسكرية للملحق العسكرى الألماني في باريس، فوجهت إليه تهمة الخيانة العظمى
والتمجس لحساب ألمانيا في عام ١٨٨٤. وقد قامت السلطات العسكرية بمحاكمته.
وتابعت الصحافة المعادية لليهود آنذاك الأحداث. وكانت تعبر المواقف العام ضد
دريموس، مما خلق جواً غير ملائم لضمان حياد المحاكمة. وفي نهاية الأمر، قصت
المحاكمة عليه بالسجن مدى الحياة، وجرى من رتبته علناً أمام الجماهير، ومنى إلى
«جزيرة الشيطان» (ديملر ايلاند) التى تقع على الساحل الأفريقى. وكانت مستعمرة
من قبل فرنسا وقد رحلت الصحافة المعادية لليهود بالحكم.

أما الواقعة الثالثة، فهي حادثة ليوفرانك، وهو يهودى أمريكى ولد في تكساس
وشأ في بروكلين. وكان يعمل مديراً لمصنع أقلام في اتلانتا جورجيا، حيث قص
عليه بتهمة قتل فتاة بيضاء عمرها ١٣ عاماً، تدعى ماري فيغان، بعد محاولة
اعتصابها. وقد حوكم فرانك وأصدر حكم بإعدامه ويقال أن كونه يهودي كان

منصراً هاما أثر في محاكمته وفي الأحداث التي تلتها. وحسبما تخفف محاكم الولاية الحكم إلى السجن مدى الحياة، هاجمت مجموعة من المواطنين السجن واحتطفت لمرانك وشنته في المدينة التي بذت ودفت فيها ضجته المفترضة، وهو ما يسمى في اللهجة الإنكليزية - الأمريكية Lynching

تهمة الدم، في سياقها التاريخي

ونرد الوقائع الثلاث السابقة : الكتابات الصهيونية بهذا التجريد والسابع التي يستخلصها القارئ، أو التي تُستخلص له، هي أن اليهود لا يهتمون إلى مجتمعاتهم؛ إذ أن مجتمعات الأغيار تسبدهم وتضطهدهم، لا لذلك اقترعوه سوى لأنهم «يهود». والعارق الوحيد هنا بين الصهاينة وأعداء اليهود أن الفريق الثاني يقول أن كل المجتمعات تسب اليهود وتضطهدهم لأنهم يستحقون ذلك. ولكن العريتين يتفقان على حتمية البذ والاضطهاد، بسبب طبيعة اليهود الخاصة، وبالتالي حتمية خروجهم.

وطبيعة اليهود الخاصة هذه هي التي تصبح «الترسمية اليهودية» في الخطاب الصهيوني، أما الاصطهاد «والسبذ» فيصبحان الحركة الطاردة من المجتمعات الأصلية، و«الخروج» يصبح الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين وبالتالي، فنحن من مطور أخلاقي ومعرفي وعملي، يجب أن نقف ضد معاداة اليهود. ومن النادر أن نجد مثل هذا التوافق شبه الكامل بين المستويات الثلاثة المتناقضة في أية قضية من القضايا؛ إذ عادة ما يوجد تناقص بين المنظورين الأخلاقي والعملي، كما أن المنظورين المعرفي والأخلاقي قد لا يتفقان بالضرورة

ولبدأ متهمة الدم، ولتحاول أن نضعها في سياق تاريخي إنساني عام ظهرت تهمة الدم بعد أن تحوّل أعصاب الجماعات اليهودية في العالم الغربي إلى جماعات وطبب وسيطة تشتعل بالتجارة والربا وكان يتم تشيهم بالأسعنة التي تهمس نفود كل الطسقات، والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يعنصرها

الإمبراطور لحسابه بعد ذلك (وهو أمر لم تكن تستدركه الطبقات الشعبية) ومن هنا .
 الإشارة إلى اليهود كأعضاء جماعة وظيفية وسيطة (لا إلى اليهود كيهود) على أنهم
 مصاصو دماء، وليس من الصعب على الوجدان الشعبي تحويل المجاز إلى حقيقة
 وتوجيه تهمة الدم كان يعنى في واقع الأمر شق عدة يهود، من صميم عدد
 كبير من المرائين، فقد كانت هذه هي إحدى أهم الوظائف التي اصطلح بها اليهود
 في الشكل الحضاري العربي . وكان هذا يعنى في كثير من الأحيان سرقة
 الديون؛ أى أن توجيه تهمة الدم يشبه، من بعض الوجوه، التخطيط لسرقة
 مصرف من المصارف؛ وشق اليهود كان بمثابة النجاح في هذه العملية، وهي عدة
 تشبه أيضاً عمليات روبن هود، الذي كان يسرق من الأثرياء ليعطي الفقراء
 ولكن الخيانة الملكية كانت تسبب أحياناً من تهمة الدم، حينما كانت تراث يهود
 المرائين الذي يُشق أو يطرد إلى الحجة الحاكمة كانت تنشر العرصة لابرار أعص
 الجماعة اليهودية لحمايتهم.

ويبدو أن تهمة الدم صورة إدراكية غريبة تتكرر في الوجدان الشعبي؛ وهي عادة
 اتهام بئس خدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم . وقد اتهم العجربانهم
 بـ«مخطفون الأطفال ومصاصو دماء» كما وجهت التهمة صبيها إلى المسيحيين الأرمن،
 وكذلك إلى النصارى، وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية في عام ١٤٦٦ . وفي
 اتهم المشركون المسيحيون في الصين، في عام ١٨٧٠، بأنهم يسرقون الأطفال
 الصينيين، ليصنعوا منهم دواء سحرياً . واتهم الأجانب في مدغشقر، في عام
 ١٨٩١، بابتلاع قلوب البشر . أما الرهبان اللومبارديون، فقد اتهمهم أسداؤهم من
 الرهبان المرسيسكان بامتصاص دم وحواجب طفل يهودي في بعض طقوسهم
 السرية؛ أى أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود . وإذا كان المرائون الآخرون
 في المصور الوسطى الغربية، مثل اللومبارد والكوه، سين (وهو مسيحيون) لم
 توجه إليهم تهمة الدم - حسب علمنا - فقد وجهت إليهم تهم أخرى، لا تقل عنها
 سوءاً؛ كما اتهم كانوا عرصة للطرد، وللمصادرة، والشنق

وقد ساعد تكرار مناظر الدم والقتل في العهد القديم على إلصاق التهمة باليهود دون المرابين المسيحيين. كما أن طقوس اليهود الذهبية، خاصة طقوس عيد الفصح، كانت تثير الرهبة في نفوس أعضاء الأغلبية، الأمر الذي كان يجعلهم يبحثون عن تفسير لها (هذا مع العلم بأن العهد القديم يحسب شرب الدم، أو أكل اللحم قبل تصفية الدم منه).

ولم يكن اليهود يقفون في مقابل الاعيار كما يدعى الصهاينة بذلك. فالتحجج الحاكمة (الحكمة والامبراطورية والملوك) كانت تدافع عن أعضاء الجماعة ضد التهم التي كانت توجهها إليهم عامة الشعب. فحين البابا انوسنت الرابع، في مرسوم أصدره عام ١٢٤٥، أن التهمة باطلة، وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود. ودافع البابا غريغوري العاشر، في مرسوم أصدره عام ١٢٧٤، عن اليهود كما فعل بابوات آخرون الشيء عينه. وفي عام ١٧٥٨ أصدر الكاردينال لورنزو جاليجاني (البابا كليمنت الرابع عشر، فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم. وقد أصدر التحريم عليه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (حكم من ١١٩٤ إلى ١٢٥٠) وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج في عام ١٢٧٥. وقد أصدرت الحكومة في بولندا، في العصور الوسطى، قراراً بأن من يوجه التهمة إلى اليهود دون أن يشتمها سبواً فإن قاطعة يحكم عليه بالإعدام. وقد حاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفيد التهمة وإقناع الناس بطلانها؛ ولكنهم، مع هذا، فشلوا في مساعيهم، واستمرت تهمة الدم مرتبطة، ارتباطاً وثيقاً، بصورة اليهودي، حتى عهد قريب.

أما تهمة الشتم في حادثة دمشق، فقد كانت مرتبطة بالصراع بين الاستعماريين البريطانيين والعثمانيين الذين كانا يتنافسان على مدّ نفوذهما عن طريق «حماية أعضاء الأقليات الدينية». فكان الفرنسيون «يحمون» الكاثوليك والمارونيين (الذين وجهوا تهمة الدم) وكان البريطانيون، نظراً إلى عدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد

كبيرة في العالم العربي، «يهود» اليهود، خاصة وأن روسيا، وهي بلدهم الأصلي، لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس، ولأن روسيا لم يكن لها أطماع في الشرق الأوسط، إذ أن مشروعات الاستعمار كان موجهة إلى مناطق أخرى. وقد أصدر السلطان العثماني فرماناً يجرّم فيه تهمة الدم المسفلة إند أكثر تركيا مما يصورها الصهاينة، فتهمة الدم ظاهرة شعبية، ليست معصومة على أعضاء الجماعات اليهودية. كما أن العالم لم يكن ينقسم إلى يهود وأغيار، فالسلطات الحاكمة كانت تقف في صف اليهود، إما لأسباب دينية (كما هو الحال مع الكنيسة) أو لأسباب اقتصادية (كما هو الحال مع الأباطرة) أو لخليط منها (كما هو الحال مع الخليفة العثماني).

دريغوس والصراع بين الكنيسة والقوى العلمانية

أما الواقعة الثانية، فهي واقعة المرد دريغوس، التي وُصفت بأنها تركت أثراً عميقاً في هرتزل، إلى درجة أنه اكتشف حيث محاولة الاندماج، فتبنى بدلاً من ذلك الحل الصهيوني. وهذه في حد ذاتها عملية تبسيط فجة للعوامل التي أدت بهرتزل إلى اقتراح الدولة الصهيونية حلاً للمسألة اليهودية. ولكن من الحقائق التي لا توردتها المراجع الصهيونية أن هرتزل نفسه كان مقتنعا في بادئ الأمر بأن دريغوس كان مدنياً وخائناً، ولا أعرف ما الذي جعله يغير رأيه فيما بعد. ولكن ليس هذا هو موضوع الحديث، ولذلك سأحاول أن تصع واقعة دريغوس في إطارها التاريخي والاجتماعي والإنساني.

ابتداءً، كان دريغوس محل شك للخبرات الفرنسية، لأسباب وجهة الفحوات العرسية كانت تجتد كثيراً من يهود ألمانيا ويهود الألزاس واللورين للعمل جواسيس لحسابها. ولذا ساد الاعتقاد بأنه لابد وأن ألمانيا ذاتها كانت تعمل الشيء نفسه (وهو أمر متوقع). ويجب أن نتذكر أن هذا جزء من الإدراك الأوروبي لليهود، وهو إدراك كانت تلده بعض الممارسات التاريخية. ففي القرن السابع عشر، لعب

أفراد الجماعات اليهودية في أوروبا دوراً أساسياً في عملية التجسس بين الدول وقد حاول أوجفر كرومويل أن يحطب ود اليهود ويوطنهم في انكلترا، حتى يستفيد من خدماتهم كجواسيس له.

ويلاحظ أن تلك الفترة شهدت كساداً اقتصادياً في أوروبا، الأمر الذي أدى إلى انتقال أعداد كبيرة من المهاجرين إلى فرنسا، فجاء مهاجرون من إيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية. فكان عدد الإيطاليين ١١٢ ألفاً في عام ١٨٧٢، ليرداد إلى ٣٠ ألف في عام ١٨٩٠. وقد جاء معهم قرويون، من القرى الفرنسية، يتحدثون لهجاتهم المحلية، مثل البريتون والأقيرنيان Auvergnat، كما هاجرت أعداد كبيرة من يهود الألزاس واللورين الذين لم يكرموا قد أصبغوا بعد بالصبغة العربية. ووصلت أعداد كبيرة من يهود شرق أوروبا، الذين يتحدثون اليديشية (وهي لغة ألمانية) وقد أدى كل هذا إلى زيادة عدد الأجانب كما أن تزايد يهود شرق أوروبا ويهود الألزاس واللورين على حساب العنصر اليهودي الفرنسي المحلي أدى إلى تصنيف كل أعضاء الجماعة اليهودية على أنهم أجانب. ومن المعروف أنه في فترات الكساد الاقتصادي، تتعرض العناصر الأجنبية للهجوم من قبل السكان المحليين الذين يتهمون العناصر السوافدة بأنها سبب الأزمة، إذ أن العامل الأجنبي يرضى بأجر أقل ومستوى معيشة أكثر انحصاراً. علاوة على هذا، كان الجو العام في فرنسا آنذاك متوتراً، خاصة بالنسبة إلى أفراد الجماعة اليهودية، بعد هزيمة الجيش الفرنسي على يد الألمان في عام ١٨٧١، إذ كانت العناصر الليبرالية (التي كانت تضم نسبة عالية من اليهود) تقف ضد فكرة الانتقام من ألمانيا. كما أن المد العلماني كان آخذاً في التزايد، وفي الاصرار على فصل الدين عن الدولة بشكل كامل. ويجب أن نتذكر أن الثورة الصناعية قد اقتلعت الكثيرين من جنودهم، وأدت إلى افقارهم، وقنفت بهم إلى المدن الكبرى مثل باريس. وكان المقتلون هؤلاء يشعرون بعدم الأمن تجاه المجتمع الجديد، بعلمانيته وثورته وقيمه التجارية والذي كان اليهود يتواجدون في مركزه. إضافة إلى ذلك، كان هناك

هدد كبير من اليهود بين قادة كرمونة باريس في عام ١٨٧١ وقد أدى هذا كله الى الربط بين الجماعة اليهودية والعناصر الثورية والعلمانية والعموضوية في المجتمع. وعلى الرغم من هذا ارتبط لليهود (عبر تاريخ أوروبا، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحديث) بالمصالح المالية الكبيرة بالمصارف والشبكات المالية والتجارية، وهي صورة دعها برور أسرة روتشيلد في عالم التجارة والمال.

ومكنا أصبح اليهودي رمزا مثبورا لكثير من العناصر المتناقضة ومحط شك الجماهير وكرهها، فهو الأجنبي البغيض، وهو الثوري العلماني التقدمي الذي يحمل لواء المجتمع الجديد للمدمر، ولا يكثرث بأية قيمة سوى الربح، ولا يرتبط بأية أرض سوى السوق وقد كانت المصالح المعادية لليهود تشير إلى دريفوس باعتباره الراسيا وأجيا وعضوا في طبقة المولدين الأثرياء.

وقد انضمت أعداد كبيرة من ضحايا الثورة الصناعية إلى التنظيمات المعادية لليهود التي كانت تستخدم خليطا جذابا ومريحا من قديجات المسيحية والاشتراكية والعرقية، ونطرح صورة للمجتمع مبني على التضامن المسيحي، والتكافل الاجتماعي، والتعاون الاقتصادي، ينف على الطرف البغيض من المجتمع الصناعي الجديد، المبني على التنافس والتفائل، والذي يؤمن بإمكانية إفناء للأصناف والأقوى وحسب وقد انضمت غالبية أفراد الجماعة اليهودية المتمركزين في العاصمة إلى القوى العلمانية والتقدمية التي ادارت المعركة مع العناصر الدينية والمحافظة. «اليهودي كان بلا شك رمزا هاما للقوى الجديدة؛ ولكنه لم يكن قط أحد اطراف المعركة؛ إذ أنه كان جزءا من كل، والكل هو القوى الاجتماعية المتصارعة في المجتمع الفرنسي في أواخر القرن التاسع عشر، والتي كانت كل واحدة منها تحاول أن تصوغ المجتمع حسب رؤيتها وقد حوكت هذه القوى قضية دريفوس إلى حلبة صراع فيما بينها.

ففي عام ١٨٩١، اكتشف جورج بيكار، رئيس محاكمات الجيش الرسمي والبطال الحقيقي لواقعة دريفوس، أدلة تثبت براءته من التهمة المسمومة إليه، وتشير بأصابع الاتهام إلى شخص آخر هو المسيجور استرهارى، الذي كان قد لعب دورا

هاما في سير أحداث القضية بحيث انتهت إلى الإدانة التامة للكابتن دريفوس. وقد حاول بيكار دفاع المسئولين بإعادة المحاكمة، ولكنه أمر بالتزام الصمت، ومُنقل إلى تونس ب ذلك.

بعد شت حملة إعلامية مكثفة، قادها الممكّر الفرنسي اليهودي، برنارد لازار، للمطالبة بإعادة النظر في القضية؛ وكتب مقالات عدة دافع فيها بحماس عن دريفوس، كما طالب رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي بإعادة النظر في القضية، لاقتناعه ببرائة دريفوس. وتحت إلحاح الموقف المتفجر وإصرار بيكار قُبض على الميجور إسترهاري، وحوكم درأ للرماد في العيون، ولكنه برئ بسرعة، لعدم كفاية الأدلة. فكتب الروائي العرس إميل زولا سلسلة مقالات تحت عنوان «إنى اتهم» هاجم فيها المحاكمتين؛ وكانت النتيجة أن اتهم زولا بالقذف العلني، وحكم عليه بالسجن، فهرب إلى إنجلترا. وفجأة برزت أحداث جديدة غيرت مجرى القضية، فقد اسحر شاهد الإثبات الأول في القضية، الكولوبيل هيبيرت جوزيف هنري، في أثناء استجوابه، وذلك بعد أن اعترف بتزويره للسوثائق التي أدت إلى إدانة دريفوس. وعندما علم إسترهاري بحادث الانتحار، اعترف بجريته، وفر إلى إنجلترا. وفي صيف عام ١٨٩٩، أمرت محكمة النقض بإعادة محاكمة دريفوس في ضوء الأدلة التي اُكتشفت، ولكن محكمة صفت بعض الشخصيات ذات النموذج في الجيش أعلن مرة أخرى، أنه مذنب. وفي هذه المرة حُكم عليه - مع مراعاة الظروف المخففة - بالسجن عشر سنوات كان قد قضى حملاً منها في المنفى. وبعد أيام عدة، أمر الرئيس العرس أميل لوبيه بالعفو عنه وقد حثه كثير من أصدقائه والمدافعين على استئناف المعركة لإثبات براءته التامة، لأن القضية قضية مبدئية تتجاوز الأشخاص، غير أن دريفوس نفسه لم يكن مدركاً لالأبعاد السياسية التي اتخذتها هذه القضية، فكان كل ما يهتم به، وتسميه عائلته الثرية بالمنفعة، هو الإفراج عنه، سواء عن طريق العفو أو التبرئة؛ ولذا قبل قرار العفو أما بيكار فقد أصبح بطلاً قومياً، ورفقه رئيس الجمهورية إلى مرتبة بربرادير جنرال، وعيّن فيما بعد وزيراً للحرب.

وقد أعيدت محاكمة دريفوس، مرة أخرى، في عام ١٩٠٣، بضغط من القوى العلمانية والثورية، وصدر الحكم ببراءته، وأعيدت إليه حقوقه السابقة، وعُيِّن في هيئة الأركان، مرة أخرى، بوظيفة مأمور، وتلقى وسام شرف، ولكنه ما لبث أن ترك الخدمة وقد عُيِّن في أثناء الحرب العالمية الأولى كرئيساً لقطاع أحد قطاعات باريس وقد عملت هذه القضية الخلافاً الموجودة بين مؤيدي، وخصوم، النظام الجمهوري في فرنسا، وأدت إلى تقوية الأحزاب الاشتراكية، وكانت وراء القانون الذي صدر في عام ١٩٠٥، بفصل الدين عن الدولة

إن قضية دريفوس لم تكن قضية بسيطة، كما أنها لم تكن قضية يهودية دريفوس ذاته كان يهودياً ولكنه لم يكن بطل القصة، وإنما موضوعها ومآلاتها. أما بطل القصة الحقيقي فلم يكن يهودي، كما أن القوى المتصارعة (العلمانيين ضد الدينيين) لم يكن اليهود سوى عنصر واحد من عناصرها الكثيرة، فالقضية كانت قضية خاصة بالمجتمع الفرنسي في إحدى مراحل تحوله الهامة بعد تصاعد معدلات العلمانية فيه ولا يمكن فهم القضية بالعودة إلى التاريخ اليهودي أو حتى تاريخ الجماعة اليهودية في فرنسا وإنما بالعودة إلى تاريخ فرنسا وتاريخ أوروبا ككل

واقعة ليوفرانك

أما الواقعة الثالثة، فهي واقعة ليوفرانك وسكتشف مرة أخرى أن يهودية ليوفرانك لم تكن هي العنصر الأساسي الذي أدى إلى اضطهاده وقتله، فأهل الجنوب لم ينظروا إليه باعتباره يهودياً، وإنما باعتباره ذمراً متلبوراً لعناصر تاريخية واجتماعية وثقافية عدة، ليس لها علاقة وثيقة بيهوديته، شأنه في هذا شأن دريفوس وأهم هذه العناصر على الإطلاق هو أن المجتمع مسرح الواقعة كان يخوض هو الآخر ثورة صناعية حقيقية متأخرة، مع كل ما يصاحب مثل هذه الانقلابات من ظروف صحية سيتقوامراض اجتماعية عاش في ظلها أعضاء الطبقة العاملة من البيض المخلصين، أو المهاجرين المقتلمين من جذورهم للرداءية، سواء في أوروبا أم في الجنوب.

ومن مظاهر الثورة الصناعية تركّز السكان في المدن. وقد تضاعف عدد سكان مدينتي أتلانتا، في ولاية جورجيا، بين عامي ١٩٠٠-١٩١٣، إذ زاد من ٨٩٨٧ نسمة إلى ١٧٣.٧١٣ نسمة، وهو يعد أعلى معدل ارتفاع لأي مدينة أميركية في الفترة عيها (بمستثناء برمنجهام في ولاية ألاباما). وكان نمو المدينة عشوائياً فلم توجد المؤسسات اللازمة للحياة الإنسانية الكريمة، مثل مساكن الترويج أو المسكن السكني أو ما يكفي من المستشفيات العامة. وكانت أتلانتا تعاني من أزمة مياه، فقد كان يوجد ٨.٣، ٣٠ مسكن لـ ٢٥,٨١٣ أسرة، ونصف المساكن لا تصله المياه، وكان حوالي ٥٠ ألف شخص يعيشون في منازل لا يوجد فيها نظام للصرف. وكانت نسبة تلوث الجو عالية للغاية، وبهذا انتشرت الأمراض، مثل التيفوئيد وغيره، وارتفعت معدلات الوفاة. ويقال إن ٩٠ بالمئة من المساكين كانوا يعانون من مرض الزهري. وقد زاد فقر سكان أتلانتا بشكل رهيب (كان الطفل يتقاضى ٢٢ سنتاً بغير عمله لمدة أسبوع، وكانت ماري بيغان قد ذهبت لتتقاضى أجرها عن أسبوع كامل وهو دولارا وعشرين سنتاً).

ولم يكن الجو موبوءاً من الناحية المادية فحسب، وإنما من الناحية الأخلاقية أيضاً (وهذا أمر متوقع في مثل هذا المجتمع). وقد انتشرت كل أنواع الجرائم، من السرقة والقتل والدمارة والسكر. وكانت نسبة الجريمة في أتلانتا أعلى السب في الولايات المتحدة الأمريكية، وتعادل نسبتها في شيكاغو عاصمة الجريمة في العالم. وقد قبضت الشرطة، في عام ١٩٠٧، على ١٧ ألف شخص من مجموع السكان البالغ عددهم ١٠٢,٧٠٠. ومع هذا، كان جهاز الشرطة هزئياً للغاية، إذ أن مجموع عدد العاملين في قوة الشرطة كان لا يزيد على ٢٠٠ شرطي. وكان يوجد في هذه المدينة الواسعة مركز شرطة واحد، ولذا كان كثير من المجرمين يقرون من قبضة القانون، وقيل إنه من كل ستة جرائم قتل كانت تضبط جريمة واحدة. وفي عامي ١٩١٢/١٩١٣ بالذات، كان هناك ١٢ جريمة قتل لم يتم الاتيها إلى مرتكبيها.

هذه هي بعض مظاهر الثورة الصناعية في أتلانتا. ويجب التنبه إلى أن هذه الثورة كانت جزءاً من عملية عرو واسعة. فالجنوب الأمريكي مسرح الواقعة كان لا يزال يشعر بمذاق الهزيمة في الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥) حين هزم الشمال الصناعي الجنوب الزراعي وأكد سلطة الحكومة الفيدرالية على حساب استقلال الولايات المختلفة. وقد فقد ما يقرب من ٦٠ ألف شخص حياتهم إبان هذه الحرب وبعد انتصار الشمال، تم فتح الولايات الجنوبية للتراسل الشمال، وللخبرة الشمالية التي أسست الصناعات وغزت السوق. ويرى بعض المؤرخين أن العلاقة بين الشمال والجنوب كانت علاقة شبه كولونيالية، وأن ما سماه الشماليون «توحيد» الولايات المتحدة الأمريكية هو، في واقع الأمر، عرو شمالي للجنوب وهيمنة عليه. وهو غزو لمجتمع زراعي، كانت تسود فيه علاقات شبه إقطاعية، توجد على قمته لاستقرائية تعزز بمكانتها الرقعة، وبقيم الجنوب، وبالالتزام الإقطاعي. وكان مجتمع الجنوب مجتمعاً المجلوساكسوبياً بروتستانتيّاً متجانساً، لم يتوطن فيه ملايين المهاجرين، كما حدث في بقية الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة على الساحل الشرقي. وكانت مؤسسة الأسرة قوية للغاية في مجتمع الجنوب، وتنقسم بقدرة كبير من التماسك. وكانت المرأة هي رمز هذا التماسك الاجتماعي. وكانت محط انتباه المجتمع وأعضائه مثل هذا المجتمع الزراعي الأرستقراطي عادة ما ينظرون بكثير من الاحتقار، بل والبغض، إلى الاقتصاد النقدي، المبني على التعاقد وعلى آليات العرض والطلب.

وقد كانت شكوك أهل الجنوب في محلها، إذ أنه بعد «توحيد» الشمال مع الجنوب فتح الجنوب للصناعات الشمالية، التي هاجرت لتستفيد من العمالة الرخيصة والأراضي قليلة التكاليف والأسواق البكر. وهي صناعات لم تعلم كثيراً تقاليد المجتمع، وساهمت في تمكين نسبه المجتمع، وهي تعظيم بنية الأسرة. فكان الأطفال والنساء يعملون في المصانع لساعات طويلة. وقد أدى دخول الصناعات إلى تزايد معدلات التحديث والعلمنة بكل ما يتبعها من تفكك

اجتماعي، خاصة وأن هذه الصناعات لم تظهر نتيجة تطور حضوي بطني، وإنما فرضت عليه فرضاً من مجتمع اليانكي الشمالي.

كان ليوفرانك رمزاً لهذه القوة الغارية، فهو رجل صناعة ومدير مصنع جاء من الشمال ليستقر في الجنوب، وهو مجتمع زراعي ينظر بعين الشك إلى الزراعة. وكان يقوم باستئجار النساء والأطفال كعمالة رخيصة في مجتمع كان يقدس الأسرة حتى عهد قريب. وكانت تسم الإشارة إلى ماري ميران على أنها «عاملة للمصنع الصغيرة»، أي أنها تمحوت إلى رمز الطعونة البريئة التي استغلها المستثمرون من الشمال. وهو كان حريصاً جامعياً وعضواً في النخبة العلمانية المهيمنة، التي لا تكثرت كثيراً بالقيم التقليدية في وسط بيئة جنسية عمالية مقلعة من يشنها الرراعية، لا تزال تؤمن بالقيم التقليدية والمسيحية (البروتستانتية)، تخلم بالمجتمع المتعاسك الذي دُمّر إبان الحرب الأهلية. ولم تكن يهودية فرانك سوى يلور، لكل هذه العناصر السابقة؛ إذ أن المعركة الحقيقية كانت بين الشمال الصناعي العازي والجنوب الزراعي الذي تمّ غزوه؛ بين صحابا التقدم والصناعة، من جهة، وعملي هذا المجتمع الجديد الرهيب، من جهة أخرى.

ولعله يكون من المفيد أن نتوقف قليلاً، عند نقطة انتماء فرانك اليهودي فقد كان يشغل منصب رئيس فرع جماعة بني برنت اليهودية في المدينة لا بد من أن نعرف كذلك، على وجه الدقة، موقف الجنوب الأميركي من اليهود وقد حذّر الجنوب الأميركي التضامن على أساس عرقي: أبيض في مقابل أسود، على عكس الشمال الذي عرّفه على أساس عرقي، أو اثني ديمى: سروتستاني أبيض النجلو-ساكسوني في مقابل كاثوليكي أبيض من أصل إيطالي أو أيرلندي، أو كاثوليكي إسباني، أو كاثوليكي أو بروتستانت أسود؛ وكل هذا في مقابل يهودي بطبيعة الحال (وبالتالي يكون اليهودي الأسود في أسفل الدرك). ومن الواضح، أن التعريف الجنوبي لم يستبعد اليهود، وإنما صنّفهم على أنهم أبيض، تماماً كما يحدث في جنوب أفريقيا. وقد سمح لهم هذا التصنيف بدرجة عالية من الاندماج

والحرّاك الاجتماعي؛ وأصبحوا جزءاً عضواً من المجتمع؛ وكانوا أعضاء في النخبة الحاكمة، وامتلكوا العبيد وتاجروا بهم. فلم تكن هناك مقولة مستقلة لليهودي في الوجدان الجنوبي التقليدي.

وقد أشرنا آنفاً إلى أن فرانك كان رمزاً للقوة العارضة الشمالية. ويمكن أن نضيف، هنا، أنه مع التحولات التي أدخلت إلى الجنوب اكتسبت كلمة «يهودي» مدلولاً جديداً فأعضاء الجماعة اليهودية في جورجيا لم يكونوا يهود الجنوب التقليديين، وإنما كانوا وافدين، عنصرأً غريباً جديداً، له طابع اثني وظيفي عميق، ويهود أثلاثاء، في عام ١٩١١، كانوا يشكلون أكبر جماعة من المهاجرين الأجانب؛ إذ بلغ عددهم ١٣٤٢ أي ٢٥ بالمئة من مجموع كل الأجانب. وعلى الرغم من أن نسبتهم لم تتجاوز واحداً مائة من عدد السكان، إلا أنهم كانوا يشكلون جماعة وظيفية حَفِظَتْ بروراً مشياً فاليهود المهاجرون كانوا يمتلكون معظم المحلات ومحلات الرهونات وبيوت الدعارة (وهذا جزء من ميراثهم الاقتصادي الأوروبي). وكان ربائهم، أساساً، من الروس. وقيل أن بيوت الدعارة التي امتلكها اليهود كانت تزيناها صور نساء بيض تثير شهوة الزنوج، الذين كانوا يحتسون الخمر في المحلات اليهودية أو ينطلقون بعدها كالوحوش، وهذا صورة إدراكية عنصرية؛ ولكنها، مع هذا، ربطت الجرائم الجنسية في ذهن سكان أثلاثا باليهود. وكان فرانك، نفسه، مشهوراً بمغازلة الماملات وملاحقتهن. وقيل أن ماري قيمان، نفسها، شكّت إلى صديقاتها من محاولات فرانك الإباحية وقد تكون هذه الاتهامات باطلة تماماً؛ قد يكون سلوك فرانك «الإباحي» ليس سوى سلوك أي شخص من مجتمع حضري مفتوح يتصرف بحرية راقلة في مجتمع معلق أو قيمه معلقة، فتفسّر كل حركاته بشكل مبالغ فيه، قد يكون هذا هو الوضع، ولكن المهم إدراك الناس له، ولسلوكه، خاصة وأن اشتعال اليهود بالمهن المشينة عزّز هذا الإدراك.

إلى جانب كل هذه الخلفية الاجتماعية، والتاريخية، والثقافية، ثمة جانب إحصائي هام، فالدراسات الصهيونية لا تكف عن الإشارة إلى قضية فرانك، وإلى الظلم الذي حلق به، نتيجة اختطافه من السجن وشقه، بعد أن خفف الحاكم الحكم عليه ولكن هذه الدراسات لا تذكر هذه الحقائق.

١ - إن احترام القانون لم يكن سمة سائدة في المجتمع فعلى سبيل المثال، لحالت الشرطة، ذات مرة، إلى القبض على كل الذكور القادرين، لأن اثلاثاً كانت تعاني من نقص في العمالة كما أنه من المعروف أنه في عام ١٩٠٩، اتُهمت الشرطة بصرب أحد الرنوج صرباً أقضى به إلى الموت، وأنهم قاموا بتنفيذ امرأة بيضاء إلى الحائط حتى وهقت روحها.

٢ - اندلعت في عام ١٩٠٦، اضطرابات بين السكان البيض، الذين هاجموا حي السود لمدة أيام واشتبكوا معهم، فقتلوا عشرة رنوج وجرحوا ستين (ببما قُتل من بينهم رجلان وجرح عشرة). واضطرت المدينة (إلى استدعاء الحرس الوطني، وقيل أن الاضطرابات اندلعت نتيجة تقارير مثيرة نشرت في الصحف عن هجوم السود على النساء البيضاء).

٣ - كانت المدينة محتاجة إلى مزيد من الأيدي العاملة، وبالتالي إلى مزيد من المهاجرين، ولكن كلما زاد عدد المهاجرين كانت تزداد نسبة غضب السكان المحليين المقتلمين. ففي عام ١٨٩١، تم اختطاف، وشق، أحد عشر مهاجراً إيطالياً، وفي عام ١٨٩٩، اختطف خمسة آخرون وفي عام ١٩٠٠، اختفى ثلاثة آخرون تحت ظروف غامضة.

٤ - شهدت الفترة من ١٨٨٩* إلى ١٩١٨ ما مجموعه ٢٥٠ حالة لـ«لينشنج» أخرى (اختطاف مساجين وشقهم ضد سلطة القانون)، وكان معظم أصحاب الاختطاف من السود، كما تم اختطاف قلة من أعضاء الأقليات الأخرى. ولكن لم يكن هناك سوى حالة واحدة فقط اختطف فيها يهودي، وشق،

وهي حالة ليوفرانك وهكذا نحوّل الاستثناء إلى قاعدة، ونحوّل الخاص إلى عام، ونحوّلت الواقعة العابرة إلى رمز عالمي مركزيّ وقد صدر عضو عن فرانك في عام ١٩٨٦ وبُريء اسمه.

بين حشد الحقائق ومعرفة الحقيقة

فيما سبق، لم نحاول أن نقرض معنى محدداً على الحقائق بدلاً من المعنى الصهيوني المعصري الإنساني، وإنما وضعناها في سياقها التاريخي الاجتماعي الإنساني العريض، فظهر معناها الإنساني الكامل وحده، وتكشف لنا أن الضحايا اليهود لم يسقطوا بسبب يهوديتهم المطلقة ولسبب غير مفهوم أو ميتافيزيقي، وإنما سقطوا نتيجة لمركّب من الأسباب الاجتماعية التاريخية المفهومة، وأن يهوديتهم لم تكن سوى عنصر واحد ضمن عناصر كثيرة، بل لم تكن يهوديتهم ذاتها سوى بلورة لعناصر أكثر عمقاً. إذ لا يظهر اليهودي كيهودي، وإنما كمرابط (تهمة الدم) أو كألتراسي أو عميل ألماني أو أجسي (دريغوس) أو شمالي علماني جامعي صاحب مصع (ليوفرانك)؛ وأن الهجوم الذي كان يتمّ على اليهود ليس مقصوراً عليهم، وإنما هو هجوم موجّه ضد كل القوى المماثلة في المجتمع.

وقد ذكرنا كل هذا لا من قِبل تبرير الهجوم على اليهود، أو غيرهم من أعضاء الاقليات؛ فهذا بما لا يسمح به الإسلام (على عكس ما قد يتصوره البعض، وعلى عكس ما يشاع) ولا يمكن تبريره، وإنما ذكرناه من قبيل محاولة فهم الوقائع واستخلاص معناها الحقيقي. ويلاحظ أنا بهذه الطريقة نسقط عن اليهودي عجاليته وإعجازه وفرادته (التي بصرّ عليها الصهاينة والمعادون لليهود)، وتستبد له إنسانيته. وإذا ما أدركنا المعري الإنساني الكامل في واقعة ما، يكون الحرّ من أجل الصحة حزماً إنسانياً لا يُوظف في خدمة عقيدة عنصريه استيطانية؛ إذ أنه إذا سقط اليهودي (شأنه شأن أعضاء الاقليات والجماعات الأخرى) ضحية العنف في مجتمعه، يصبح الحل هو أن ينضمّ إلى الجماعات التي تدافع عن حقوق الإنسان (من أعضاء الاقليات الأخرى وأعضاء الأغلبية)، وأن يتنازل من أجل حقوقه

داخل مجتمعه ونصيح القضية هي كيف ندافع عن حقوق اليهود السياسية والمدنية، والدينية (وحقوق غيرهم من الأقليات) داخل وطنهم، لا أن نطالب بتهجيرهم (أو خروجهم) كما يفعل المنصريون من الصهاينة وأعداء اليهود.

وثمة قضية أخرى تتجاوز اليهود والصهاينة والمعادين لليهود؛ إذ أنها قضية معرفية ذات طابع نظري، وهي علاقة الحقيقة بالحقائق. فمن كثيراً ما نتصور أن الحقائق هي الحقيقة. ولذا، نحاول أن نكون «موضوعيين في رصد الحقائق» ولكن الحقائق التي أتى بها الصهاينة كانت، كلها، حقائق موضوعية، ووقائع نمتة، حُلقت تحت اسم الناس ويصرهم.

الصهاينة، في أغلب الأحوال، لا يحتلون الحقائق، وإنما يجتزئونها وحسب، ومن خلال اجترائها ومرعها من سياقها يفرضون عليها المعنى الذي يريدون. وحيث أنه من المستحيل أن يرصد الإنسان كل الوقائع الخاصة بحدث ما، يصبح الاختيار مسألة حتمية، ويصبح أساس اختيار الحقائق، لا الحقائق ذاتها، هو ما يشكل مدى صدقها من زيفها، فالصدق والكذب ليسا كامين في الحقائق الموضوعية ذاتها (هل هي صادقة أم كاذبة؟)، وإنما في طريقة تناولها، ولي القرار الخاص بما يُسم، ويسمى، منها. ومن هنا قولنا أن الحقائق شيء والحقيقة شيء آخر (والحق شيء ثالث). ما للحقائق شيء مادي صرف يوجد في الواقع على هيئة تنامييل متناثرة، أما الحقيقة فهي لا توجد في الواقع، وإنما يقوم العقل بتجربتها واستخلاصها بعمليات عملية، حتى يصل إلى هذه الفكرة الكونية التي تعمّر أكبر قدر ممكن من الحقائق المتناثرة (أما الحق، فهو ينتمي إلى عالم المثل والإيمان، وهو يشكل المنظور الأخلاقي المطلق الذي يحاكم الإنسان منه كلاً من الحقائق المادية والحقيقة الفكرية العقلية).

٢ = الصهيونية والرومانسية

إعادة التفكير في طرق التفكير

من أهم الطرق لفهم الآخر هو التوصل إلى رؤيته للكون وإلى مفهومه للإنسان (نموذجه المعرفي) والإدراك الصهيوسي للكون هو إدراك روماني (بالمعنى المحدد الذي ستوضحه فيما بعد). وفي هذا القسم لن نكتفي بوصف الرؤية الصهيونية للكون وإنما سنحاول كذلك أن نبين بعض الخطوات التي اتبناها في عملية تفكيك الإدراك الصهيوني وما سمي التحليل النماذجي أو تحليل الواقع من خلال استخدام نماذج معرفية ، أي أننا ستتحرك في هذا القسم على مستويين مستوى للصوم (علاقة الصهيونية بالرومانسية) ومستوى التهيج (كيف وصلنا إلى ما وصلنا إليه من أفكار)

الصهيونية والرومانسية

تعريف الرومانسية أمر صعب للغاية ولكنه ليس مستحيل^٢، فهو اصطلاح شامل لعدد كبير من الاتجاهات، تتأين في أوقاتها وأماكنها ودهانها وحيث أن تعريف الرومانسية بشكل جامع مانع قد لا يفيدنا كثيراً، فلنحاول أن نقدم هذا المفهوم الفلسفي من طرق حصر بعض السمات الرئيسة (التي تسمى في المقارنة التي سمعناها بين الصهيونية والرومانسية) ، وهذه السمات هي في واقع الأمر شيء واحد ولكننا قسمناه إلى عناصر مختلفة كضرورة تحليلية.

كانت الرومانسية ثورة ضد التنمية والمادية وكل الاتجاهات الميكانيكية التي تحاول أن ترد ظاهرة الإنسان إلى شيء خارج عنه - ترده إلى الاقتصاد، أو إلى هذا العنصر المادي أو ذلك. ولذا حاول الرومانسيون أن يبحثوا عن حقيقة بسيطة كامنة وراء الأشياء - حقيقة ثابتة وراء التغير، حقيقة مطلقة تتجاوز استطاع ومن هنا لم يعد العالم المادي بالنسبة لهم شيئاً ميثاً، خاضعاً لقوانين الميكانيكا، وإنما شيء حتى بعض

بالحياة تسرى فيه الروح بصلح كعلامة وكشاهد على وجود المطلق الذي كان يفارقه
بعض الرومانسيين بالله عز وجل إن الرومانسية أعادت الحفيفة والحياة للأشياء

ولكن كيف يتأتى لنا أن نصل إلى هـ ' المطلق؟ عالم الحواس عالم معس،
ولابد من طريقة جديدة للإدراك، ومن هنا شانت أهمية الخيال، فالخيال وحده هو
الذي يمكن الإنسان من تجاوز عالم المادة ليصل إلى المطلق. والخيال لا يتدع صوراً
خرافية لا علاقة لها بالواقع، وإنما يساعد الإنسان على تحطيم المعطيات الحسية ما
يبحث صوراً دالة، تعيد صياغة الواقع وعلاقاته، بحيث تجسد جوهر هذا الواقع

ولكن كيف يمكن للخيال أن يلعب دوره هذا؟ يجيب الرومانسيون على هذا بأن
العاطفة هي التي يمكنها أن تعمل ذلك، فالإنسان في حالته العادية، وفي حياته
اليومية، لا يستحس سوى حواسه وعقله (بالمعنى الضيق للكلمة)، أما إذا جاشت
عواطفه فإنها ترهف حواسه وتعمق إدراكه بحيث يتجاوز السطح ليصل إلى
الاعماق والمطلق وإلى جوهر الأشياء. إن العاطفة تهدم حدود الحواس والأشياء،
ولذا فالصور الشعرية الخيالية تتسم بوحدة داخلية عضوية متخلصة تمام الاختلاف
عن الوحدة الخارجية (المطانية) التي تتسم بها الأشياء العادية؛ فالأولى مستفدة من
مطلق الروح الحلي والثانية مستفدة من منطق الأشياء الميتة.

الإنسان الرومانسي الذي يتجاوز السطح ويدرك الجوهر عن طريق الخيال الذي
تشحله العاطفة، إنسان فردي متصرد - فردي لأن العاطفة على عكس العقل لا
تخضع لقانون، ولذا فمن يعبر عن عاطفته إنما يعبر عن ذاته، ومن يعبر عن ذاته
فهو يعبر عن فرادته التي لا يشاركه فيها إنس ولا جان

ويمكن تلخيص الموقف الرومانسي بأنه موقف يؤمن بمقدرة عقل الإنسان (بالمعنى
الواسع للكلمة الذي لا يستبعد العاطفة) على الإدراك المبدع للعالم وعلى صياغته
ونشكيله. ويمكن تفسير كل الموضوعات الرومانسية الأخرى في هذا الإطار،
فالعودة للطبيعة وللماضي هي عودة لعالم يسهل العيش فيه على المطلق وعلى

الثبات، عالم ينسم بالوحدة العضوية الداخلية، يمكن للخيال أن يخلق فيه، ويمكن للعقل الخلاق أن يطلق لنفسه فيه العنان.

ومن الهام أن نقرر في هذا السياق أن الرومانسية كانت هي الرؤية الفلسفية السائدة في أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين بل ويؤمن كثير من مؤرخي الإنكار أن الفكر الأوروبي الحديث، رغم ثورته على الرومانسية، فكر في صميمه روماني وقد ظهرت الصهيونية كفكر سياسي في منتصف القرن التاسع عشر، وتبلورت في العقدين الأخيرين منه، وعُقد المؤتمر الصهيوني الأول في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، أي أنها ظهرت في وقت ساد فيه الفكر الروماني في العالم العربي، والعرب (وليس العالم كله) هو الذي أقر الصهيونية وهو الذي أرسل يهوده لنا.

وإن نظرنا إلى الصهيونية لوجدنا أن النموذج المعرفي الكامن وراءها يحمل كثيراً من سمات وملامح الرومانسية، ولناخذ السمة الأولى، أي البحث عن مطلق يتجاوز السطح. الفكر الصهيوني يدور حول مطلقات ثابتة غير خاضعة للتغير مثل الشعب اليهودي المحتار وحقوق الشعب اليهودي والأرض اليهودية المقدسة، فهذه كلها مطلقات تتجاوز التاريخ وسطحه وحدوده. ومصدر إطلاقها كلها هي أنها يهودية - أي أن المطلق الذي لا يحسب من اليهود واليهودية - أما أولئك الذين هم دراساتي عن الصهيونية فسميت بتداخل النسي والمطلق في كل الظواهر الصهيونية (الحلولة أو الكموية الصهيونية)، بحيث تصح كل الأشياء مطلقه بما هي ذلك أتمه المتماثل - الدولة اليهودية - علم إسرائيل نجمة داود - حبيطة السموس الإسرائيلية - ولتنظروا إلى المصطلح السياسي الصهيوني وإلى موقف الصهاينة من صم الأراضي لا يمكن التعرّيط في هذا الشبر لأن اليهود لهم علاقة خاصة به، ولا يمكن التنازل عن قطعة الأرض تلك لأنها مقدسة. والحدود الآمنة هي هي الواقع الحدود المقدسة أو الحدود المطلقة، أي الحدود اليهودية ويجب أن تشير هنا إلى أن الصهاينة نظروا لأن معظمهم ملاحدة يتحول المطلق عندهم إلى أمر

داتي - فالمطلق هو ما يشاءون أما بالنسبة للأقلية الصهيونية التي تدهي الانتماء لليهودية فتنة مساواة حلولية في وجدانهم بين المطلق و الشعب اليهودي، ولذا فتنة مساواة بين الاله والشعب اليهودي، وهذا هو أساس فلسفة مارتن بوبر الحوارية، وبالتالي فالمطلق هو أيضا ما يشاء أ. ساء هذا الشعب.

والفكر الصهيوني فكر لاعقلاني يعود للعاطفة ويرفض الفكر العقلاني الاستناري الذي كان يدعو لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها والذي كان ينظر الي اليهود باعتارهم أقلية دينية أو إثنية ، مثل أية أقلية أخرى تعاني من الاصطهاد ولكنها يمكنها أن تحصل على حقوقها عن طريق الكماح من أجل تحقيق مزيد من المعادلة الاجتماعية.

أما من حيث العراة والعربية فهذا موضوع أساسي في الفكر الصهيوني، وهو ولا شك مرتبط بفكرة المطلق. فالمطلق الصهيوني الذاتي، فريد مقصور على الصهاينة. وهم يتحدثون دائما عن التجربة التاريخية لليهودية باعتبارها تجربة فريدة لا يمكن أن يشارك فيها غير اليهودي، بل ولا يمكن أن يدركها غيرهم. ومن مظاهر فريدة التاريخ اليهودي أنه لا يمكن أن يستمر في مساره الحقيقي خارج فلسطين - ولذا لابد من العودة إلى هذا المطلق ويفسر بعض الصهاينة معادلة اليهود واليهودية على أنها رد فعل لعراة اليهود (المتأخرقة أو الاجتماعية) لأن الكيان اليهودي المريد يشير حفيظة الآخرين من الأغباء، ولذا يجب أن يكون لليهود دولتهم المريدة التي يمارسون فيها مرادتهم بشكل فريد

والعقل اليهودي الخلاق، القادر على إعادة صياغة الواقع أمر يصر عليه الفكر الصهيوني واعتدالياته. والحديث عن الصحراء التي احصوضرت والمستنقعات التي جففت هو حديث عن هذا العقل.

وعكرة العمل العبري، وهي فكرة معنوية في الفكر الصهيوني، هي فكرة رومانسية حتى النخاع- إذ تحت هذا الشعار يُطلب من اليهودي أن يعود إلى أحضان الطبيعة في بلاده الأصلية، فيعيش ببساطة ويعمل بيديه. وهو حين يعمل

ببديه (عملا عبريا) فإنه سيسعد هياغة أرضه، ومن هذه العملية سيولد الإنسان العبري الجديد (الذي لا يختلف عن الإنسان الطبيعي الذي بشر به الرومانسيون منذ رومانو حتى الآن). والفكر الصهيوني، شأنه في هذا شأن الفكر الأوروبي منذ نهاية القرن التاسع عشر، فكر عفسوي، يصر على أن العلاقات بين الأشياء علاقة عضوية، والرابطة بين اليهودي وأرض الميعاد رابطة عضوية لا تتمصم عراها.

وفكرة الطبيعة التي تمور بالحياة والحياة التي تسم بالدينامية والعقل المبدع الذي يطمس معالم الأشياء وحدودها ليبرز جوهرها فكرة أساسية هي الفكر الصهيوني الذي وسمه في دراسة أخرى بأنه فكر صيرورة مطلقة يشبه في هذا الفكر العربي الحديث، خاصة في عصر ما بعد الحداثة.

والفكر الصهيوني، في نهاية الأمر، فكر يتشوى، وفي تصوري أن نيتشه من أهم المفلسة العربيين في العصر الحديث إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، فهو فيلسوف الإمبريالية والداروينية الأكبر. ويمكن أن يرى خطأ واضحاً يمتد من مكيا قبل إلى عبر الفلاسفة الماديين والشمعيين إلى أن يصل إلى نيتشه الذي عرف معروفته العدمية - النتيجة الحتمية للفلسفة المادية، بل وعرفها على أنها أعية الروح الوحيدة. والصهيونية تؤمن لا بالرجل المستفوق وإنما بالأمة المتعوقة، ويكل القيم الداروينية من احتقار للمضيئة إلى الحميد للقرّة - رابعد الصهيونية - مثل النيمفريّة، أصدق مثل على ماسميته دين دون إله؛ من إيمان بحقيقة مطلقة دون أخلاقيات، وبمطلق القوة، وبالتسامي فوق كل الحدود، أي أن تصيح الذات هي المطلق الوحيد (توثن الذات، كما سماها العقاد رحمه الله).

هذه هي بعض مواطن التماثل في بية الفكرين الصهيوني والرومانسي. ويمكننا أن نخلص إلى بعض النتائج، بعضها ذات طابع منهجي، بنصب على طريقة التفكير وكيفية استخلاص النتائج من المقدمات، والبعض الآخر ذو طابع مضموني، أي يزودنا بمضامين فكرية جديدة.

النتائج المضمومة

ولبدأ بالأمر الأسر، أي النتائج المضمومة التي يمكن أن تتوصل لها بخصوص الصهيونية، والتي نوجزها فيما يلي:

١ - الباق الأساس للحركة الصهيونية هو الحضارة العربية في القرن التاسع عشر والتشكيل الإمبريالي العربي (والرومانسية كانت أحد روافد هذه الحضارة وكانت الفكر المهيمن آنذاك) أما الدين اليهودي فهو - في قصوري - لم يكن سوى مصدر لشكل الصهيونية اليهودي أو ديباجاتها واعتدالياتها، وأما ما يسمى بالتاريخ اليهودي فهو أمر لا وجود له إلا في الكتب الصهيونية والمعادية لليهود واليهوديه - أو في كتابات بعض العرب الذين يرددون المفاهيم العربية دون فحص أو تدقيق. ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية ظاهرة عربية استعمارية، وليست ظاهرة يهودية عالمية أنها لم تنشأ في صفوف اليهود العرب أو يهود إثيوبيا (على سبيل المثال)، كما أنها لم تنشأ في صفوف يهود الغرب إلا في القرن التاسع عشر، عصر الرومانسية والإمبريالية والتوسع.

٢ - لا يختلف المودج الكامن وراء الصهيونية كثيراً عن المودج الكامن وراء معاداة اليهودية. فكلاهما يرى اليهودي على أنه شخص فريد هامشي، ينتمي للشعب اليهودي وللتاريخ اليهودي، ولذا لا يحسن أن يدين بالولاء للبلد الذي يعيش فيه أو للأمة التي ينتمي إليها، وهو لكل هذا شخصية مخربة مدمرة. ولا بد من إنهاء هذا الوضع الشاذ عن طريق تصفية الوجود اليهودي في المنفى، أي في العالم بأسره. والمطلق الصهيوني والمعادني لليهود متطابقان تمام المطابق، قد يختلف العريشان في طريقه بعيد الرماح، ولكنهما مع هذا لم يحجما قط عن التعاون الواحد مع الآخر. ولذا فتاريخ الصهيونية هو أيضاً تاريخ تحالف القيادات الصهيونية مع أعداء اليهود في كل مكان. ولذا فالعرب الذين يشعلون أنفسهم بترجمة البروتوكولات والحديث عن الأقمى اليهودية واحتها الحية الصهيونية يخدمون المخطط الصهيوني من حيث لا يدرون.

وليس المقارنة التي عقدناها بين الصهيونية ومعاداة اليهود واليهودية هي مثال تطبيقي لما سميتة بالتحليل المادجي في مقابل التحليل المضمومي، إذ أنه من زاوية المضموم المباشر تفق معاداة اليهود على طرف النقيض من الصهيونية، باعتبار أن الأولى تعادي اليهود أيما كانوا، بينما تدافع الثانية عن اليهود أيما كانوا. ولكن التحليل المادجي المتعمق (للنصوص والطواهر) الذي يصل إلى العلاقات الكامنة يبين التماثل الذي لم يبينه التحليل المضمومي المباشر

وحتى لا يساء فهم بعض الأفكار التي وردت في هذا الحديث أحب أن أضيف أن الأسطورة الصهيونية، بكل رومانسياتها، قُدر لها الاستمرار والانتشار بسبب التمويل العربي للكيبان الصهيوني، فقد يسر هذا للصهيانية الاستمرار في أحلامهم الوردية المطفئة، وهي تركيزهم على الثأث دون المتعير فالإنسان لا يصل إلى نوع من العفالية وإلى شيء من التوازن بين الحلم والواقع إلا من خلال الممارسة التي يدمع أثناءها ثمر أخطائه وشطحاته أما بالنسبة للصهيانية، فثمة قوى خارجية هي التي تسدد هواتير أحباطهم وأوهامهم، ولذا فهم يستمرون في ترديد شعاراتهم العاشية ويحدثون عن حدودهم المقدسة الآمنة ويطرحون برامجهم للسياسة المطلقة التي تعود جذورها إلى ماضي سحيق لم يبق منه سوى بعض الآثار والاطلال.

وفي النهاية أرجو ألا يهمهم من دراستي هذه مايلي.

١ - أنني قرنت الرومانسية بالصهيونية وعادلت بينهما.

٢ - أنني ذكرت أن الرومانسية قد نسييت، بشكل أو آخر، في ظهور الصهيونية

٣ - أنني قلت أن الرومانسية تشبه الصهيونية.

٤ - أو أنني قلت إننا يجب أن نقبل الصهيونية لأنها رومانسية، أو نرفض

الرومانسية لأنها مقترنة بالصهيونية.

كل ما قلته هو أنني من خلال تحليل لمادجي متعمق (نضمن النصوص الأدبية والوثائق أننا بحاجة والمثلية والاجتماعية وحركة التاريخ نفسها) نوصلا إلى أنه شمة لمانزل بين بسية الصهيونية وبنية الرومانسية أو إلى أن بنية الصهيونية رومانسية وهو^١، نل متوقع باعتبار أن الرومانسية كانت تشكل أهم عناصر السياق العام للمعكر الغربي في القرن التاسع عشر.

بعد هذا التصنيف والتوصيف لكل من الرومانسية والصهيونية يجب ألا نقع بهذا المستوى، وإنما ينبغي كمسلمين وكعرب أن نصلر أحكاماً أخلاقية قيمة، وإن لم نعمل نكون كجماد ينظر إلى حماد أما الرومانسية فأنا من المعجيين بكثير من جوانبها، وأعتقد أنها كنسق فلسفي وكطريقة للإدراك تخلق التوجه المطلوب نحو الرؤية الإنمائية، وذلك على عكس الفلسفة النعمية العقلانية التي تخلق التوجه نحو الفلسفات العلمانية والمادية إن الرومانسية هي المرحلة التي يدخلها الإنسان الذي يؤمن بإعلاص الحواس ويعشل الأمر الواقع في إشباع جوعه الروحي .

ولنلاحظوا ما أقول - لا الرومانسية تؤدي إلى التدين ولا العقلانية تؤدي إلى العلمانية والمادية - فهناك ماديون رومانسيون (مثل البارزين والماركسيين) وهناك متديون عقلانيون مثل المعتزلة وكثير من المعكرين المسيحيين في القرن الثامن عشر. كل ما أقوله أنه شمة ترابط اختياري أو علاقة قريى بين الرومانسية والتدين

بعض الملاحظات المنهجية

يمكننا الآن أن مذكر بعض للملاحظات المنهجية التي يمكننا استخلاصها من عملية التمكيك والتركيب التي قمنا بها.

١ - يجب أن نمصل ونحدد، على مستوى التحليل، بين الوصف والتقييم، فالوصف يتطلب نوعاً من التجرد من القيم ورفضاً لمحاكمة الأشياء والظواهر من أي منظور أخلاقي أو فلسفي، كما يتطلب الرؤية الدقيقة التي نحاول أن نصل إلى القوانين الخاصة التي تتحكم في الشئ والتي نطلق عليها مسطق

الظاهرة فإن وصفت الصهيونية بالرومانسية فهذا لا يعني رفضاً أو قبولاً للصهيونية، كما لا يتضمن حكماً قيمياً على الرومانسية.

- ٢- الوصف المتعمق والتصنيف الدقيق والتحليل النمادجي يجب أن يتجاوز المضمون الواضح والمباشر ليصل إلى نية المكر ونمودجه المعرفي الكامن والنمودج المعرفي يتجاوز المضمون بل والشكل بالمعنى السطحي ليصل إلى العلاقات الأساسية التي تربط بين العناصر المختلفة المكونة للظاهرة - وهذا مختلف تماماً عن تصور دعاة البنيوية لفكرة النمودج، فهم يتبنون أساساً نماذج لمرية أو أنثروبولوجية أو رياضية عامة ومجردة برصنوع وجودها في كل الظواهر في كل زمان ومكان بعض النظر عن خصوصيتها وتفردتها، ولذلك فالبنوية تذكر التاريخ والزمان لأن تجريديتها تجعلها تصل إلى مايا ثابتة جامدة شبه مطلقة أما رؤيتنا نحن للنمودج فأكثر تركيبية وإنسانية، فالنمودج ليس له وجود إمبيري ومع هذا فإن الباحث يقوم بتجريدته من خلال قراءته المتعمقة للنصوص وظواهر متماثلة مختلفة محاولاً الوصول إلى ما هو عام وخاص فيها وكيف يتقاطعان. ولذلك فهو يتجاوز النصوص والظواهر إلى حد ما، ولكنه لا يصل إلى مستوى عالٍ من التجريد بحيث يفقد الصلة بخصوصية النصوص والظواهر موضع الدراسة أو بالملحظة التاريخية التي توحد فيها. بل إن التاريخ أو البعد الزمني يشكل أحد عناصر النمودج الأساسية الذي يمنحه كثيراً من خصوصيته وتفردته والنمودج المعرفي التحليلي في نهاية الأمر يمكن اختبار مس قدرته التفسيرية بالعودة للظواهر والنصوص التي تم تجريدتها منها.
- وكلمة «نمودج» كما استخدمها هي قريبة في معناها من كلمة Theme الإنجليزية وهي تعني الفكرة المجردة والمحورية في عمل أدبي ما والتي تتجاوز العمل ولكنها مع هذا كائنة فيه وهي كل أجزائه، تمنحه وحدته الأساسية وتربط بين عناصره المختلفة. كما أن الكلمة قريبة في معناها من مصطلح «السمط المثالي» Ideal Type الذي استخدمه ماكس فيبر كأداة تحليلية والسمط المثالي ليس

حقيقة إمبريقية أو قانوناً علمياً، وإنما هو أداة تحليلية تهدف إلى عزل بعض جوانب الواقع وإبرارها حتى ينسج إدراكها بوضوح، ومصرفة أثرها على الواقع. ومعظم الظواهر التي نمكر فيها ليست حقائق إمبريقية، فالرأسمالية اليابانية، والحضارة الغربية، والنفعية، والمفهوم المدرسي للحب، ليست أشياء مادية محددة، ولا يمكن فهمها من طريق القرائن والاستشهادات، وإنما يمكن للمرء أن يبحث نموذجاً افتراضياً للحضارة العربية الحديثة يكون بمثابة امتعاض أو صورة مصغرة تحوي في داخلها سبباً تشاكل سبب الواقع. ولذا فمثل هذا النموذج قادر على تفسير هذا الواقع أو تفسير جريئاته الكثيرة لا كمصامين ماثرة وإنما كسبب متكامل متداخلة ومجموعة من العلاقات الحية.

٣- وفي قصوري أن إحدى مشاكل المكر العربي أنه لا يزال فكراً مضموياً أي يعامل مع المصامين المباشرة ولا يصل إلى العلاقات المجردة الكامنة، أو إلى النماذج المعرفية كما عرفت، ولنصرب مثلاً عملياً على ما نقول بالإشارة إلى حديثين شريعيين.

أ- قال رسول الله ﷺ: «هدبت امرأة في هرة، حبستها حتى ماتت، فدخلت فيها النار فلا هي أطمعتها وسقنتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

ب- قال رسول الله ﷺ: «يسما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ حقه ثم أمسكه به، فقضى الكلب فشكر الله له، فغفر له قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبه أجر» (أي كل حي من الحيوان والطير ونحوهما).

لو نظرنا إلى هذين الحديثين الشريعيين من منظور المضمون المباشر لقلنا إنهما يقمان على طرقي النقيض، الحديث الشريف الأول عن القبط والساء وجههم

والثاني عن الرجال والكلاب والجمعة ، وإذا ظهرت إليهما بمنظار مبيوي (بالعنى الغربي الشائع الآن) لجردتهما إلى سمة لعموية ولقلت إن ثمة تعارضات ثنائية (المرأة ضد الرجل، قط ضد الكلب، الجوع ضد العطش ، وزيادة الجوع ضد السقيا، والجمعة ضد جهنم) ولقلنا - على سبيل المثال - إن العلاقة بين العناصر المحتلقة في الحديثين الشريفين تشبه علاقة الفاعل بالمفعول .

وأعتقد أنه لا التحليل المضمومي الأول، الذي يكتفي بالمضمون المباشر الواضح، ولا التحليل البيوي الثاني، الذي يجرد الحديث من أي مضمون ويحوّله إلى سمة لعموية مجردة أو بنية هندسية طريقة خالية من المضمون لا هذا ولا ذلك يعني بالعرض، وبمكسأ أن يقول إن التحليل المأذحي، بالمعنى الذي أطرحة للكلمة، لن يقوم بتحليل الحديثين للوصول إلي نماذج لقوية أو أنثروبولوجية عامة، وإنما سيجرد منهما نماذج معرفية تؤكد العام والخاص، وتتحرك من المضمون الخاص إلى البنية العامة المجردة دون أن تنسى خصوصية الحديثين ويمكن أن يرى الحديثين في هذا الضوء على أنهما يحاولان تحديد علاقة الرجل والمرأة بالقط والكلب، أي علاقة الإنسان بالحيوان، بن والإنسان بالطبيعة وبمكتا القول أنها هي جوهرها علاقة توازن مع الطبيعة (عُذبت المرأة في مرة) (بلغ هذا مثل الذي بلغ مبي) (هي كل ذات كبد رطبة أجرة) ولكنه توازن لا يبطوي على مساواة بين الإنسان والطبيعة (إنا عرضا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا)، وإنما تفترض تميز الإنسان وتفرده ومثولته ففي الحديثين الشريفين الفاعل هو الإنسان (رجل أو امرأة) والمخلفي هو الحيوان (قط أو كلب) والثواب والعقاب من نصيب الفاعل المنول وإن تعمقنا لوجدنا أن بنية الحديثين تتسق مع النهج الإسلامي في التفكير ومع النبة الكامنة في القرآن الكريم والحديث الشريف ومع السجود المعرعي الإسلامي وبنية الإسلام الفلسفية ككل

٤ - يشتم التفكير المضمومي أنه لصيق بالواقع لا يحاول تجاوزه، ولذلك كما يسا
لنجد أن النظم التصنيفية ذات الطابع المضمومي ليست جيدة ولا معيدة. فالتفكير
المضمومي يبدأ عادة من الشواهد الملموسة والقرائن الحسية. أي من مكونات أو
عناصر المضمون المختلفة، ولذا فهو يظل حبيس هذا المضمون وحبيس الأسراء،
لا يمكنه أن يصل إلى الكل إلا بصعوبة بالغة. وحين يصل إلى هناك يصعب
عليه أن يربط بين هذا الكل وكميات أكثر تجريداً لأن عيونه مستقرة دائماً على
الشواهد والقرائن والاستشهادات الحسية المتناثرة الملموسة. فالتفكير
المضمومي «يحدث ولا يخلق» (على حد قول جمال حمدان) ولا يمكن أن يصل
إلى الكميات ولذلك يمثل هذا التفكير لا يمكنه أن يأتي بأطروحات جديدة
خلاقة، ويمثل حجرة عثره في طريق الإبداع، بالإبداع هو أساساً اكتشاف
علاقات جديدة بين الأشياء. بل إن الهوية الحقيقية لأي شئ لا توجد فيه في
حد ذاته أو في عناصره المختلفة وإنما توجد داخل شبكة مركبة من العلاقات بين
هذه العناصر.

ولتحليل عالمنا إسلامياً يتعامل مع الأحداث الشريفة من منظور المضمون وحسب
لا شك أنه سيمثل في ربطها مع المفاهيم الكلية الإسلامية الأخرى. هذا على
عكس عالم إسلامي على قدر كبير من الخيال والثقافة والاطلاع والمعرفة بالتراث
الديني، كنصوص وكممارسات عبر التاريخ الإسلامي قادر على تجريد النماذج
المعرفية الكامنة فيها، وعلى تجريد النموذج المعرفي الكامن في الحديثين. سيكون
بوسع هذا العالم أن يأخذ النموذج الذي جردناه بخصوص التصور الإسلامي
لعلاقة الإنسان بالطبيعة، باعتبارها علاقة اتصال وانعصال، علاقة امتزاج وليس
علاقة هيمنة علي الطبيعة أو اذعان لها. وسيكون بوسعه أن يزيد هذا النموذج
كثافة بالعودة لبعض ممارسات الصحابة - رضي الله عنهم - وممارسات بعض المسلمين
في أثونيا - على سبيل المثال - وممارسات المسلمين في العصر العباسي. ويمكنه
أن يربط هذا النموذج المعرفي التحليلي بالموقف الإسلامي من الذبح الخرمي

وقوانين الطعام، بل ويمكنه أن يربط هذا النموذج بفكرة السنة القمرية الإسلامية (التي تحالف فصول الطبيعة بحيث يأتي رمضان في الصيف أحيانا وفي الشتاء أحيانا أخرى) وبفكرة التقويم الإسلامي الذي يبدأ بالهجرة وليس بميلاد الرسول - باعتبار أن الهجرة عمل يقوم به فاعل بوحى من الخالق - عمل إنساني واع، وليس عمل طبيعي مثل الميلاد.

٥ - ومن خلال النماذج المعرفية يمكن أن نقوم بعملات ذهنية فنقول إن كان كذا فمن الممكن أن يكون كذا. ثم نحسب هذه الافتراضية الجديدة التي ولدت من النموذج بالعودة للواقع ويمكن تصور العلاقة بين النموذج التحليلي والواقع على أنها علاقة حلزونية، إذ أننا نحتسب النموذج الافتراضي عن طريق معاشتنا لواقع ما وعن طريق تأملنا فيه وعن طريق قراءتنا وتحصيلتنا. وبعد نحت النموذج نعمل فيه الدهن والفكر لنولد علاقات افتراضية، نكتشفه وتصقله ثم نعود به إلى الواقع، فيبره لنا ولكن الواقع في كثير من الأحيان، يتحدى النموذج فيجعله ويريد من (تكتفه ومسقله). الحركة إذن من الواقع إلى العقل ومن العقل إلى الواقع، وأثناء هذه العملية الحلزونية يرداد النموذج التحليلي كثافة وحيوية أو مقلدة على التعبير تماما كما فعل العالم الإسلامي، صاحب الثقافة والادع.

٦ - النموذج المعرفي التحليلي هو استعاره مكثفة منسجعة على الواقع، وهو كاستعارة يعبر عن جوهر الواقع كعلاقات متشابكة، دون أن يكون لصيقا به وحسما نقول استعارة محس لا نعني شيئا حياليا هبط علينا من القمر، وإنما نتحدث عن وسيلة لإدراك ما لا يمكن إدراكه بشكل مباشر مطراً لركبته وكما نعلم يصف القرآن الكريم الله سبحانه وتعالى بأنه (ليس كمثله شيء) أي أنه لا توجد لغة يمكنها أن تاعدها على إدراك كنه الله عز وجل. ولكن مع هذا ينقل القرآن الكريم مفهوم الله إلى عقل الإنسان القاصر عن طريق الاستعارة المركبة، (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) وباللها

من استعارة متواضعة، ولكنها تعكس لعقل الإنسان القاصر فكرة اللامتناهي ثم يطلق القرآن من هذه الاستعارة فيسكنهما (المصباح في راحة، الرجاجة كأنها كوكب دري). وهكذا خرجنا من الاستعارة المتواضعة المستقرة في عالم الحدود إلى استعارة أخرى تكاد تكون لا متناهية، فعقل الإنسان حينما ينظر إلى الكوكب الدري، فإنه يشعر بالرهبة - ولكن الرهبة هنا لانزال رهبة أمام المخلوق، ولكنها مع هذا تصلح كاستعارة على الرهبة التي يمارسها الإنسان أمام الخالق - استعارة وحسب إذ يضل الله وحده هو اللامتناهي. ثم بعد الإشارة إلى اللانهاية والإحياء به يعود مرة أخرى لعالم المألوف (يوثق من شجرة مباركة زيتونه لا شرقية ولا غربية)، لازلنا في عالم للنور الإلهي، ولكننا انتقلنا من المشكاة إلى الكوكب ثم يعود إلى وفود المشكاة؛ إلى تلك الشجرة المباركة التي أحد منها الريت، ثم يصل إلى الريت بمسه (يكاد ربتها يضيء ولو لم نسمه بار) وهكذا تزداد الاستعارة كثافة بإضافة الأبعاد لها، ويرداد تثبت مكرها مما يبعدها عن أي تجسد أو تشبيه ولا يمكن أن ندعي أننا نترك الذات الإلهية إدراكاً كاملاً في نهاية الآية، فهو عر رجل ليس كمثله شيء، وإن كنا قد افترضنا أنه في إدراكنا بعض الشيء.

٦- الدعوة إلى التفكير المادي، أي التفكير من خلال نماذج تحليلية والابتعاد عن التفكير المصمومي، هي أيضاً دعوة للاعتدال عن الإصرار على مستوى عال من اليقينية، وأن نبحث عن مستوى من اليقينية في العلوم الإنسانية يختلف عنه في العلوم الطبيعية (ولعل الفكر المصمومي هو نتاج العقلية العلمية بالمعنى الشائع للكلمة التي يرى أنه لا يمكن أن يصل إلى الحقيقة إلا عن طريق الملاحظة المبريضية ومراكز المعطيات ثم التوصل إلى النتائج) - مستوى اليقينية الذي نطمح له في دراستنا لتاريخ العباسيين أو لعلاقته الرومانسية بالصهيونية مختلف عن مستوى اليقينية في دراسة عن تكوين الأرض في منطقة الرياض أو مسوب بناء الجوفية فيها - فالعناصر المكونة للظاهرتين الأولىين عناصر مركبة، بعضها

مجهول لدينا، وربما قد يظل مجهولاً أبداً الأبدية. كما أن العلاقة بين عنصر وآخر وتأثير الواحد في الآخر أمر صعب التحقق منه، ومن هنا كانت ضرورة المادج الافتراضية، ومن هنا أيضاً البحث عن مستوى حاصر من اليقينية.

٨ - يمكن أن يؤكد في هذا المضمار أن الواقع الإنساني (أو التاريخي أو الاقتصادي) مكون من عناصر وأنساق مختلفة ليست مترابطة بشكل عصوي أو حتمي، إذ توجد بينهما مسافات. فالمعاصر الاقتصادي في مجتمع ما قد تكون فاعلة في وقت ما، بينما يمكن أن تكون العناصر العقائدية أكثر فعالية في وقت آخر، أي أنه لا يوجد أولوية سيية لأي عنصر على وجه التحديد، وبشكل مبق كما أننا يجب أن نؤكد أن العلاقة بين الفكر والسلوك وبين العناصر المعكبة والاجتماعية والعناصر الأخرى في المجتمع ليست علاقة سيية وإنما علاقة احتمالية، ولذا نجد أن بنية فكرية أو حضارية ما قد تؤدي إلى شئ ما وعكسه. فالرومانسية على سبيل المثال ساهمت في البحث الأدبي في أوروبا وهي بعث الإيمان بفكرة الجماعة العضوية المترابطة (كما بشاقت)، على عكس المجتمع الحديث الذي تراء النظرية الرومانسية باعتباره مجتمعاً درياً تعاقبياً، المروابط به خارجية وليست عضوية (جسيليشتاقت) ولكن الرومانسية أيضاً أقرت الفردية المتطرفة والسيثوية والصهيوية ومعظم التبريرات الفلسفية الإسرائيلية والفردية الصناعية هي الأخرى قد أمدت إلى ظهور تفسير الفردية الكاملة والجمعية المفرطة. ولنفس السبب نجد أن مجتمعاً عنصرياً مثل التجمع الصهيوني من الممكن أن يكون رومانسياً في رؤيته لنفسه ولعالمه، عملياً في سلوكه. والمجتمع النازي مثل آخر على مجتمع نبي أسطورة عنصرية ثم وظف العلم والتكنولوجيا لترجمة الأسطورة إلى حقيقة.

٩ - لعله بسبب وجود مسافة بين الفكر والممارسة، وبين المعكبة والفكرة، يجب ألا نحكم على فكر ميامي كنية فكرية محضة وإنما يجب أن نضع هذا المعكبة في سياق أفكار أخرى وفي سياق الممارسات التي يقوم بها حاملو هذا المعكبة. ولتحليل المسق المعكبي الصهيوني باعتباره محاولة أيديولوجية لبث التراث

اليهودي بين يهود الممى وحسب، أو أن التجربة الصهيونية قد مُثلت في أرض فراغ في الأرجنتين كما كان مقرراً لها في بداية الأمر، بحيث يؤدي الاستيطان الصهيوني إلى حل مشكلة يهود شرق أوروبا وإلى ازدهار الاقتصاد الأرجنتيني دون طرد للسكان وتشريد للحلاليين، وغارات تفكك النازي على مسجيات اللاجئين - دون حاجة إلى صابرا وشاتيل. اعتقد أن اعتراضها عليها ما كان لصح بهذه الحجة والعكر النازي إن قُرا بمعرل عن الممارسة النازية فكر قومي رائع وقد كتب الماريون على أحد معسكرات الاعتقال (إن العمل سيمحك الحرية) وهي ولاشك افكر سامية لم يكن يشارك فيها المعتقلون الذين كانوا يعملون في نظام السخرة.

١ يجب ألا نحكم على سق فكري أو اجتماعي ما إلا بعد توصيفه وتصنيفه، م بصرف بعد ذلك لإطلاق الأحكام القيمية وحسب ما فعل ذلك يجب أن يكون راعين بما نفعل وبأن التقييم يختلف عن الوصف. كما يجب أن نكون مدركين للمظلومة القيمية التي ننطلق منه والفلسفة التي يصدر عنها، وأن نعرف أن الحكم القيمي هو في نهاية الأمر حكم يحوى داخله شرعيته، فإن كنت لحكم على الظاهرة من منظور إسلامي فأنت تفعل ذلك لأنك مؤمن بالإسلام، وبالتالي فمسطق الحكم (الذاتي) مختلف عن منطق الأشياء (الموضوعي). ولعل هذا الموقف يختننا نحن المسلمين من أن نمتنع على العالم دون أن نقد هويتنا وقيمنا، إذ يمكنني، في هذه الحالة، أن أقوم بقراءة عمل أدبي ما فاصفه وأحلله وأبين بيته والصور المتواترة فيه ومعناه وارتباط شكله بمضمونه، بل يمكنني أن أبين مواطن الجمال فيه كعمل أدبي وأربطه بالتقاليد الأدبية التي يصدر عنها-أي أن أقوم بعمل كعالم أدبي ثم بعد أن أنتهي من المرحلة الأولى هذه أنتقل إلى المرحلة التقييمية التي أتحدث فيها كمسلم وأرفض للقيم التي وردت في العمل الذي قمت بتحليله وتوصيفه وتقييمه كعالم أدبي - لرفضه كمسلم لأنه ربما يجسد قيماً أخلاقية لا تتفق مع قيمي الدينية. وهذا لن يضطر المسلم إلى رفض درسه عمل ما أو ظاهراً ما لأنها

تصانيف للدين والأخلاق، وإنما سيدرسها بموضوعية وجدادية ثم يقيّمها من منظوره. وقد يقال إن في هذا تناقض مع الذات، ولكنني أريد قائلًا إن في هذا نقبل الحقيقة الأساسية وهي أن الواقع الإنساني مركب يحتوي على شيء متناحله غير مترابطة. وحيث أنه لا توجد علاقة حتمية بين الجمال والخير والقبح والشر، فعلينا أن نقبل تعدد البنيات فنصف ثم نقيم.

١١- وأخيراً يجب ألا نحجّل من التعميم وآلا نصدد ما يقوله بعض التجريبيين والوصفيين (في العالم الغربي أساساً) من أن التعميم والتجريد أمور يجب الابتعاد عنها بفكر المستطاع وأنهما يجب أن يستندا إلى التجريب وحده وإلى ما يدرك بالحواس الخمسة وحسب. إن التجريد والتعميم أمور أساسية وضرورية للفكر الإنساني فنحن إن قلنا «أخلاقيات العالم الغربي» أو «البرومانية» أو حتى «الصهيوية» فإننا نكون قد فكرنا من خلال تعميمات واستحدثنا مقولات ليس لها أساس تجريبي ولا يمكن إدراكها بالحواس الخمسة وإنما توصلنا لها من خلال نماذج عقلية استراضية تساعدنا على تصنيف معطيات الواقع، وهي مقولات لا يمكن أن يدرك العالم ونصنّفه ونعرّفه ونتعامل معه دونها. وبدون تعميم لا يمكن أن يكون هناك إبداع. فمن خلال التعميم (والتجريد السامع الكامنة) نصل إلى علاقات الأشياء كما ندركها بحر من خلال تجاربنا ونصل إلى تعريفات يمكن لتجاربنا التاريخية الخاصة أن تضوي تحتها

بل ويمكننا القول أنه بدون القدرة على التعميم والتجريد الخلاق لا يمكن أن يحقق أي تحرر من الواقع المباشر، وواقعنا العربي - أي حاصرنا - سلهم العرب في صاغته عن طريق سلعه ومعايمه وجيوشه. وإذا استمر الآخرون في القيام بعملية التعميم باللياقة عناء من خلال تجاربهم هم ومن خلال إدراكهم، فإنهم سينفون علينا بمولاتهم جاهرة إما أن نقبلها صمغ لرويتهم أو نرفضها فتقف في مهب ريح المتعاصيل المتناثرة - وهذا ما أشرنا له في المقدمة بعبارة «إمبريالية المقولات»

ومن أهم الأمثلة على ما نقول تعريف كلمة «قومية» أو «أمة» كما هو شائع في

المعلوم الاجتماعية هذا التعريف ناتج عن التشكيل الحضاري العربي في القرن التاسع عشر، أفرزته الحضارة العربية الصحابية الراسخية (والاشتراكية) بعد قرون من الحروب بين كل دول ومقاطعات أوروبا، وأعقب تسمية عدة حروب صغيرة وحربان عالميتان تحت كلها في إطار هذا المصطلح. وقد صدر لنا - ولكل دول آسيا وأفريقيا - هذا التعريف وبدأنا نحكم على أنفسنا وعلى مجريتنا الحضارية من مظهره بل وبدأ بعضنا يتحدث عن «الشعوب العربية» أو عن «الشعوب المندثرة بالعربية» باعتبار أننا لسنا أمة ولكنهم يتناولون في واقع الأمر أننا لسنا أمة بالمعنى الغربي للكلمة الذي جرى تجريده من البنية السياسية العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

لكل هذا يجب ألا نرفض التعميم بل وأن نصر عليه، على أن يكون مطلقاً من كل التجارب التاريخية والحضارية في الشرق والغرب بل ويمكن أن يكون التعميم مؤقتاً وهو أمر مقبول طالما أنه يفسر جوانب من الواقع، وهو ما يسمى بالتعريف الإجرائي أي تعريف قادر على تفسير جوانب هامة من الظاهرة ولكنه لا يدعي أنه تعريف جامع مانع.

إن ما يجب أن يحدد موقفاً ليس هو مدى دقة التعميم أو مدى تطابقه مع الواقع بل كل مجرد، وإنما هي مقارنته بالحدودية وملائمته له. ترى ماذا يعني الذي اختاره الباحث لنفسه - أي مدى ملاءمته للواقع الذي يجري تفسيره - ولو كان الحديث عن معدل الجريمة في مدينة ألمانية في القرن التاسع عشر فإن المستوى التحليلي لا يسمح بالحديث عن الحضارة العربية إلا كمصغر واحد من بين عناصر أكثر خصوصية ومباشرة ولكن لو كان الحديث عن أزمة المجتمع الحديث فإن الحضارة العربية تصبح مفهولة أساسية ومستوى تعميمياً مقبولا لأنه يتفق مع المستوى التحليلي، أي أن مستوى التجريد لا بد وأن يتطابق مع المستوى التحليلي وهذا في تصوري هو مشكلة البيوية الأساسية، فهي تصل إلى مستوى تجريدي عال ويصل إلى بيئات تشبه البيئات الرياضية، ثم نطبقها على كل النصوص والظواهر

بعض النظر عن المستوى التحليلي، ولذا فهي غير قادرة على التعامل مع خصوصية الأعمال الأدبية ولا مع تاريخية الظواهر الاجتماعية. وتظل صائفة في الشائعات المتعارضة. ونحن لا ننكر هنا جدوى المستوى التجريدي العالي، مهما دله ارتفاعه، ولكن بين عدم جدواه بالنسبة لمستويات تحليلية تكون خصوصية الظاهرة وتاريخيتها أكثر أهمية من جوابها العامة التي تشترك فيها مع ظواهر أخرى فقد قال الرسول ﷺ (لا فصل للمربي علي عجمي إلا بالتقوى) فهو يؤكد تساوي كل الشر وإنسانيتهم المشتركة، وبهذا تصبح التقوى مقياساً واحداً ينطبق عليهم كلهم في كل زمان ومكان ولكنه مع هذا أكد هوية كل، وهي هوية لها خصوصيتها وتاريخيتها فتوجه للمربي وللعجمي ولم يطلب من أي منهما التنازل عن هذه الهوية وإنما اعترف بها بأن توجه لها.

٣- الإدراك والمقدرة التنبئية للنموذج

يمكن القول أنه كلما ازداد النموذج إحاطة بجوانب الظواهر وأبعادها المختلفة، أي كلما ازداد تركيبيه، زادت قدرته التفسيرية والتنبئية. ونحن نرى أن استرداد العامل الإنساني (بدوافعه ورؤى وذكرياته وأحمراته وأفراحه ومصالحه ومصالحته الحقيقية واللتحيلة) هي أهم عناصر التركيب، ومن ثم أهم العناصر في زيادة المقدرة التنبئية للنموذج. وقد يكون من المفيد أن أصرب مثلاً بمحاولة سابقة قمت بها في محاولة رصد الواقع من خلال نموذج مركب وكيف أن زيادة التركيب تؤدي إلى زيادة المقدرة التفسيرية والتنبئية. فقد نشرت في جريدة الرياض (المملكة العربية السعودية) مقالاً بعنوان "إلقاء الحجارة في الصفة العربية" وذلك في ٢٤ فبراير ١٩٨٤. وقد تنبأت في هذا المقال بأن استخدام الحجارة سيكون أحد أشكال الصال الأساسية والواقع أنني توصلت إلى هذه النتيجة بعد صياغة نموذج مركب يسترجع العامل الإنساني الإسرائيلي والعامل الإنساني العربي وإدراك كل منهما للواقع. فبدأته بالإشارة إلى الوهم الإسرائيلي الذي يستند إلى الرؤية المادية بأن «المقاومة قد اجتشت تماماً من جذورها» وأن هناك علامات وفرائض على ما سماه الجنرال بيلامين بن البعازر (منظم الأنشطة في الضفة الغربية وحاكمها العسكري) «الاتجاه المتشدد أو الخلل نحو البرجماتية» والذي يعني في نهاية الأمر «التكيف مع الأمر الواقع وتقبله» (الجزيرة، ١٤ نوفمبر ١٩٨٣). وقد رأى الجنرال إمكانية تقوية هذا الاتجاه عن طريق إنشاء عدد أكبر من البنوك والشركات الاستثمارية، أي عن طريق إشباع الحاجات الاقتصادية لدى العرب وإغراق هويتهم، الأمر الذي يؤدي إلى استعراقهم فكرياً في أمور الدنيا والمال بدلاً من قضايا الوطن والأرض والهوية!

ولم تكن الولايات المتحدة بعيدة عن هذا الاتجاه التطبيعي البرجماتي، فقد قامت الولايات المتحدة (كما أذكر في المقال) بمد يد المساعدة إلى الجنرال الإسرائيلي المذكور، فدُعي إلى الولايات المتحدة ليجتمع مع وزير الخارجية الأمريكية وكبار موظفي الوزارة لبحث معهم كيف يمكن تحسين مستوى معيشة العرب في الأرض

المحتلة (أي مرشد من البوك) وكيف يمكن للولايات المتحدة أن تساهم في التخفيف من حدة بعض جوانب الاحتلال الإسرائيلي عن طريق المساعدات الفنية والتنمية .

وبعد أن عرضت للرؤية الصهيونية المادية الاحترازية للعرب، حاولت أن أحدد الحالة العقلية والتنمية للصهاينة والأهداف المحددة التي يرمون إلى إنجازه، فوصفت الاستعمار الصهيوني بأنه استعمار استيطاني إحتلالي لا يود استغلالاً أو استغلال مولودنا الطبيعية وحسب (كما كان الحال مع الاستعمار الإنجليزي في مصر) وإنما يرمي إلى ما يلي :

- ١ - استلاب الأرض .
- ٢ - العيش فيها بنعم براحة البال والهدوء .
- ٣ - كما أنه يسود أن يسلب أسباب الحياة والاستمرار حتى ترحل من الأرض ليحل محلنا فيها .

والمستوطنون الصهاينة، في تصورنا، هم أساساً مرتزقة، ولكن بينما كان القدامى منهم على استعداد لتحمل شظف العيش وإرجاء الإشباع وانتظار المكافأة المادية المؤجلة، نجد أن المستوطنين الجدد، مع تزايد معدلات العلمة، يهتدون بتحقيق مستويات معيشية وأمنية عالية عاجلة دون تأجيل ولقاء، فإن المنظمة الصهيونية تدفع لهم الرشاوي الباهظة على هيئة منازل مريحة وطرق معلقة خصيصاً لهم ومدارس لأطفالهم وحراسة مشددة حتى ينعموا بالعيش في هواء «أرض الميعاد المكيف» إن النموذج الإدراكي للصهاينة نموذج آلي اختزالي مادي، وبالتالي كانت رؤيتهم للعرب ولأنفسهم آلية احترازية مادية .

في مقابل ذلك، رصدت موقف العرب فلاحظت أنهم يرفضون الانصياع للنموذج الاحترازي المادي الذي يطبق عليهم . وقد لاحظ الجنرال بن أليعازر نفسه أن العرب يلقون بالحجارة على الإسرائيليين، وصرح بلرينة معارف (١٤) نوفمبر ١٩٨٣ عن قرار بوضع حد لظاهرة إلقاء الحجارة ثم بعد يومين اثنين، اصطحب

الجنرال الإسرائيلي البرجماتي أحد مؤسسي روابط القرى لافتتاح مبنى بلدية جديد في إحدى مدن الضفة ولكن الجماهير الفلسطينية العنيدة لم تبد أي برجمانية أو اعتدال أو تقبل للقانون الطبيعي المادي، ولم تقابل أبطال البتوك والاستثمارات بالرهبر وإنما بالحجارة (الجيروساليم بوست ١٦ نوفمبر ١٩٨٣). وقد أشرت في المقال إلى وقائع عديدة أخرى عن إلقاء الحجارة أدت إلى غضب المستوطنين الصهيونية وإلى مطالبتهم الجيش الإسرائيلي بالتدخل لوضع حد لهذه الظاهرة بل إن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (كما ورد في الجيروساليم بوست ٢٤ يناير ١٩٨٤) اجتمع مع عضوي الكنيست من كتلة هتجيا وأجبرهما أن إلقاء الحجارة من أسباب قلقه العميق ووعد بأن يدرس القضية شخصياً

بعد أن رصدت ما تصورته المودج الإدراكي للفلسطينيين العرب وتصورهم لأنفسهم، حاولت أن أرصد إدراكهم لحالة الإسرائيليين التمسبه والمغالية ولصمودهم الإدراكي، فقلت بالحرف الواحد "إن مواطني الضفة العربية أدركوا أن كل ما ينقص على المستوطنين (مكبي الهواء) حياتهم هو في نهاية الامر إحباط للمخطط الصهيوني"، ومن هنا أصبح إلقاء الحجارة سلاحاً أساسياً في الضفة العربية. وقد تنبأت في المقال ذاته أن هذا السلاح، رغم ضعفه وبطائته، قد أصبح سلاحاً فعالاً مثيراً في أهميته.

والواقع أنني قد وصلت إلى ما توصلت إليه من نتائج لا من خلال عملية رصد خارجية لأحداث لا معنى لها تتم على مساحة وإنما من خلال مراقبتي لبشر لهم رؤية محددة تحدد امتعجاتهم وتوقعاتهم وبالتالي سلوكهم فالصهيوني الذي يحاول أن يرفع مستوى معيشة العرب، حتى يسوا الوطن والهوية، هو نفسه الذي يود أن يمتنع بحمام السياحة في المستوطنة والذي يصبر على مستويات عالية من الراحة والمتعة. والعربي الذي يرفض الانصياع للرؤية البرجمانية التي تود تطبيعته وتذجينه هو نفسه القادر على أن يدرك التآكل الداخلي للمستوطنين وتحولهم إلى شخصيات شرهة مستهلكة غير منتجة. من هنا الحجر الذي قد لا يقتل ولكنه يعكر صفو المستوطنين ويسقط معنى حياتهم. ومن هنا كانت الانتفاضة والله أعلم.

• المؤلف •

- الدكتور عبد الوهاب المسيري مؤلف عربي معني بالحضارة الغربية الحديثة
ويشتمل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم وبالفكر الإسلامي.
- ولد في دمشق (البحيرة) عام ١٩٣٨ وعمل أستاذاً غير متفرغ للأدب الإنجليزي
والمقارن بجامعة عين شمس (كلية البنات).
- له عدة دراسات في الصهيونية وتاريخ الحضارة والنقد الأدبي من أهمها :
- نهاية التاريخ : مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني (القاهرة، ١٩٧١).
 - الأيديولوجية الصهيونية : دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (الكويت ١٩٨٨)
 - الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية : دراسة في الإدراك والكرامة (القاهرة ١٩٩٠)
 - هجرة اليهود السوفييت : منهج في الرصد وتحليل المعلومات (القاهرة ١٩٩٠)
 - الجمعيات السرية في العالم (البروتوكولات - الماسونية - البهائية) (القاهرة ١٩٩٣)
 - الشعر الفلسطيني : مطبوعات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطينية (واشنطن ١٩٨٨)
 - الفردوس الأرضي : دراسات وإنطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة (بيروت ١٩٧٩)
 - الشعر الرومانتيكي الإنجليزي : النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية (بيروت ١٩٧٩)
 - إشكالية التحيز (جزآن) (القاهرة ١٩٩٥)
- وله العديد من المقالات في الشعر الإنجليزي والأمريكي والأدب المقارن والحضارة
الغربية الحديثة والصراع العربي الإسرائيلي. وسيصدر له في مطلع عام ١٩٩٦ العمل
الذي عكف على إكماله منذ خمسة وعشرين عاماً : موسوعة اليهود واليهودية
والصهيونية : نموذج تفسيري وتحليلي جديد (سبعة أجزاء) ، كما سيصدر له في
خريف عام ١٩٩٦ كتاب من ثلاث أجزاء بعنوان مقدمة لتفكير الخطاب العلماني.

٣	مقدمة: في الإدراك والسلوك والتعبية الإدراكية
٢٥	الفصل الأول : في الإدراك الصهيوني للعرب
٢٧	١ - من العربي المتخلف إلى العربي الغائب
٥٠	٢ - الاستجابة الصهيونية للعربي الحقيقي
٦٧	الفصل الثاني : في الإدراك الإسرائيلي للعرب
٦٩	١ - الإدراك الإسرائيلي للعرب
٨٣	٢ - الإدراك الإسرائيلي للدولة الفلسطينية
٩٢	٣ - الإدراك الإسرائيلي للانتفاضة
١١١	الفصل الثالث : في الإدراك الغربي لليهود
١١٢	١ - اليهودي كمناصر نافع داخل الحضارة الغربية
١٣١	٢ - اليهودي كمسلم في أفران الناز
١٣٨	٣ - الإدراك النازي لمفهوم الحكم الذاتي
١٤٦	٤ - الإدراك الغربي والصهيوني لحروب الفرنجة (الصليبيين)
١٥٢	الفصل الرابع : في تفكيك الإدراك الصهيوني
١٥٥	١ - العداء لليهود : تفكيك وتركيب ثلاث حالات
١٧٣	٢ - الصهيونية والرومانسية : إعادة التفكير في طرق التفكير
١٩٢	٣ - الادراك والمقدرة التنبئية للنموذج

هذا الكتاب

من أعقد القضايا التي يواجهها المحللون السياسيون قضية علاقة إدراك الإنسان للواقع المحيط به وبسلوكه ومدى تأثير الإدراك (الوعي والأفكار والرموز) في السلوك الإنساني. وهي قضية لا تختلف كثيراً عن مشكلة الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية بل والطبيعية.

وهذا الكتاب يحاول أن يلقي بعض الضوء على هذه القضية وعلى الرغم من أن كل الفصول تدور حول الصراع العربي الإسرائيلي وما يتعلق به من موضوعات إلا أن هذه بعض دراسات لحالات أتينا بها لتوضيح أسرار العقل الصهيوني.

الناشر

دار الحسام

0301240000 Alexandria



0645087



١٠١٧٥١

١٥٠٠٢